

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

نيابة العمادة لمابعد التدرج

والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

جامعة باتنة -1-

كلية العلوم الإسلامية

المنهج الإصلاحي عند محمد الخضر حسين

أطروحة دكتوراه مقدمة لنيل درجة الدكتوراه ل- م - د في العلوم الإسلامية

تخصص: الدعوة والثقافة الإسلامية

إشراف الأستاذ الدكتور:

مقلاتي صحراوي

إعداد الطالبة:

نسرین سقاي

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة الاصلية	الصفة
نورة بن حسن	أستاذ	جامعة باتنة -1-	رئيسا
صحراوي مقلاتي	أستاذ	جامعة باتنة -1-	مقررا
حسين شرفة	أستاذ	جامعة باتنة -1-	عضوا
صالح زنداقي	أستاذ محاضر (أ)	جامعة باتنة -1-	عضوا
عيسى بوعافية	أستاذ	جامعة الامير عبد القادر - قسنطينة-	عضوا
نورة رجاتي	أستاذ محاضر (أ)	جامعة الامير عبد القادر - قسنطينة-	عضوا

السنة الجامعية: 2021-2022م/1442-1443هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا
تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ]

[هود: 88]

الإهداء

إليك أبي... طيب بن مختار سقاي

أطال الله عمرك

إليك أمي... حفظك الله ورعاك

إلى زوجي عبد السلام تيطراوي

وأبنائي: عبد الرحمان، وآية الرحمان

وإلى إخوتي وأخواتي

وإلى كل مصلح من أمة سيدنا محمد ﷺ

شكر و عرفان

الشكر والمنة والفضل لله رب العالمين

وأشكر كل من كان له يد في إكمال هذا العمل، من الأهل والأحباب
والأساتذة الكرام، وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور مقالتي صحراوي
المشرف على هذا العمل، وفريق التكوين، ولجنة المناقشة، والدكتورة
ليلى فرشة التي كانت لي نعم الأخت والسند.
وإلى شيوخنا وأساتذتنا في كل مراحل التعليم
وإلى المحامي علي الرضا الحسيني

المخلص:

سعت الدراسة للبحث في المنهج الإصلاحى للشيخ محمد الخضر حسين والتعريف به من خلال محطات من تاريخه العلمى والنضالى، بالاعتماد على المنهج الوصفى باليتى التتبع التاريخى والاستقرائى، وقد توصلت إلى كونه شخصية موسوعية، فقد مثل بإنتاجه الفكرى والثقافى المتنوع والشامل، وبعمله الدعوى المنظم والمستمر، وبجهوده الإصلاحية فى مختلف الميادين مدرسة كاملة.

وقد سارت منظومته الإصلاحية وفق عمل ممنهج تميز بالشمولية والواقعية والوسطية والتدرج، واستعمل فى سبيل ذلك وسائل متعددة (المحاضرات، المجالات، الجمعيات، ..)

وهذا ما يؤكد حاجة الأمة حالياً إلى أفكار الشيخ الإصلاحية، رغم البعد الزمنى بينها وبين حاضرنا اليوم.

Abstract:

The study sought to research the reformist project of Sheikh Muhammad Al-Khidr Hussein and introduce his approach through landmarks of his scientific and withstanding history. This study will rely on the historical and inductive approaches. It came to the conclusion that he is an encyclopedic figure, represented by his diverse and comprehensive intellectual, cultural production, his organized advocacy work and continuous reforming efforts in various fields. This made him a thorough school.

His reforming system has proceeded according to a systematic work characterized by comprehensiveness, realism, moderation and gradualism, by using various means such as lectures, magazines, associations... etc

The nation needs at present for the reformist ideas of the Sheikh, despite the time distance between them and our present day.

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد:

فإن الإصلاح رسالة شريفة حملها على مر التاريخ الإنساني الأنبياء والرسل كما جاء في قوله تعالى على لسان شعيب عليه السلام: [إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِضْلَاجَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ] (هود/ 88)، ولعل أبرز منهج إصلاحى نجح في إصلاح الناس من براثن الذل والشرك هو منهج الرسول ﷺ، وبناء على ذلك ترسخت فكرة المبادرة إلى الإصلاح لدى عقول البشر الصالحين، الحاملين لكتاب الله، والعاملين بشرعه، فإذا حصل فساد وجب عليهم إصلاحه ومعالجته وإعادةه إلى أصله.

وقد خرج في الأمة الإسلامية مصلحون كانوا في مستوى الإسلام علما وفهما وتطبيقا، وتاريخنا الإسلامي يحفل بالذين بذلوا النفس والنفيس من أجل رفع مقام هذه الأمة والحفاظ على مقومات شخصيتها ومن أجل بقائها صامدة أمام طغاة الاستعمار، وذلك من خلال إحياء القيم الإسلامية وتنقية المفاهيم مما علق بها من شوائب، ورد الشبهات وتربية الجيل المسلم على هدى الإسلام.

وقد شهد الوطن العربي في أوائل القرن العشرين، انبعاث حركات إصلاحية تجديدية، رفعها مفكرون ومصلحون، تبناوا فعل التجديد والإصلاح بوصفه وسيلة ضرورية لإعادة بعث أمجاد الأمة الإسلامية لتواكب الأمم الأخرى في سيرورتها الحضارية، وهذا بإنتاجها مشروعها الإصلاحى الخاص وفق منهجها المتميز، فحاولوا لم الشمل المتفرق وعملوا على محاربة الجهل ودحض الخرافات والدجل، وقاوموا أفكار السيطرة والاستبداد محاولين بعث نهضة العالم الإسلامى من جديد.

فاستطاعوا بذلك أن يرمموا جسد الأمة العربية الإسلامية، وكانت قد مزقته أسباب الضعف المختلفة مما أوقعه فريسة سهلة المنال لمطامع الاستعمار الغاشم، فتوالت عليه

النكبات وأدلهمت فيه الخطوب، فتقدموا به خطوات إلى الأمام بأن وضعوا اللبنة الأولى في بناء الأمة من جديد.

ومن بين رجالات الإصلاح الذين ساهمت رؤاهم في تحرير الفكر قبل الجسد من الدجل والاستعمار، وذهبت مشاريعهم الإصلاحية بعيدا فلم تكتف بالإصلاح الروحي والديني بل تعدته إلى الإصلاح الاجتماعي والسياسي والثقافي، فضيلة الإمام محمد الخضر حسين، الذي يُعد من أبرز العلماء المسلمين، ومن أنشط رواد النهضة العربية، الذين نصرروا الدين بغزارة علمهم وآثارهم وبصدوعهم بالحق دفاعاً عن الإسلام، ففضلاً عن إرثه العلمي طبعت مواقفه التاريخية المشرفة الفترة القصيرة التي تولى فيها مشيخة الأزهر في مصر.

كما يعتبر الشيخ محمد الخضر حسين قامة علمية ومنازة مضيئة ما زال إشعاعها مستمرًا إلى حدّ اللحظة، فمساره الفكري الإصلاحي حافل بالإنجازات من خلال نشاطه وتأسيسه عددًا من الجمعيات الإسلامية، ومن خلال إدارته العديد من الصحف وكتاباته لعدد من المصنفات والمؤلفات، والتي ساهمت في نهضة أمة كانت غارقة في سبات عميق، مستكينة لواقع الذلّ والمهانة.

وعلى هذا الأساس يتجه بحثنا إلى إسهاماته في المشروع الإصلاحي الإسلامي، والتعريف برؤيته الإصلاحية، وقد ضم هذا البحث فصل تمهيدي شمل إشكالية الدراسة ومنهجها وأسباب اختيار الموضوع وأهميته، وأهم المفاهيم الواردة فيه، إضافة إلى ثلاثة فصول، حيث يعطي الفصل الأول نظرة شمولية عن الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والعلمي الذي نشأ فيه الخضر، وكذا مراحل حياته ونشاطاته ومؤلفاته.

أما الفصل الثاني، فقد تناول المجالات التي وقع فيها الإصلاح وهي المجال الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي والديني، فأما في المجال الاجتماعي فقد

ركزت الدراسة على آراء الشيخ الخضر في إصلاح التعليم وقضايا المرأة، وهي آراء مهمة اقترح من خلالها حلولاً يمكن اعتبارها في غاية الأهمية مثل تعميم التعليم الديني في جميع المستويات وفي كافة الاختصاصات.

وأما في المجال السياسي، فقد بيّن جهود الشيخ في محاربة الاستعمار والاستشراق وحركات التبشير، كما عدت وسائله في هذا المجال وجوانب التجديد فيها.

وأما في المجال الديني، فقد أبرزت جهوده في التفسير وبيان انحراف بعض الطوائف الدينية.

وأما في المجال الثقافي فقد ركزت الدراسة على جهود محمد الخضر حسين اللغوية، والوقوف عند أهم آرائه في إصلاح اللغة العربية.

أما الفصل الثالث فقد تعرض لمنهجية الشيخ في الإصلاح من خلال تبيان مصادره والوسائل والأساليب التي اتبعها في سبيل ذلك.

وقد اعترضتني مجموعة من الصعوبات أهمها عدم التفرغ للبحث بسبب العمل بالتدريس، إضافة إلى تشعب المادة المدروسة واتساعها ومرد ذلك غزارة جهود الخضر وتنوعها.

الفصل التمهيدي

المبحث الأول: موضوع الدراسة وخطواتها المنهجية

تقتضي المنهجية العلمية توضيح جميع الخطوات التي سيتناولها البحث الذي بين أيدينا حتى نتمكن من الفهم الصحيح لمسار البحث ومعطياته، ومن ثم الإجابة عن الإشكالية المقدمة وتحقيق جملة الأهداف المسطرة، وهو ما سنوضحه بما يلي:

1- إشكالية الدراسة:

شكّلت أزمة تخلف العالم الإسلامي وتراجعها عن درجة التحضر وتحقيق القوامة الحضارية على غيره من المجتمعات إشكالية بالغة الأهمية، فانصبّت جهود المصلحين في كل عصر على محاولة تقديم تفسيرات وحلول لها، وقد تضاعف شعور علماء العصر الحديث ومفكره باشتداد الأزمة وتعمدها، وتعدّد أوجهها خاصة بعد تعرض العالم الإسلامي إلى موجة الاستعمار العاتية التي ساهمت في إضعافه حضارياً وأدت إلى تدهور أحوال المسلمين في شتى الأصعدة. مما كثف صيحات العلماء بالدعوة لإصلاح أوضاع العالم الإسلامي والبحث عن علاج لقضايا واقعه، وقد انحصر همهم في استنهاض الهمم، من أجل بناء فكر تجديدي إصلاحي ينتشل المجتمع المسلم من تخلفه وجموده، بتحرير العقول للمساهمة في نهضة الأمة والحفاظ على مقومات شخصيتها.

ويعتبر محمد الخضر حسين أحد رواد الإصلاح في العصر الحديث في العالم الإسلامي، والذين كانت لهم اليد الطولى في إصلاح الفكر الديني والسياسي والاجتماعي والثقافي، من أجل الخروج بالأمة من التخلف إلى آفاق التقدم والازدهار واستئناف دورها الحضاري.

لم يكتف محمد الخضر حسين بطرح أفكاره الإصلاحية في محاضراته، بل تجاوز ذلك إلى العمل الميداني من خلال الجمعيات الثقافية، ومن خلال العمل المؤسساتي، كما خلف هذا العالم الجليل عددا من الكتب والرسائل التي تتميز بالعمق والتحليل ولكنها مع الاسف لم تأخذ حظها من الشهرة والذيع، ولم تنل حقها وقيمتها العلمية.

بناء على ذلك يتجه هذا البحث إلى تناول شخصية هذا الإصلاح النهضوي، من خلال محطات من تاريخه العلمي والنضالي، ضمن التساؤل الرئيس: **ما هو المنهج**

الإصلاحي في المجالات المختلفة للخضر حسين؟

وتتفرع عنه مجموعة من التساؤلات الفرعية كما يلي:

- من هو الشيخ محمد الخضر حسين؟
- ماهي مجالات إصلاحه المختلفة؟
- ما هي المصادر والوسائل الدعوية التي استخدمها الشيخ محمد الخضر حسن في منهجه الإصلاحي؟
- وماهي المنهجية المعتمدة في ذلك؟

2- المنهج المعتمد:

أعمال الإمام محمد الخضر حسين كثيرة، يصعب الإحاطة بها، وتستدعي اتباع عدة مناهج لتتبعها، ولكن الدراسة التي بين أيدينا اعتمدت بالأساس على **المنهج الوصفي**، مستخدمة مجموعة من الآليات منها **التتبع التاريخي**، بحيث اعتمدها عند الحديث عن ظروف عصره وذكر الأحداث التاريخية التي تعاقبت في حياة محمد الخضر حسين وكذا الظواهر الاجتماعية والثقافية والسياسية مع مراعاة التسلسل الزمني للأحداث، كما جاء في سياق الدراسة التي تتطلب إجراء بحث في الدراسات التي دوتت للشيخ محمد الخضر حسين وأرخت لنشاطاته وأعماله، وكذا الاستقصاء وأحيانا الاستقراء بحيث أن هذه الدراسة تحتاج إلى تقص لجهود محمد الخضر حسين الإصلاحية وجمعها في المجالات المختلفة، كما أن البحث يقتضي الكلام عن منهجيته الإصلاحية في كل مجال، وذلك بالبحث في النصوص الأصلية لاستخلاص أفكاره وآرائه ومواقفه.

3- أهداف الدراسة: تهدف الدراسة إلى:

- ← معرفة إسهاماته الإصلاحية في المجالات المختلفة.
- ← الوقوف على المصادر والوسائل التي استخدمها للتمكين لعمله الإصلاحي.
- ← التعرف على العصر الذي عاش فيه الشيخ والتعريف بشخصيته.
- ← التعرف بمنهجيته الإصلاحية ومجالاتها المختلفة.

4- أهمية الموضوع:

- يمكن استشفاف أهمية الموضوع من خلال قراءة مفردات العنوان الذي يحمله، ومع ذلك فإنّ من الضروري توضيح بعض النقاط تأبيداً وتأكيداً لهذه الأهمية، ويشمل ذلك:
- ← يتناول الموضوع أحد الشخصيات المهمة ذات الفاعلية في مرحلة حساسة من تاريخ الأمة الإسلامية، كون هذه الشخصية نشأت وعملت في بيئة استعمارية تخللتها ظروف " ثقافية اجتماعية واقتصادية" مزرية.
 - ← يبحث هذا الموضوع في شخصية أكاديمية، مصلحة، اجتماعية، قدوة تقلدت مناصب علمية كان أعلاها مشيخة الأزهر الذي يكاد يكون أعلى منصب علمي في العالم الإسلامي.
 - ← أهمية الاطلاع على مناهج الحركات الإصلاحية الماضية وأعمالها والتي مثّلت أنموذجاً إصلاحياً مجدياً، لأن معرفة المنهج الإصلاحي بمثابة مفتاح النهوض بالأمة، وهذا ما يمكننا من التعرف على الجوانب الإيجابية فنأخذ بها في مجال الدعوة ونقف على السلبيات فنتجاوزها.
 - ← الإسهام في إلقاء مزيد من الضوء على شخصية كانت من أعظم أسباب التواصل بين المشرق والمغرب العربيين.

5-أسباب اختيار الموضوع:

تضافرت جملة من الأسباب لتتشكّل دافعا قويا لطرق هذا الموضوع نوردها في الآتي:

الأسباب الموضوعية:

الاهتمام بالحركات الإصلاحية في العصر الحديث، ومحاولة تحديد بداياتها ومعرفة أسسها وآليات عملها.

الرغبة العلمية في معرفة الكثير عن هذه الشخصية وما وظّفته من أساليب، فقد تلقينا في دراستنا سير وتراجم عدد من العلماء والمصلحين، فتعرفنا على جهودهم وأساليبهم في خدمة الإسلام والمسلمين واستفدنا منها كثيرا ومحمد الخضر بلا شك في حياته الكثير من العبر والدروس والتجارب التي لنا أن نتعلم منها ونستفيد، نظرا لما يتميز به من علم وافر ورأي سديد في تنوير العقول وإخراج هذه الأمة من الجهل والظلم الى الحرية والاستقلال. تحقيق أهداف الدفعة والتي منها تزويد المكتبة بدراسات تشمل الجانب الإصلاحي، لشخصيات جزائرية نادرة الدراسة.

الأسباب الذاتية:

تمثل هذه الدراسة محطة هامة في تاريخ علم من أعلام منطقة الزيبان، التي أنتمي إليها، خاصة أنه الوحيد الذي تقلد مشيخة الأزهر من غير المصريين، كما أن دراسة أعلام هذه المنطقة تكاد تكون منعدمة لدى الكثير من الباحثين والطلبة.

رغبتي الشديدة في الوقوف على هذا الموضوع، وبحثه بحثا مستفيضا بحسب ما تيسر لي، خاصة بعد تعرفي على المحامي علي الرضا الحسيني -حفظه الله- وهو ابن أخ الإمام ومؤلف لموسوعة أعماله والتي أهداني نسخة منها وقد ضمت خمسة عشر مجلدا جمعت أعمال الإمام، وكذا زيارتي للزاوية العثمانية (زاوية علي بن عمر) وهو جد

الإمام الخضر، بطولقة ولاية بسكرة، ومقابلة ابن عم الإمام شيخ الزاوية العثمانية الشيخ عبد القادر العثماني-حفظه الله-، ومما زاد في رغبتني للكتابة في هذا المجال هو جمع الإمام بين العلم والزهد، وتحقق الداعية المصلح الرباني في شخصه.

6- الدراسات السابقة:

لا يمكن إغفال أهمية الدراسات السابقة في تدعيم مسار البحث العلمي، ونظرا لهذه الأهمية تمت مراجعة ما توفر منها وعرضها على النحو التالي:

◀ محمد الخضر حسين حياته وآثاره (للدكتور محمد موعدة)¹

أول من تناول الخضر حسين ومؤلفاته بالدراسة هو الدكتور محمد موعدة في رسالة عنوانها محمد الخضر حسين حياته آثاره وطبعت في الدار التونسية 1974، وهي مقسمة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تناول فيه مختلف مراحل حياته في تونس ودمشق والقاهرة، أما القسم الثاني: فقد تعرض فيه إلى آثاره، فأشار إلى ما توفر لديه من إنتاج الخضر حسين، وما كان معروفا من تأليفه، هو قليل مقارنة بما نشر في موسوعة الأعمال الكاملة.

القسم الثالث خاص بضبط اتجاهاته الفكرية في مختلف الميادين وذلك بالاعتماد على آثاره عامة، وخاصة على بعض النصوص الهامة التي تبين مواقفه ونظرياته ضمن الحركة الفكرية الإسلامية.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن هذه الدراسة على قيمتها العلمية تبقى منقوصة، حيث لم تعتمد على جميع مؤلفات الخضر حسين، ولكنها تستمد قيمتها من أنها كانت أول الدراسات التي تناولته بالبحث وعرفت به وفتحت الأبواب إليه أمام الباحثين.

¹/ محمد موعدة: محمد الخضر حسين حياته وآثاره، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974.

◀ موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين (جمع المحامي علي

الرضا الحسيني)¹

قام المحامي علي الرضا الحسيني وهو ابن أخ الخضر الحسين بجمع كافة أعمال الخضر حسين في موسوعة تحتوي على خمسة عشر مجلد، نشرت بدمشق عام 2010، وتجدر الإشارة أن المحامي علي الرضا الحسيني أضاف المجلدات 13/14/15 للموسوعة بعد جمع أعمال عمه، وهي عبارة عن بحوث للإمام وجدها مؤخرًا، أو ملتقيات أجريت حوله، ومعظم الدراسات لم تتجاوز الجانب الوصفي فكانت عبارة عن ترجمات تناولت مراحل حياته، أو أشارت إلى أعماله ولكنها لم تبحث في جوانب فكره، إلا دراسة واحدة تعرضت لمنهجه في التفسير، واعتمد فيها الباحث على كتاب أسرار التنزيل.

◀ رؤى الإصلاح عند محمد الخضر حسين (لأستاذ الدكتور المرسي محمود

شولح)²

جاءت هذه الدراسة في سلسلة كتاب الأمة، العدد 159، تناولت الجزء الأول من رسائل الإصلاح بالتحليل، والذي غلب عليه الاهتمام بالجوانب الأخلاقية والسلوكية؛ فقد تناول الشيخ - دون ترتيب - حوالي أربعة عشر خلقًا وسلوكًا نطالعتها في العناوين التالية: فضيلة الإخلاص - الأمانة في العلم - الإنصاف الأدبي - صدق العزيمة أو قوة الإرادة - الغيرة على الحقائق والمصالح - الشجاعة وأثرها في عظمة الأمم - كبر الهمة في العلم - الدهاء والاستقامة - العزة والتواضع - المداراة والمداهنة - الرفق بالحيوان - التعاون في الإسلام - الحلم وأثره في سعادة الحياة - المروءة ومظاهرها الصادقة.

¹ / محمد الخضر حسين: موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، دار النوادر، دمشق، 2010.
² / المرسي محمود شولح، رؤى الإصلاح عند الإمام محمد الخضر حسين، كتاب الأمة، العدد 159، السنة 34، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، قطر، 2013، ص52.

وقد توصلت الى مجموعة من النتائج أهمها:

- التزام الإمام الواضح بالاتجاه الإصلاحى، وثراء أفكاره وعمقها وتشبعه بها.
- شمول الإصلاح كافة المجالات العلمية والأخلاقية والاجتماعية والتربوية.
- متابعة الغربيين في النظم الإدارية من أجل تحقيق النهضة على الوجه المأمول، وعدم المتابعة في الأخلاق التي تتصادم وذاتية المسلم وخصائص المجتمع الإسلامى.

﴿ تفسير محمد الخضر حسين لآي القرآن وملاحح الإصلاح فيه¹ ﴾

جاءت هذه الدراسة لتجيب عن التساؤل التالى: كيف وظف محمد الخضر حسين القرآن وتفسيره في إيجاد حلول لمشاكل زمانه؟ وقد اعتمد على المنهج الوصفى التحليلى الذى يتناسب مع الموضوع، مستعينا بأداة الاستقراء.

وقد توصل الباحث إلى مجموعة من النتائج وهى:

- أسلوب الشيخ في الإصلاح يشعر المسلم بأن القرآن أهم دستور يضمن للأمة السلامة، ويخرج بها من بوتقة التخلف بمعالجة أهم المعضلات.
- استطاع الشيخ محمد الخضر حسين أن يوظف التفسير الحكيم للقران الكريم لإصلاح المجتمع.
- أعطى للدعاة والمصلحين أنموذجا ومنهجاً في التعامل مع الخصوم.
- استقلالية محمد الخضر حسين في التفسير مما جعله تفسيره عصرياً يعكس بصدق وبوضوح توجهات العصر.
- توجه محمد الخضر حسين المباشر إلى الهدف الذى تريده الآيات دون الإكثار من الخلافات والأقوال.

¹/ بن ديمية جيلالى: تفسير محمد الخضر حسين لآي القرآن وملاحح الإصلاح فيه، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، شعبة العلوم الإسلامية، تخصص التفسير بين القديم والحديث، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، السنة الجامعية 2013-2014.

◀ منهج الشيخ محمد الخضر حسين في مواجهات الانحرافات العقديّة والفكرية
(للدكتور محمد بن ابراهيم الحمد)¹

تناول الباحث جهود محمد الخضر في مواجهة الانحرافات العقديّة والفكرية في عصره كالبدع والشركيات وقضايا الإلحاد والعلمانية ومفهوم الحرية ونحوها من القضايا الشائعة في عصره والتي واجهها وكان له موقف منها.

استخدم الباحث المنهج التاريخي والوصفي والاستقرائي، وقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- للشيخ مواجهات كثيرة مع الفرق والدعاوى الضالة، كمواجهاته للبابية والبهائية والقاديانية.

- للشيخ محمد الخضر منهج متميز في الرد على المخالفين، فعبقريته الفذة تتجلى في الردود، فهو يتمثل أدب الرد بأخلاق المحاوراة والمناقشة والنقد من جهة ولزومه الإخلاص والأمانة والإنصاف من جهة أخرى.

- سارت ردود الشيخ الخضر وفق أساليب منهجية متمسكة بالاطراد، والشمولية، والواقعية والتوجه إلى الأفكار دون الأشخاص.

◀ التفكير اللساني عند محمد الخضر حسين. (لكمال مجيدي)²

جاءت هذه الدراسة لتبحث في حقيقة التفكير اللساني عند محمد الخضر حسين من حيث منطلقاته وأدواته ومنهجه ونتائجه وقيمتها العلمية، وقد توصل الى عدد من النتائج أهمها:

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد: منهج الشيخ محمد الخضر حسين في مواجهة الانحرافات العقديّة، المجلد الأول، دار ابن خزيمة، المملكة العربية السعودية، 2015.

² / كمال مجيدي: التفكير اللساني عند محمد الخضر حسين، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في الأدب واللغة العربية، تخصص علوم اللسان العربي، كلية الآداب واللغات جامعة محمد خيضر بسكرة، السنة الجامعية 2015-2016.

- اهتم محمد الخضر بدراسة العربية وترك باب الاجتهاد فيها مفتوحا لأن حياتها مرهونة بحياة أهلها ومدى حضورهم في الحياة العلمية.

- اطلع الخضر على مناهج القدماء في دراساتهم اللغوية ومقاربة هذه المسائل بالاعتماد عليها لم يمنعه من الاطلاع على المناهج التي كانت سائدة عند الآخر كالمنهج التاريخي المقارن.

- دعا الخضر إلى الاهتمام بتتمة ملكة الكتابة من خلال دعوته إلى تدريس الانشاء والاعتناء بالخطابة.

◀ محمد الخضر حسين "النص القرآني في فكره الإصلاحية" (للدكتور الطاهر بن سالم)¹

تهدف هذه الدراسة إلى بيان علاقة المصلحين في العصر الحديث بالنص القرآني، وتحاول الإجابة عن سؤالين محوريين:

أما السؤال الأول فيتعلق بالبحث عن كيفية قراءة المصلحين للنص القرآني، وتحديد المناهج التي اعتمدها لفهمه، وبيان الأدوات والوسائل التي وقع استعمالها للغوص في بواطنه واستخراج معانيه.

وأما السبب الثاني: فهو البحث عن مكانة القرآن عند المصلحين في العصر الحديث، ومدى اعتمادهم عليه في تأسيس مشاريعهم الإصلاحية.

وقد حاول الباحث في الدراسة الغوص في جوانب التفسير فَبَيَّنَ مناهجه ووضح أسسه وقواعده، وقد توصل إلى نتيجة أن الخضر يعتبر بحق رائدا للتفسير الموضوعي في العصر الحديث فهو أول من مارس هذا اللون من التفسير حسب منهج واضح مكتمل القواعد والأسس.

¹ / الطاهر بن سالم: محمد الخضر حسين "النص القرآني في فكره الإصلاحية"، دار النقوش العربية، ط01، تونس، 2015.

← جهود محمد الخضر حسين اللغوية دراسة وصفية تحليلية (لمسعود طواهرية)¹

ركزت هذه الدراسة على جهود محمد الخضر حسين اللغوية، والوقوف عند أهم آرائه في إصلاح اللغة العربية، وفي وسائل نموها واتساعها، وفي تجديد نحوها وتيسيره، مع مقارنة ذلك كله بآراء المحدثين وبقرارات بعض المجامع العلمية.

اقتضت طبيعة الموضوع الجمع بين المنهج الوصفي والمنهج الموازن، وقد توصل البحث إلى النتائج الآتية:

- يؤكد محمد الخضر قوة الصلة بين اللغة والمجتمع، فلا وجود لها من دونه، ولا وجود له من دونها، واللغة عنده من أبرز مقومات الأمة، ومن أقوى عوامل وحدتها الوطنية.
- يرى محمد الخضر أن الثنائية ظاهرة طبيعية في كل اللغات، وأن العامية فصحة محرفة في ألفاظها وفي كثير من أساليبها، فيجب إصلاحها وتخليصها من هذا الفساد الذي اعتراها، ويقترح لذلك منهاجا متكاملا.

* نظرة تقييمية عامة حول كل الدراسات

أضافت هذه الدراسات أبعادا مهمة للدراسة الحالية أهمها:

- ← تحديد تصور عام للدراسة مع التحديد الدقيق لمشكلتها، وبلورة أهدافها.
- ← التقارب موجود على مستوى المنهج.
- ← الاستفادة من المراجع والمصادر المستخدمة لتدعيم الدراسة.

تناولت دراستنا مختلف جوانب الخضر حسين كما ستركز على منهجه الإصلاحية واعتمدت على أغلب مؤلفاته، ونتاجه المجموع في موسوعة الأعمال الكاملة، بينما تخصصت الدراسات السابقة في جزئيات منفصلة من ميادين إصلاحه أغلبها في الجانب اللغوي.

¹ / مسعود طواهرية: جهود محمد الخضر حسين اللغوية دراسة وصفية تحليلية، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في اللغة، كلية اللغة العربي والأدب والفنون، جامعة باتنة 01، الجزائر، 2015 / 2016.

المبحث الثاني: مفاهيم الدراسة

إنّ تحديد المفاهيم خطوة مهمة في أي دراسة كي تتضح أبعادها وإطارها العلمي، وكما يمكن القارئ من استيعاب معلومات البحث وحقائقه ومقاصده، ودراستنا هذه نتعامل مع عدد من المفاهيم التي تنحصر أساساً في:

← المنهج

• لغة

جاء في " لسان العرب" لابن منظور: " نَهَج: طريق نَهَج، بيّن واضح، وهو النَّهَج، والجمع نهجات ونُهَج ونُهوج... وأنْهَج الطريق: وضَّح واستَبَانَ، وصار نهجا واضحا بيّنا، والمنهاج: الطريق الواضح. ونَهَجْتُ الطريق: أبْنَيْتُهُ وأَوْضَحْتُهُ، ونَهَجْتُ الطريق سَلَكْتُهُ... والنَّهَج: الطريق المستقيم، ونهج الأمر إذا وضَّح"¹.

وفي "معجم العروس من جواهر القاموس" ورد النهج بفتح فسكون، الطريق الواضح البين، وهو النهج، محرّكة أيضا، والجمع نهجات، ونهج، ونهوج، والمنهاج: الطريق الواضح.² وقد ورد هذا المصطلح في القرآن الكريم في قوله تعالى: [لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْكَاً وَهِنَهَا جَاباً] (المائدة/ الآية 48)، وجاء في تفسير كلمة منهاجا معنى الطريق الواضح السهل والسنن الطرائق³.

• اصطلاحا

عرف المنهج تعريفات متعددة ومتنوعة اختلفت باختلاف طبيعة الموضوع المدروس، ففي مجال البحث عن المعرفة عرّفه البعض بأنه: "طريقة في البحث عن المعارف

¹ جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، المجلد 02، مصر، د.ت، ص 383.

² محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، الجزء 34، 1996، ص 373.

³ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار الإمام مالك، الجزائر، ج 02، 2006، ص 104.

يخضع لشروط وخصائص نوع المعرفة المراد البحث فيها.¹

يقول طه جابر العلواني: "إن المنهج حين يطلق في إطار معرفي إنما يراد به قانون ناظم ضابط يقنن الفكر ويضبط المعرفة"²، ويقول: "إن المنهج سبيل للوصول إلى الحقيقة وطريقة تسلك في فهم الظواهر وتحليلها"³.

أمّا في غيره من المجالات فقد حدده **عبد المجيد النجار** بأنه: "مجموع الطرق والأساليب التي يكون بها الأداء الحضاري على مستوى الفرد والسلوك"⁴، وعرفه في مقام آخر بأنه: "الآلية التي تكون بها صياغة الفكرة وتطبيقها في الواقع ويتوقف عليه إلى حد كبير صيرورتها واقعا حضاريا"⁵.

كما عرف بأنه: "النسقية الكيفية الإجرائية المنتظمة، التي كان النبي ρ يعرض بها الإسلام على الناس، ويؤسس بواسطتها وعيهم بسنن الخلق والتسخير والاستخلاف، ويتمثل بها ذلك في حياته الرسالية، ويجسد عبرها النموذج الاجتماعي الإسلامي في واقع الحياة، ويواجه بها التحديات الداخلية والخارجية التي تعترض حركة التغيير والتحول، ويضمن بها حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها"⁶.

وعليه، يمكن القول أن تعريف المنهج ارتكز على التعريف اللغوي من حيث كونه مجموع الطرق والوسائل ولكنه يختلف باختلاف طبيعة الموضوع المدروس.

¹ / علي سامي النشار: مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1984، ص 352، 353.

² / طه جابر العلواني: نحو منهجية معرفية قرآنية، دار الهادي، لبنان، 2004م، ص 107.

³ / المرجع السابق، ص 231.

⁴ / عبد المجيد النجار: فقه التحضر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص 63.

⁵ / عبد المجيد النجار: عوامل الشهود الحضاري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص 39.

⁶ / الطيب برغوث: المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها، دار قرظبة، الجزائر، 2004، ص 57.

الإصلاح

• لغة

ورد هذا المصطلح في قواميس اللغة مشتقا من الفعل صلح، يصلح، صلاحا وصلوحا.... وأصلح الشيء بعد فساده أقامه¹، وأصلح أتى بالصلاح وهو الخير والصواب²، وقيل هو استقامة الحال على ما يدعو إليه العقل والشرع³، فعندما يقال صلحت حال الرجل أي زال عنها فسادها⁴.

وورد ذكره في القرآن الكريم بوصفه قيمة جوهرية تكررت مادتها "صلح" فيه 180 مرة، وقد تكون أسمى تجلياتها في قوله تعالى على لسان شعيب: [إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ] (هود/ 88).⁵

• اصطلاحا

يدل الإصلاح في معناه العام كما عرفته المعاجم في باب المباحث الاجتماعية على تغييرات تدخل على بنية مؤسسة أو نظام أو أوضاع عامة "اجتماعية، أو ثقافية، أو اقتصادية" ما بغرض تصحيحها أو تطويرها وتحسين أدائها استنادا الى مرجعية روحية أو فكرية معينة.⁶

والإصلاح في المفهوم الإسلامي، يطلق على كل دعوة استهدفت العودة بالإسلام الى طهارته الأولى... وكان الإصلاح يعني عادة التعريف بالإسلام الصحيح اعتمادا على

¹ جمال الدين ابن منظور، مرجع سابق، ص31.

² أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي: المصباح المنير، دار الحديث، 2003، ص207.

³ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، المجلد 01، ط8، بيروت، 2005، ص229.

⁴ خليل الحبر: المعجم العربي الحديث، مكتبة لاوس، باريس، 1973، ص749.

⁵ بشير ملاح: مواقف الحركة الإصلاحية الجزائرية من الثقافة الفرنسية، عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص15.

⁶ المرجع نفسه، ص15.

القرآن والسنة، كما يعني العمل لتطابق حياة المسلمين مع نظم دينهم وقيمه¹.

كما عرّف بكونه: " تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى، واعتباره ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتقلل من غلظه وخبطه، لتعم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني..."².

ويرى عبد الرحمن حنبكة الميداني أن الإصلاح: " خطة من خطط العمل لخدمة أفراد المسلمين وجماعتهم، بغية الإصلاح وحمايته من الانحراف عن صراط الله الى سبيل الضلال والغي والفسق والفجور، فالردة والكفر والشقاء العاجل والآجل، وبغية حماية المجتمع الإسلامي من التفكك والانهايار بعوامل الفساد التي قد تظهر فيه من قبل ذوي الأعراف فيه عن صراط الله، وما يكون من نتيجة انحرافهم من عدوى تؤثر على هيكل المجتمع الإسلامي بوجه عام"³

كما عرّف بأنه "محاولة رد الاعتبار للقيم الدينية ورفع ما أثير حولها من شبه وشكوك قصد التخفيف من وزنها في نفوس المسلمين، ونعني به كذلك محاولة السير بالمبادئ الإسلامية من نقطة الركود التي وقفت عندها حياة المسلمين إلى حياة المسلم المعاصر حتى لا يقف مسلم اليوم موقف المتردد بين أمسه وحاضره عندما يصبح في غده."⁴

ويعني أيضا الرجوع إلى الإسلام، ويصحب ذلك منهج كامل متكامل يشمل الأفراد والمجتمعات، يصلح العقيدة والفكر والثقافة، ويصلح السلوك والعبادة، فهو إصلاح

¹ / نصيرة هرنون: المشروع الإصلاحى عند عبد الحميد بن باديس، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة 2، الجزائر، ع50، 2018، ص03.

² / محمد عبده: الأعمال الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات، ج 2، بيروت، 1972، ص318.

³ / عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني: فقه الدعوة الى الله، دار القلم، دمشق، 1996، ص63.

⁴ / محمد البهي: الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت 1973، ص421.

اجتماعي واقتصادي وسياسي، وهو إصلاح دعوي تربوي تنظيمي شامل متكامل¹ ويفرق ابن باديس بين الإصلاح والفساد فيقول: " (والإصلاح) هو إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله، بإزاء ما طرأ عليه من فساد، (والإفساد) هو إخراج الشيء عن حالة اعتداله بإحداث اختلال فيه.²

ويرى المرسي محمود شولح أن الإصلاح الأصيل ينطلق من المصادر الإسلامية ويسير في خطين متوازيين، يبدأ الأول بتنقية المفاهيم الإسلامية مما علق بها، وإزالة الشوائب عنها، وتصفيتها من الكدر الذي علق بها، والثاني بتربية المسلمين على هذه المفاهيم الأصيلة ليعودوا بها إلى الحياة من جديد، موجّهين وقادة، وليستردوا بهذه التربية المفاهيم الأصيلة الشخصية الإسلامية المتكاملة، والمناهج الإسلامية الموضوعية لصالح الحياة.³

ونقصد بالإصلاح في هذه الدراسة إعادة ما اندس من معالم الدين في نفوس المسلمين، بشكل يجعل جميع مناحي الحياة تتناغم مع هذا الدين الإسلامي.

أما المنهج الإصلاحية فنعني به إجرائياً في هذه الدراسة: مجموع الطرق والأساليب التي اعتمدها الإمام محمد الخضر حسين لإقامة إصلاح شامل لجميع الميادين في المجتمع الإسلامي.

¹ / علي عبد الحليم محمود: فهم أصول الإسلام في رسالة التعاليم، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 1994م، ص15.

² / عبد الحميد بن ابن باديس: تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2002م، ص72، 73.

³ / المرسي محمود شولح: مرجع سابق، ص52.

الفصل الأول: حياته

للبيئة الاجتماعية والسياسية والثقافية... دور بارز في تكوين معالم الشخصية، لذا كان من الضروري معرفة الظروف والأحوال التي نشأ فيها الإمام الخضر حسين لمعرفة مدى تأثيره بها وتأثيره فيها.

وبما أن الإمام محمد الخضر حسين جزائري الأصل، تونسي المولد والنشأة، كانت هجرته الأولى إلى الشام، ومستقره ووفاته بمصر، وبين رحلة الشام واستقراره بمصر رحلات لبرلين وأستانة. فقد وجب علينا معرفة حال العالم الإسلامي في عصره عموماً وحال تونس والشام ومصر خصوصاً.

المبحث الأول: ظروف عصره

المطلب الأول: أوضاع العالم الإسلامي:

حديثنا عن العالم الإسلامي في تلك الفترة يقتضي الحديث عن الدولة العثمانية، التي كانت تضم معظم دول العالم الإسلامي تحت لوائها، خاصة البلاد العربية، وكانت الدولة العثمانية قد بلغت أوج توسعها إبان عصر السلطان سليمان القانوني، ولكنها أخذت في التراجع والانكماش بعد ذلك العصر، حيث فقدت الدول العربية واحدة تلو الأخرى، فاحتلت الجزائر سنة 1830م من قبل الفرنسيين، وعدن على يد الإنجليز سنة 1839م، واحتلت فرنسا تونس سنة 1881م، وانجلترا مصر سنة 1882م، وإيطاليا ليبيا سنة 1911م، واحتلت بريطانيا العراق سنة 1917م.¹

وباقى الدول العربية خرجت من حياة الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى التي امتدت من عام 1914م - 1918م.

والحقيقة أن آخر خلفاء الدولة العلية السلطان عبد الحميد الثاني قد أصر سقوط الدولة

¹ / أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، المجلد 5، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط7، 1986، ص 888.

ثلاثين عاما، يقول سعيد الأفغاني -أستاذ جامعي وكاتب-: "يرحم الله عبد الحميد. لم يكن في مستواه وزراء، ولا أعوان ولا شعب. لقد سبق زمنه. وكان في كفايته ودرايته وسياسته وبعد نظره، بحيث استطاع وحده بدهائه وتصرفه مع الدول، تأجيل انقراض الدولة ثلث قرن من الزمان. ولو وجد الأعوان الأكفاء والأمة التي تفهم عنه لترك للدولة بناء من الطراز الأول"¹.

وسبب مرض الدولة آنذاك هو فساد دينها، بما انتشر فيه من خرافات، ضف إلى ذلك استبداد الحكام، وتعاसे الحياة الاجتماعية، وتدهور الأوضاع الاقتصادية... وأكبر من ذلك كله تضافر القوى اليهودية والصليبية للقضاء على الخلافة العثمانية كونها آخر تجسيد للأمة الإسلامية...

فحرض الغرب على الثورات الداخلية، كثورة شعوب البلقان عام 1804م، وقدمّ المساعدات لها حتى انفصلت عن الخلافة سنة 1878هـ.

وحرّض اليونان على الثورة سنة 1820م حتى استقلت سنة 1830م.

وأثار فتنة القوميات والعصبيات والأقليات بقصد "فرق تسد"².

إلى أن تم القضاء على الدولة العثمانية بوصفها خلافةً إسلاميةً على يد اليهودي مصطفى كمال أتاتورك، بعد محاولات حثيثة دامت لأكثر من ست سنوات من قبل ثيودور هرتزل توسلا ورجاء أن يقابل عبد الحميد عام 1901م، ليضع خدمات اليهود ضمن خدمات الدولة، مقدما عروضاً تمثلت فيما يلي:

¹ / محمد حرب: السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، دار القلم، دمشق، ط1، 1410هـ - 1990م، ص6.

² / انظر الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية - دراسة حول كتاب: النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة - لشيخ الإسلام مصطفى صبري - تقديم ودراسة د مصطفى حلمي، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط2، 1409هـ - 1989م، ص 18-19-20.

- 1- مساعدة السلطان على إنشاء أسطول بحري.
 - 2- معاضدته في سياسته الأوربية.
 - 3- إنشاء جامعة عثمانية في القدس تغني عن الذهاب إلى جامعات أوروبا.
 - 4- تحسين أوضاع السلطنة العمرانية.
 - 5- تقديم قرض مالي لتغطية تكاليف المشروعات المقررة...
- وهذا كله حتى يمنح اليهود حقَّ استيطان فلسطين بإعطاهم جزءا من أرضها، ولكن جهود هرتزل في إقناع السلطة باءت بالفشل فأخذ يسعى لإيجاد حيل أخرى.
- وجاءت فرصة إنعقاد المؤتمر الصهيوني الأول بسويسرا بمدينة بال وبرئاسة هرتزل عام 1897م، وبعد ذلك عقد معاهدة سايكس بيكو بين فرنسا وبريطانيا سنة 1916م لاقسام بلاد المسلمين التي كانت تابعة للخلافة العثمانية.
- وفي عام 1916م قامت ثورة الشريف حسين للتخلص من حكم العثمانيين.
- وفي عام 1917م صدر وعد بلفور بمنح اليهود حق استيطان فلسطين.
- وفي عام 1918م احتل الإنجليز فلسطين بعد انهزام تركيا.¹

المطلب الثاني: أوضاع تونس

ضعفت الدولة العثمانية بعد انهزامها سنة 1827م في معركة نفارين ببلاد اليونان، مما جعل الولايات التابعة لها كتونس تواجه مصيرها بنفسها.²

¹ /انظر عبد الله التل: خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، دار القلم، بيروت، 1965م، ص 230-231.

² / رأفت الشيخ: تاريخ العرب المعاصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1996، ص 141.

احتلت فرنسا تونس عام 1881م، وذلك بتوقيع معاهدة البارود في 12 ماي 1881م¹، وبعد توقيع هذه المعاهدة تدهورت الأوضاع العامة في تونس في مختلف المجالات.

كان باي تونس محمد الصادق² البالغ آنذاك 67 سنة، والمولود في 22 مارس 1814م، هو الأمير الثاني عشر في الدولة الحسينية التي تنتمي إلى عائلة إغريقية الأصل تسلمت السلطة سنة 1705م.

ولم يكن مهتماً بالشؤون العامة، بل كانت تتولى حاشيته السلطة، وبعد توقيعه المعاهدة مع فرنسا، فإن هذه الأخيرة لم تجرده من كل السلطات ولكنها حرمته من تسيير شؤون البلاد الخارجية، حتى أنه أصبح لا يستطيع عقد أية معاهدة مع بلد أجنبي دون موافقة حكومة فرنسا.³

وقد تعاقب البايات على حكم البلاد، ومرّ على تونس ثلاثة بايات هم: محمد الصادق باي، ومحمد باي، وأحمد باي.

عند تولي محمد الصادق باي الحكم بدأت الإنجازات الهامة تتحقق على صعيد العمل الاجتماعي فتم مدّ خط البرق بين تونس وأوروبا عن طريق الجزائر وتأسيس المطبعة الرسمية.

وأهم ما يجب ذكره عن أوضاع تونس في ذلك الزمن هو احتلال فرنسا لها سنة 1881م، وكان عمر الشيخ محمد الخضر حسين آنذاك ثماني سنوات.

¹ / معاهدة البار دو: الموقعة يوم 12 ماي 1881م بين الحكومة الفرنسية وباي تونس محمد الصادق والتي تعلن حماية فرنسا على البلاد التونسية، وتشكل بداية الاستعمار الفرنسي لتونس، وبهذه المعاهدة أصبح لفرنسا الحق في الإشراف المالي والعسكري والخارجي وحق تعيين مفاوض فرنسي في مدينة تونس، وأي قرار لا بد أن يتم قبوله من المقيم العام الفرنسي حتى يكون نافذاً. انظر علي المحجوبي، انتصاب الحماية الفرنسية بتونس، سراس للنشر، تونس، 1986، ص 152-154.

² / محمد الصادق باي: ولد سنة 1814م ورث الحكم عن أخيه وهو الباي 12 من الأسرة الحسينية، دام حكمه 22 سنة، كان مترفا ولا يهتم بشؤون البلاد.

³ / علي المحجوبي، المرجع السابق، ص 60

ولا يخفى على أحد كيف يصبح حال دولة مستعمرة، ولا يجب أن نذكر سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية...، ولكننا نركز على بعض النقاط التي نرى أنها مهمة في حياة الخضر حسين رحمه الله.

تأسست المكتبة الصادقية على يد خير الدين التونسي¹ في مايو 1875، وتعتبر أول مدرسة ثانوية عصرية في تونس.²

وفي سنة 1896م تأسست المدرسة الخلدونية بقرار وزاري يهدف إلى النهوض بالعلوم كالرياضيات والطب وغيرهما...، فأقبل الطلبة من جامعة الزيتونة عليها بكثرة.

المطلب الثالث: أوضاع مصر:

في أواخر القرن 19 هجري، وبداية القرن 20 ميلادي، وبالضبط في سنة 1798م تعرضت مصر إلى حملة عسكرية شنّها عليها نابليون بونابرت، حاملاً الشعارات الرنانة التي تظهر جلب المنفعة للبلاد، ومع أن الفرنسيين جلبوا المكتشفات العلمية والتقنية كالمطبعة والمجمع العلمي... الخ، وبعض الأنظمة الإدارية كتسجيل المواليد والوفيات... الخ، غير أنها في حقيقة الأمر جاءت لاستنزاف خيرات البلاد، وإشاعة الفجور والتحلل الأخلاقي، واستغلال المرأة، وبث العلمانية... الخ.

استولى بعدها محمد علي على عرش مصر، حيث جاءها جندياً ألبانياً عسكرياً أمياً، مع الجيوش التركية والانجليزية التي حشدت لإخراج نابليون من مصر.

¹ / خير الدين التونسي: ولد سنة 1820 في بلاد الشركس، بيع في سوق الرقيق بإسطنبول واشتره تحسين بك، أخذ إلى تونس وكان عصامياً في التعلم فأتقن التركية والعربية والفرنسية، ارتقى في الرتب العسكرية ليصبح أمير الأمراء، أصدر كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، قام بإصلاحات عديدة ذاع بها صيته فاستدعاه السلطان عبد الحميد الثاني وعينه صدراً أعظماً للدولة، توفي بإسطنبول سنة 1890م ونقل رفاته إلى تونس سنة 1968م.

² / أنظر على المحجوبي، المرجع السابق ص162.

حكم محمد علي مصر حكما مستبدا وراثيا، وحاول وضع أسس نهضة في مختلف المجالات.

عاش محمد الخضر حسين معظم أيام حياته في مصر تحت ظل حكم تلك الأسرة، إلى قيام الثورة المصرية.

الثورة المصرية أو الانقلاب العسكري كما يسميه البعض، كان سنة 1952 بقيادة الضباط الأحرار وتم إخراج الإنجليز ونيل الاستقلال، وبرز جمال عبد الناصر قائداً للانقلاب والثورة والتغيير.

المبحث الثاني: مولده ونسبه ونشأته

المطلب الأول: مولده ونسبه

هو الشيخ العلامة الزاهد الكبير محمد الخضر حسين بن علي بن عمر¹، ولد يوم 26 رجب 1293هـ، الموافق لـ 21 جويلية 1873م²، في الجنوب التونسي بواحة النخيل "نفطة"³. وهو من أسرة كريمة عريقة النسب يرجع أصلها إلى مدينة طولقة ولاية بسكرة في الجزائر⁴. (واتصال نسب الشيخ المشهود فيه أعلاه، وسلسلة أجداده الأخيار، هو أنه الشيخ محمد الخضر بن الحسين بن علي بن أحمد بن عمر بن الموفق ابن محمد بن أحمد بن علي بن عثمان بن يوسف بن عمران بن يوسف بن عبد الرحمن بن سليمان بن أحمد بن علي بن أبي القاسم بن علي بن أحمد ابن حسن بن سعد بن يحيى بن محمد بن يونس بن لقمان بن علي بن مهدي ابن صفوان بن يسار بن موسى بن عيسى بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر ابن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله (ﷺ)⁵.

¹/ عبد الله العقيل: من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، تقديم: مصطفى مشهور وآخرون، ج 01، دار البشير، ط 8، د.ب.ن، 1429هـ-2008م، ص 845.

وعلي بن عمر (ت1258هـ-1842م) هو مؤسس زاوية طولقة، وتعتبر أهم فروع الزاوية الرحمانية لمنطقة الجنوب الجزائري، أخذ مؤسسها عن الشيخ محمد بن عزوز البرجي، سيرها بعده علي بن عثمان خليفته بنوع من الحكمة وهو ابن المؤسس، امتد تأثيرها إلى خنشلة، بسكرة، أم البواقي، تقرت، الوادي. بلغ عدد أتباعها سنة 1871م حوالي 17 ألف مريد. عدد زواياها 17، أنظر عبد المنعم القاسمي الحسني: أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، دار الخليل القاسمي، الطبعة الأولى 1427هـ، بوسعادة-الجزائر، ص 248.

²/ محمود المرسي شولج: رؤى الإصلاح عند الامام محمد الخضر حسين في: كتاب الأمة، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، ط01، قطر، 1435هـ-2013، ص61- وهو نفس التاريخ الذي ذكره ابن أخيه المحامي علي الرضا الحسيني في موسوعة الأعمال الكاملة للشيخ الخضر حسين...وهناك من ذكر أنه ولد في 16 أغسطس 1876م.

³/ علي الرضا الحسيني: موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، المجلد 01، دار النوادر، ط01، د.ب.ن، 1431هـ-2010، ص11.

⁴/ محمد رجب البيومي: كتاب النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، ج1، دار القلم-الدار الشامية، ط1، دمشق-بيروت، 1415هـ-1995م، ص52.

⁵/ علي الرضا الحسيني: الموسوعة، مج 14، دار النوادر، ط1، د.ب.ن، 1431هـ-2010م، ص14.

المطلب الثاني: أسرته

كان والده "الحسين بن علي بن عمر" قد ارتحل من طولقة إلى نفطة صحبة صهره مصطفى بن عزوز، وكان متزوجا بابنته حليلة السعدية، شقيقة العلامة الشيخ المكي بن عزوز¹.

وذلك لأن الشيخ مصطفى بن عزوز لبي رغبة شيخه علي بن عمر وتوجيهه له بأن يؤسس زاوية علمية بنفطة.² وقد فعل ذلك بعد أن استقر بنفطة سنة 1257هـ-1837م وما تزال الزاوية موجودة إلى الآن، وقد امتد نفوذها الديني المنسوب إلى الطريقة الرحمانية إلى كل من الجزائر وتونس.³

وجده للأب الشيخ التقي العابد علي بن عمر بن أحمد بن عمر بن الموفق، ينتمي نسبه إلى الشيخ علي بن عثمان الشريف الحسيني، دفن ببلدة الدوسن، وهو معروف بها.⁴ ولد الشيخ علي بن عمر ببلدة طولقة حوالي سنة 1166هـ، وعاش نحو 92 سنة في عبادة الله وإرشاد الناس إلى الدين والخير والصلاح، أسس الزاوية وهو في عمر 28 سنة، حيث أمره شيخه الشيخ محمد بن عزوز بتأسيسها، وكان ذلك سنة 1194هـ/1780م، وتوفي رحمه الله شهيدا ببلدة طولقة يوم الخميس 3 ربيع الأول 1258هـ/1842م.⁵

وهذه الزاوية موجودة إلى يومنا هذا في الطريق الذي يمر من طولقة إلى برج بن عزوز وتعرف بالزاوية العثمانية.

¹ / أبو القاسم محمد كرو: أعلامنا محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق، دار المغرب العربي، ط1، تونس، 1973م، ص11.

² / علي الرضا الحسيني: (ومضات من حياة العلامة محمد الخضر حسين) المجلة الخلدونية، العدد 8، ديسمبر 2010م-صفر 1423هـ، الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية لولاية بسكرة، بسكرة، الجزائر، ص16.

³ / محمد مواعدة: محمد الخضر حسين حياته وآثاره، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974م، ص 23.

⁴ / سليمان الصيد، تاريخ الشيخ علي بن عمر شيخ زاوية طولقة الرحمانية، دار هومه، بوزريعة-الجزائر، ص 9.

⁵ / المرجع نفسه، ص14.

وأما أمه فهي السيدة الصالحة حليلة السعدية بنت الشيخ مصطفى بن عزوز، وهي من الشهيرات بالتقى، والعلم والصلاح، ولدت في تونس سنة 1270هـ، وتوفيت بدمشق سنة 1335هـ، فرثاها ابنها الشيخ محمد الخضر بقصيدة عنوانها (بكاء على قبر) وتقع في ثلاثة وعشرين بيتاً.

وهناك طرفة لطيفة تقول أن السيدة حليلة كانت تُرَبِّت على كتفه وهو صغير قائلة له: " إن شاء الله يا أخضر، تكبر وتروح الأزهر.¹ "

وأما جده للأم الشيخ مصطفى بن محمد بن عزوز، فأصله من قرية تسمى -البرج- اشتهر أبوه -محمد- بالعلم والصلاح، تتلمذ على يد الصوفي الشهير الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهرى ناشر الطريقة الرحمانية².

استقر الشيخ مصطفى بن عزوز ببلدة نفطة التونسية سنة 1257هـ/1837م، وبنى زاويته الشهيرة والموجودة حتى الآن.

وقد كان الشيخ مصطفى بن عزوز ذا شهرة تملأ الأصقاع.

أما خاله فهو العلامة الشهير محمد المكي بن عزوز المعروف في تونس والجزائر والأستانة (تركيا)، هذه الأخيرة التي استقر بها إلى نهاية حياته، وكان خلالها مدرسا للحديث بدار الفنون.³

وقد انتخب في عهد الوزير خير الدين باشا لِحُطَّة الإفتاء ببلدة نفطة، وهو في عهد الشباب؛ ثم انتقل إلى تونس للتدريس بجامعة الزيتونة، ثم ارتحل إلى دار الخلافة بتركيا، واستقر بالأستانة إلى نهاية حياته، ونال شهرة علمية عالمية؛ فهو من كبار علماء عصره؛

¹ / علي الرضا الحسيني: ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، الموسوعة، المجلد 15، ص 165.

² / محمد مواعدة، مرجع سابق، ص 23.

³ / المرجع نفسه، ص 25.

حيث اشتهر بالحديث، والفقہ، والأصول، والأدب، مع الصلاح، وكان من أكثر الناس أثراً على الشيخ الخضر، وأمّتهم عليه في العلم.¹

وقد توفي العلامة محمد المكي بن عزوز في الأستانة سنة 1334هـ، ورثاه الشيخ محمد الخضر بقصيدة عنوانها (هاهنا شمس علوم).

وقد قالها بعد عودته من ألمانيا إلى الأستانة بعد وفاة خاله بشهرين، فزار قبره، ورثاه بهذه القصيدة التي يقول طالعها:

ربّ شمس طلعت في مغرب وتوارى في ثرى الشرق سناها
هاهنا شمسُ علومٍ غربت بعد أن أبليت بترشيش ضحاها²

المطلب الثالث: نشأته

نشأ الشيخ محمد الخضر حسين في تلك العائلة المثقفة والمتخلقة، وفي بلدة نفطة التي كانت مقراً للعلم والعلماء، وتلقب بالكوفة الصغرى لما فيها من طلب للعلم واجتماع وتناظر للعلماء.³

ويتم فيها حفظ القرآن الكريم ومتون اللغة والفقہ وحلق الدروس التي تنظم في الفقہ والتوحيد والنحو والصرف والحديث...

ويقول الإمام في هذا: "نشأت في بلدة من بلاد الجريد بالقطر التونسي يقال لها نفطة وكان للأدب المنظوم والمنتثور في هذه البلدة نفحات تهب في مجالس علمائها وكان حولي من أقاربي وغيرهم من يقول الشعر فتذوقت طعم الأدب من أول نشأتي وحاولت وأنا في

¹/انظر: محمد مواعدة، مرجع سابق، ص 17-18.

²/ترشيش: اسم قديم من أسماء تونس. انظر محمد الخضر حسين "ديوان خواطر الحياة" في: موسوعة الأعمال

الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، المجلد 07، مصدر سابق، ص 232.

³/ محمد مواعدة، مرجع سابق، ص 26.

سن الثانية عشرة نظم الشعر¹

ومع أن مؤرخي حياة شيخنا يذكرون أن التعليم في هذه المدينة وفي تلك المرحلة كان يعدّ تعليماً أولياً لا يتعدى مبادئ علوم الدين ووسائلها، إلا أننا نجد من بين الكتب التي درسها في هذه المرحلة العمرية المبكرة من حياته كتباً لا يكاد يعرفها كثير من المتخصصين، ومن العجيب أنه تلقاها ودرسها على يد أمه؛ فقد ذكر الشيخ عن نفسه - فيما بعد- أن والدته قد لقنته مع إخوانه (الكفراوي) في النحو و(السفطي) في الفقه المالكي².

وهكذا تلقى الشيخ محمد الخضر حسين في بداية حياته العلم عن أمه السيدة حليلة السعدية التي عرفت بالعلم والتقوى وهي ثمرة للأسرة الصالحة التي نشأت فيها هي الأخرى.

وحفظ القرآن الكريم وهو صغير على يد شيخه عبد الحفيظ اللموشي³، أما الذي كان له الأثر الأكبر في تعليمه وتنقيفه والعناية به عناية خاصة فهو خاله العلامة محمد المكي بن عزوز.

انتقاله إلى تونس: قضى محمد الخضر حسين سنوات طفولته الأولى ببلدة نقطة إلى أن بلغ السنة الثانية عشرة وقيل الثالثة عشر من عمره، ثم انتقلت عائلته إلى تونس العاصمة في أواخر سنة 1306 هـ 1886 م⁴، حيث جامع الزيتونة منارة العلم والعلماء على غرار القرويين بالمغرب الأقصى والأزهر بالمشرق، وانكب على تحصيل العلم

¹ / محمد موعدة، مرجع سابق، ص 27.

² / ياسر أبو شبانة، الجزء الثالث من كتاب (رسائل الإصلاح) للإمام الأكبر الشيخ/محمد الخضر حسين دراسة تحليلية دعوية، جامعة المنصورة، دعوة وثقافة إسلامية، سنة 2008، ص 6. (الكفراوي: يدخل كتاب شرح الكفراوي على متن الأجرومية في علم النحو في نطاق تخصص علوم اللغة العربية/ السفطي: الشيخ يوسف بن سعيد بن اسماعيل السفطي المالكي المصري، له تصانيف كثيرة في الفقه، ت 979هـ).

³ / محمد موعدة، مرجع سابق، ص 27.

⁴ / محمد موعدة، المرجع السابق، ص 28.

بشغف وحب.

وعندما استقرت العائلة بتونس العاصمة، واصل محمد الخضر تعليمه الابتدائي، ثم التحق في السنة الموالية (1307هـ-1887م) بجامع الزيتونة.

وباشر دراسته على يد ثلة من العلماء البارزين، وكان يحضر دروسه وحلقات الدروس الأخرى زيادة في التعمق.

حصل على شهادة جامع الزيتونة يوم الأحد 14 صفر 1316هـ، والتي تسمى "شهادة التطويح" لأنها تمكن حاملها من التطوع لإلقاء الدروس في الزيتونة وكذا القيام بوظائف علمية ودينية.¹

وتأثر محمد الخضر حسين بعدد من شيوخه العلماء، أبرزهم الشيخ سالم بوحاجب (ت-1925م)، والشيخ عمر بن الشيخ (ت1911م)، والشيخ محمد النجار (ت 1911م).

¹ / محمد الخضر حسين، أسرار التنزيل، الموسوعة، مجلد 1، مصدر سابق، ص 13

المبحث الثالث: شيوخه وأخلاقه

أهم ما يؤثر في حياة العلماء بعد أسرهم شيوخهم، وبتتبعنا لحياة الخضر وقفنا على دور أمه وأبيه في تكوينه، وكذا خاله العلامة محمد المكي بن عزوز، ونذكر من مشايخه الذين بلغنا أنه تتلمذ على أيديهم بجامع الزيتونة: الشيخ محمد النجار، والشيخ سالم بوحاجب، والشيخ مصطفى رضوان¹، إضافة إلى المشايخ عمر بن الشيخ، ومحمد البشير الفورتي، ومحمد العزيز الوزير، ومحمد الشريف، ومحمد صالح الشريف، وأحمد بوخريص، وإسماعيل الصفايحي، وعلي الشنوفي، ومصطفى بن خليل، ومحمد جعيط، أحمد بن مراد، وحسين بن حمد، وغيرهم.²

المطلب الأول: عمر بن الشيخ

الأستاذ عمر بن الشيخ (ت1329هـ/1911م): وصفه الشيخ محمد الخضر حسين بمجلة الهداية الإسلامية في مقال كتبه عنه بأنه:- من أعظم أساتذتي بجامع الزيتونة بتونس- فمن هو يا ترى؟:

"هو عمر بن أحمد بن علي بن حسن بن علي بن قاسم المعروف بابن الشيخ، ولد الأستاذ بقرية يقال لها: "الماتلين" من عمل "بنزرت"، في حدود سنة 1239 هـ، وقدم به والده تونس صبياً، فنشأ بها، وعندما بلغ سن التعلم، أقام له معلماً للقرآن المجيد، ثم دخل الجامع الأعظم جامع الزيتونة سنة 1259، فتلقى العلم على كبار الأساتذة (...). ولما اشتد ساعد الأستاذ فهماً، وامتألت وطابه علماً، جلس للتدريس بجامع الزيتونة سنة 1266، ثم صار مدرساً من الطبقة الثانية سنة 1268"،³

¹ / انظر: عبد الله العقيل، مرجع سابق، ص 845.

² / انظر: علي الرضا الحسيني، موسوعة الأعمال الكاملة، مصدر سابق، المجلد 1، ص 13.

³ / محمد الخضر حسين، تونس وجامع الزيتونة، الموسوعة، مجلد 11، مصدر سابق، ص 140 .

وذكر الإمام أن أستاذه عمر بن الشيخ، صار مدرسا من الطبقة الأولى سنة 1283م، ثم إنّه درس كتبا شتى، تدريس بحث وتحقيق، منها: "الشرح المطول على متن التلخيص"، و"شرح الأشموني على الخلاصة"، وكتاب "مغني اللبيب"، و"شرح المحلي على جمع الجوامع"، و"شرح السعد على العقائد النسفية"، و"شرح الزرقاني على المختصر الخليلي"، و"تفسير القاضي البيضاوي"، انتهى فيه إلى قوله تعالى: [شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] (آل عمران/18)

ودرس كتاب "المواقف بشرح السيد"، ولم يكن من الكتب التي تدرس لذلك العهد، حتى أتى على نهايته، وتليت عند ختمه القصائد البليغة، وكان يحضره أكابر المدرسين¹.

وذكر الإمام الخضر أن لشيخه عمر بن الشيخ فضلا في نظام التعليم بالجامع الأعظم، ذلك أنه كان من أبرز أعضاء اللجنة التي شكلها الوزير خير الدين².

وتقلد أستاذا شيخنا خطبة الإفتاء، مع بقاء منصب النيابة عن وزارة المعارف في نظارة الدروس، وتنازل عن مرتب تدريسه للمتطوعين بالتدريس في الجامع الأعظم مدة حياته، كما أوصى لهم بقطع من المزارع يصرف ريعها لهم بعد وفاته³.

ومن ميزات الأستاذ عمر بن الشيخ أنه نافذ الفكر في المباحث الغامضة، قادر على المسائل المستعصية، لا يكثر من المناقشة خاصة مع أصحاب الآراء المختلفة، والدليل على نفاذ فكره تقديمه دروسا عن كتاب المواقف في علم الكلام لعرض الدين الإيجي، وقد حضر الإمام محمد عبده درسا له في هذا الكتاب سنة 1302هـ / نوفمبر 1884م، وفي آخر درس لهذا الكتاب حضر جمع غفير من الأساتذة، ورجال العلم، والطلبة، في يوم مشهود بجامع الزيتونة، وأثنى عليه العلماء يومها، نذكر منهم العلامة محمد المكي بن

¹ محمد الخضر حسين، تونس وجامع الزيتونة، الموسوعة، مجلد 11، مصدر سابق، ص 141.

² أنظر: المصدر السابق، ص 142-143

³ انظر: المصدر نفسه، ص 143-144

عزوز حيث قال قصيدة فيه، هذ بيت منها:

إذا عمر بن الشيخ وافى لدرسه تعال التقط درا بملء جفان¹

ويذكر الإمام محمد الخضر حسين طريقة تدريس شيخه عمر بن الشيخ في مجلة "الهداية الإسلامية" شهر جمادى الآخرة سنة 1355هـ فيقول: "أما أسلوب الأستاذ في التعليم فمن أنفع الطرق، كان يقرر عبارة المتن، ويبسطها حتى يتضح المراد منها، ثم يأخذ في سرد عبارات الشرح، وما تمس الحاجة إليه من الحواشي والكتب التي بحثت في الموضوع، لاسيما الكتب التي استمد منها شارح الكتاب، ويتبعها بالبيان جملة جملة، ولا يغادر عويصة أو عقدة إلا فتح مغلقتها، وأوضح مجملها، بحيث يتعلم الطالب من دروسه كيف تلتقط جواهر المعاني من أفواه المؤلفين زيادة عما يستفيد من العلم"². ثم يقول عنه: "تلقيت عن الأستاذ رحمه الله دروسا في تفسير البيضاوي، ودروسا من شرح التاودي على العاصمية، ودروسا في شرح الشيخ عبد الباقي على المختصر الخليلي"³

ويذكر الإمام أن الشيخ لما بلغ سنا كبيرة، طلب استعفاءه من منصبه الفتوى والنيابة بالجامع، فكان له ذلك، وأبقت له الدولة لقب مفتي ونائب اسماً شرفياً، وعينت له مرتبا دائما، ومع هذا بقيت مجالسه تفيض علما، إلى أن توفاه الله تعالى في الثالث من محرم عام 1329.4

¹/انظر: محمد مواعدة، مرجع سابق، ص 35-36.

²/ محمد الخضر حسين، تونس وجامع الزيتونة، الموسوعة، مجلد 11، مصدر سابق، ص 141-142.

³/ محمد رجب البيومي، مرجع سابق، ص 53.

⁴/ انظر: محمد الخضر حسين، تونس وجامع الزيتونة، الموسوعة، مجلد 11، مصدر سابق، ص 144-145.

المطلب الثاني: سالم بوحاجب

الشيخ سالم بوحاجب (ت 1343هـ/1925 م) آية من آيات العبقرية:

ولد الشيخ حوالي سنة 1244هـ، بقرية "بنبله"، ولما بلغ سن التعليم ارتحل إلى تونس للتعلم بجامع الزيتونة، ولما نبغ أصبح مدرسا بالمعهد الزيتوني، ومن بين دروسه: "شرح العضد على مختصر ابن الحاجب"، و"شرح القسطلاني على صحيح الإمام البخاري"، و"الشرح المطول للسعد التفتازاني" وغيرهم...¹.

كان فيلسوفا محنكا في الفلسفة الإسلامية، ومحل زيارة المستشرقين، والمهتمين بالحقائق الإسلامية من الفرنسيين، يحاور بأدب وعلم جميل...

يقول عنه الإمام الخضر: "كان يحارب الخرافات، والآراء السخيفة، والأقوال المسندة إلى الشريعة بمجرد الدعوى، أو بأحاديث غير ثابتة، وكان يبدي رأيه بكل صراحة، وإن صادم المعروف بين شيوخ عصره؛ كإنكاره لوجود جبل قاف، ومشاهدة الجن بعين الباصرة، ويرى أن ما يزعم من ذلك إنما هو من قبيل تأثير الخيال"².

ومن المواقف الجليلة للشيخ سالم بوحاجب مع شيخنا الخضر حسين، أنه لما أراد الإمام الخضر إنشاء مجلة علمية أدبية والتي سماها "السعادة العظمى"، واجه بعض النفور من النفوس الخاملة، ولما انصرف الإمام من حلقة درس "صحيح البخاري"، قال له شيخه بوحاجب: "لا تعبا بما يلقيه هؤلاء في سبيل عمك، وتأس بالنبي - عليه الصلاة والسلام - إذ قال له ورقة بن نوفل: لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي...³، ولقد تكلم الإمام الخضر عن شيخه بإعجاب، وذكر موقفا له سأله فيه أحد المستشرقين

¹ / محمد الخضر حسين، تونس وجامع الزيتونة، الموسوعة، مجلد 11، مصدر سابق، ص 183.

² / المصدر السابق، ص 184

³ / أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، الرقم 3، دار الاعتصام، القاهرة 1423هـ/2003م، ص 10.

عن سبب إباحة الإسلام للمسلم بأن يتزوج بالكتابية، ومنع المسلمة من التزوج بالكتابي؟ وقال المستشرق بأن هذا الحكم نوع من التعصب في الدين! فأجابه الشيخ بأن الإسلام يراعي تحقيق المقصد من الزواج ألا وهو التعاون والتآلف، وانتظام حلة المعاشرة، والمسلم لا يمكنه أن يؤذي الكتابية فهو يؤمن بنبيها، ويعتقد بصحة دينها في الأصل، فلا يبدر منه عادة ما يجرح شعورها أو يكدر صفو المعاشرة، أما الكتابي فلكونه لا يؤمن بالإسلام ولا بصدق الرسول محمد ρ ، فقد يؤذي المسلمة بقذف في دينها أو نبيها"¹.

ويضيف الإمام بكلامه الشيق عن شيخه بوحاجب قائلاً فيه: "حضرت دروسه عندما أخذت في قراءة الكتب العالية فشعرت بأني دخلت في مجال أفسح للنظر وأدعى لنشاط الفكر، إذ لم يكن الأستاذ ممن يقصر مناقشته على عبارات المؤلفين بل كان يتجاوزها إلى نقد الآراء نفسها ويتجاوز النقد إلى الغوص على أسرار المباحث دينية كانت أم عربية، لا يترك في درس الكتب الشرعية أن يعقد الصلة بين أصول الإسلام ومقتضيات المدنية الحاضرة"²

والحقيقة أن الشيخ سالم بوحاجب من أبرز رواد الحركة الإصلاحية في تونس، وكانت علاقته قوية بالشيخ محمد عبده، ولمكانته العلمية الممتازة، أجرت الجمعية الخلدونية سنة 1899م، محاضرة على شرفه، قدم فيها درس تفسير لقوله تعالى: [وَمَلَأَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ...] (البقرة: 31)، وبيّن فيها ما للعلم من أهمية وقيمة وأثر في حياة الأمم، فكان للشيخ سالم بوحاجب الأثر الجميل والحافز المرشد لإعمال الفكر في مختلف القضايا.³

يذكر الإمام شيخه فيقول عنه: "تحلى الفقيد بأداب راقية، مثل التواضع، والحلم،

¹/انظر: محمد الخضر حسين، تونس وجامع الزيتونة، الموسوعة، مجلد 11، مصدر سابق، ص 189

²/ محمد مواعدة، مرجع سابق، ص 34.

³/ أنظر: المرجع السابق، ص 34-35.

والصراحة، فازداد شرفاً على شرف العبقرية، وانجذبت له القلوب بعاطفة المحبة بعد امتلائها بمهابته وإجلاله¹

برز الشيخ سالم بوحاجب علمياً وفكرياً وسياسياً، فما كان من الوزير خير الدين باشا إلا أن عينه من مساعديه في اصلاح الإدارة وتنظيم التعليم وكان ذلك قبل الاحتلال، وبالإضافة إلى تدريسه بجامع الزيتونة، فقد أسند إليه العمل بإدارة المال.

بعد ذلك أرسل الأستاذ إلى إيطاليا مبعوثاً من طرف الحكومة التونسية قبل الاحتلال، ومن إيطاليا سافر الشيخ إلى الأستانة رفقة الوزير خير الدين باشا، حيث التقى السلطان العثماني وامتدحه بقصيدة، فأمر له السلطان بمكافأة عليها ووسام، فاعتذر وقال أن حمل الوسام لا يرغب فيه أهل العلم ببلادنا.²

توفي الشيخ سالم بوحاجب سنة 1343هـ-1925م، والشيخ محمد الخضر حسين مستقر يومئذ بالقاهرة، فرثاه بقصيدة تبين مدى حزنه على فقدانه رحمه الله.³

المطلب الثالث: محمد النجار

الشيخ محمد النجار (ت1329هـ/1911م)

ولد العلامة أبو عبد الله محمد النجار في 15 شعبان 1255هـ، ودخل جامع الزيتونة سنة 1270هـ، تلقى العلم عن والده، وخاله، وأعيان من كبراء عصره، منهم الشيخ سالم بوحاجب، والأستاذ محمد الطاهر بن عاشور، والشيخ عمر بن الشيخ...، ليبدأ التدريس عام 1272هـ بجامع الزيتونة، ويرتقي في المناصب حتى بلغ منصب الإفتاء، وجمع بذلك بين التدريس والفتوى بالجامع، توفي رحمه الله في منتصف ليلة

¹ محمد الخضر حسين، تونس وجامع الزيتونة، الموسوعة، مجلد 11، مصدر سابق، ص 187.

² انظر: المصدر السابق، مجلد 11 ص 185.

³ انظر: محمد موعدة، مرجع سابق، ص 35.

السادس عشر من رمضان من سنة 1331هـ - رحمه الله-.¹

تميز الشيخ بسعة اطلاعه، وغزارة علمه، وحبه للمناقشة والبحث، قال عنه الإمام الخضر حسين: "كنت ممن حضر درسه لكتاب المواقف ودرسه لتفسير القاضي البيضاوي ودرسه لشرح عبد الباقي الزرقاني على المختصر الخليلي ولشدة استقصاء الأستاذ لما يقرره الكاتبون وعنايته بنقد ما يوردونه من الآراء مكثنا بضع سنين في أبواب من هذه الكتب معدودة وكنت استفيد من مجالسه مالا يقل عما استفيد من دروسه. إذ كان رحمه الله ذا ذاكرة لا تخونه فيما يستودعها من علم. ولم نر له في سعة الاطلاع والمحاضرة بالعلوم على اختلاف فنونها من نظير"²

كما ذكر الإمام الخضر أن شيخه ترك عدة مؤلفات نذكر منها تأليفا ممتعا في رؤية الهلال، وترك بين ثناياه مسائل فقهية وأصولية وفلكية...³

ونلاحظ من خلال هذا التقديم لأبرز مشايخ الإمام محمد الخضر حسين أن هؤلاء العلماء تمايزوا فيما بينهم في الأسلوب ومعالجة القضايا، سواء العلمية أو الإسلامية وكذا في نظرتهم للحركة الإصلاحية الرائدة في الأوساط الثقافية والفكرية في تونس خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بالرغم من تشابههم في القيمة العلمية والثقافية.⁴

ولم يتخلَّ الإمام محمد الخضر حسين عن دروس مشايخه : بن الشيخ وبواجب والنجار، وغيرهم إلى غاية خروجه من تونس نهائياً.⁵

وقد قرأ على هؤلاء العلماء وغيرهم الكثير من الكتب في شتى الفنون.

¹ / أنظر: محمد الخضر حسين، تونس وجامع الزيتونة، الموسوعة، مجلد 11، مصدر سابق، ص 120-121.

² / محمد مواعدة، مرجع سابق، ص 36-37.

³ / انظر: محمد الخضر حسين، تونس وجامع الزيتونة، الموسوعة، مجلد 11، مصدر سابق، ص 122

⁴ / انظر: محمد مواعدة، المرجع السابق، ص 37.

⁵ / انظر: المرجع السابق، ص 38.

وبمجرد إلقاء نظرة في دفتر شهادات الشيخ الذي يتضمن تصحيح مشايخه له فيما درسه عليهم من كتب تتضح كثرة تلك الكتب، وتنوعها.

ومما جاء في دفتر شهاداته في جامع الزيتونة إبان دراسته فيه: قراءته كتاب القطر، والكفاية تصحيح الشيخ محمد صالح الشريف وكتاب الشيخ الماكودي تصحيح الشيخ أحمد بوخريص، وكتاب المكودي على الخلاصة تصحيح محمد صالح الشريف، والأربعين النووية وبانت سعاد والخزرجية في العروض ومقامات الحريري والجزرية في التجويد تصحيح الشيخ محمد المكي بن عزوز، ولامية الأفعال ووالأشموني والمطالع القطرية ومختصر السعد تصحيح الشيخ إسماعيل الصفايحي، والسمرقندية بشرح الملوي، والدردير على المختصر الخليلي والسوسي تصحيح الشيخ محمد المكي بن عزوز، والحلي على جمع الجوامع تصحيح الشيخ مصطفى رضوان، والوسطى، والبيقونية بشرح الزرقاني تصحيح مصطفى بن خليل، والمطول والتاودي على العاصمية والشامية_ تصحيح الشيخ أحمد بو خريص، والشفا بشرح الشهاب تصحيح الشيخ محمد جعيط، وشرح القطب على متن الشمسية تصحيح أحمد بن مراد، والشيخ التاودي على التحفة تصحيح الشيخ عمر بن الشيخ، وغيرها كثير من الكتب¹.

وكان الإمام محمد الخضر حسين يحضر بعض حلقات الدروس الأخرى زيادة على البرنامج الأصلي؛ رغبة في التعمق والاطلاع، وبهذا حلّ محلّ رعاية خاصة من طرف جلّ الشيوخ المدرسين، وخاصة البارزين منهم.

¹/ انظر: محمد الخضر حسين، الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، الموسوعة، مجلد 13، مصدر سابق، ص80 وما بعدها.

المطلب الرابع: أخلاقه وصفاته وبعض ما قيل فيه

أهم ما في العالم أخلاقه، وقد تحلى الإمام محمد الخضر حسين بأخلاق عالية، وصفات حميدة، بل لقد كان في ذلك كشأن سلف الجيل الأول، وشهد له من عرفه في تونس ومصر وغيرهما ممن خالطه بمكارم الأخلاق، فقد اتصف بالزهد، والعفة، والحلم، والكرم، والعدل، والإنصاف، والوفاء، والتواضع، وإبائة الضيم، وثبات الود في الصداقة، والغيرة على المصالح، والشجاعة، والهيبة...

وقد كتب الإمام عن هذه المعاني فكان مثالا حيا لمن يجمع بين القول والعمل.

يقول الأستاذ محمد مواعدة عن الإمام: "وأهم ما يمكن استنتاجه من التعرف على مراحل حياة الرجل وآثاره أن هناك انسجاماً، وترابطاً متيناً بينهما، فكانت مؤلفاته النظرية والشعرية صورة صادقة لما كان يؤمن به من أفكار، ويعتقده من آراء في حياته. وهذا ما يجعل الرجل شخصية ثقافية متميزة لها عناصرها الأصلية، ومضمونها الجلي ومركباتها البارزة.¹

ويقول عنه الدكتور أحمد الشرباصي²: "الشيخ محمد الخضر حسين رجل أهم ما يتصف به الهدوء، والاتزان، والعمق؛ فهو يفكر طويلاً، ويستقصي في بحثه، ويستوعب، ويدير الفكرة في ذهنه أياماً، ويأخذ لها زادها من إحساسه ومعارفه، ومطالعاته واستنتاجاته، ثم إذا جلس ليكتب كتب في هدوء وأناة، يزن لفظه قبل أن يخطه، ويتدبر عبارته قبل أن يصوغها، فإذا ما جنّت بعد ذلك لتقرأ ما كتب، أعجبك أن ترى عقلاً واسعاً نيراً، وتفكيراً عميقاً سليماً، ونظرة بعيدة صحيحة، وأسلوباً رزيناً محكماً".³

¹ / محمد مواعدة، مرجع سابق، ص 206.

² / أحمد الشرباصي: (1918 - 1980) رجل دين وخطيب مصري، عمل أميناً للجنة الفتوى بالأزهر، وكان مبعوثاً علمياً للأزهر الشريف في الكويت، ألف أكثر من عشرين كتاباً.

³ / محمد الخضر حسين، رسائل الإصلاح، الموسوعة، المجلد 5، ص 282-283.

إلى أن قال: "وأنت حينما ترى الأستاذ الخضر حسين، أو تجلس إليه، تعجب لهذه الشخصية النبيلة التي تفيض خلقاً وأدباً، وتطيل الصمت والسكوت، ولا تتكلم إلا بقدر، ولا تتطرق إلا بحياء، وقد تقول: كيف استطاع ذلك الشيخ الكبير أن يصبر لمتاعب التفكير والتأليف والكتابة والطباعة؟ ولكنك لو علمت أن في هذه الأثواب الرهيبة أسداً إسلامياً طالما ضحى وجاهد، وطالما دعا إلى الله، وعمل لله، ولو علمت ما يجب أن تعلمه من تاريخ الخضر حسين، لأدركت أن وراء هذا الهدوء ثورة، وأن هذا الشخص يَحْكُمُه عقل جبار، وتزيّنه روح مؤمنة لا تعرف هواده ولا ليناً، ولا راحة في سبيل العمل للعلم والدين".⁽¹⁾

وقال عنه الدكتور محمد عمارة: "الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين: عقل

إسلامي مجدد ومناضل في سبيل النهضة العربية والإحياء الإسلامي"².

وقال: "لقد جمع إلى وَعْيِهِ بتراث أمته، وكنوزها الحضارية وعياً بالتحديات المعاصرة التي تحول بينها وبين النهضة والإحياء؛ فكان لسان "الأصالة" المعبر عن مشكلات "المعاصرة"، وضرورتها، يزود عن "فكر الإسلام ومجد العروبة"، ويدعو إلى النهضة الحديثة المرتكزة على "المعارف" و"الصناعات"³.

ومن مظاهر تواضعه أنه كان يجيد اللغة التركية، والفرنسية، والألمانية، ولكنه لم يبد ذلك، ولم يقل أنه يتقنها، وقد حكى مترجمه: "الأستاذ محمد فهمي عثمان التونسي، سفير الأفغان ببرلين عاصمة ألمانيا وقتئذ: أن الشيخ الخضر يعرف الألمانية، ولا يتظاهر بمعرفتها، بل يتخذ أحد المترجمين دليل له ظاهرياً"⁴

¹ / محمد خضر حسين: رسائل الإصلاح، مج 5، مصدر سابق، ص 285 .

² / محمد الخضر حسين: الإرث الفكري، الموسوعة، مج 13، مصدر سابق، ص 341.

³ / المصدر السابق، ص 354.

⁴ / محمد الخضر حسين: جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية، الموسوعة، مج 9، ص 16.

ومن صفاته أنه كان ذا ثقة كبيرة بالله، بالرغم من أسفاره وتغربه عن أهله وأصحابه، وفي حديث معه أجاب عن سؤال تناول غربة الفضلاء حيث قال له أحد الصحفيين: "لقد طال تتقلكم شرقاً وغرباً، ولم يستقر بكم المقام فترة طويلة من حياتكم، فهل كنتم تحسون أثناء ذلك باضطراب أو قلق أو وحشة؟.."

وأجاب الشيخ بهدوئه المألوف: إن الذي يؤمن بعقيدة أو مبدأ، لا يحس بغربة مهما تتقل وارتحل، ما دام وفيّاً لعقيدته، متمكناً من مبدئه، ولقد طال تطوافي في جهات عديدة من أفريقيا وآسيا وأوروبا، ومرت بي فترات كنت أصبح فيها في مكان، وأمسي في مكان غيره، ومرت بي لحظات فيها سجن وقسوة، وعنف، واتهام، وتهديد، وحرمان، ومطاردة، ومع ذلك كله كان للمرء أنيس وأي أنيس من ربه وإيمانه، ولقد كنت سجيناً في الشام، ومع ذلك كله كنت أرى في النوم أحلاماً أرضى بها وأستبشر، وبعض هذه الأحلام تحقق مفهومها، أو ما يقرب منه.

وليس معنى هذا أنني كنت حريصاً على حياة التقل والاضطراب من مكان إلى مكان، بل كنت أطمح إلى أن استقر يوماً من الأيام في دار لا يحتمل الإنسان فيها مذلة أو هواناً، وقد وجدت طلبتي في مصر؛ فجعلتها داري ومستقري منذ قرابة الأربعين عاماً¹.

ويقول عنه الأستاذ الشيخ **عبدالمعزم خلاف**: "إن السيد الخضر طراز نادر في هذا الزمن! فهو _ على امتلائه بقدر من العلوم والمعارف قلماً يتيسر لغيره من معاصريه، وعلى نباهة شأنه بين أهل زمانه، حتى إنه ليعدّ حجة من حجج الإسلام _ هو _ على هذا كله _ خافض الجناح، مصفى الخلق، متواضع، يسير في طريقه كما يقف في صلاته"²

ويذكر لنا **المحامي علي الرضا الحسيني** صفحات من حياة عمه الإمام محمد الخضر حسين فيقول: "الكتاب رفيقه وجليسه، يضعه إلى جانبه إذا خاض في حديث،

¹ / محمد الخضر حسين: **كتابات حول محمد الخضر حسين**، الموسوعة، المجلد 14، ص 80-81.

² / محمد الخضر حسين: **الإرث الفكري**، الموسوعة، مجلد 13، مصدر سابق، ص 330.

ويمسك به للمطالعة إذا خلا بنفسه.

كان مهذاً لكتبه، يقدمها لكل زائر، ويبعث بها إلى معارفه من الشيوخ والعلماء في المعاهد الدينية، ولم يستفد مالا من عائداتها، ولقد وجدتُ كتبه المهداة في كل بلد عربي زرتُه.

لم يكن يتقاضى اجرا من (جمعية الهداية الإسلامية) بصفته رئيساً لها، أو من مجلة "الهداية الإسلامية" بصفته رئيساً لتحريرها، ولا عن محاضراته في الجمعية أيّ أجر - وهذا مبلغ علمي.

كان مشاءً يحب السير على قدميه، فينتقل من سكنه في حي السيدة زينب إلى دار الجمعية في شارع مجلس النواب بالقاهرة ماشياً.

سكنه بسيطة، يتجلى فيها زهد الإمام وورعه، شقة بالكراء من غرفتين، وفسحة بينهما، وفرش متواضع؛ لذا نراه يستقبل كبار زوّاره في دار (جمعية الهداية) لا لسبب إلا لضيق داره.

فُطوره قطعة من الخبز، وكوب من الحليب، ووجباته لا تتعدى لقيمات من لون واحد من الطعام.

يغتسل بالماء البارد طوال السنة، وهي عادة اتخذها منذ أن كان في "برلين".

راتبه الضئيل لم يتجاوز الثلاثين جنيهاً، يقطع نصفه لمعاشه، والنصف الآخر يرسله مجزاً إلى أقاربه في دمشق وتونس مساعدة لهم.

لم يُقَنَّ سيارة في حياته، ولم يمتلك عقاراً، وعند وفاته لم يترك إلا مكتبته التي أهداها إلى دار الكتب المصرية، وآثاره العلمية التي ينتفع بها الناس".¹

وهذه البساطة قلما نجدها في العلماء، ولكننا حينما نجدها ندرك أن هذا العالم قد باع

¹/ محمد الخضر حسين: ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، الموسوعة، مجلد 15، ص 47-48

الدنيا واشترى الآخرة، والآخرة خير وأبقى.

والحق نقول أن مناقب الشيخ كثيرة جدا، لا يتسع المقام لعددها جملة واحدة، وأهم ما نركز عليه هو اتصافه بكل صفة في وقتها ومكانها، كما أنه كان يعرف مكانه، ومنزلته، ويدرك ما يراد منه، وما يليق به؛ فذلك مما زاده حكمة، وبصيرة.

وخير دليل على شجاعته الأدبية وحكمته ومعرفة ما يجب عليه، أنه مع بداية حياته أنشأ مجلة السعادة العظمى في تونس، فكانت أول بوادر الإصلاح الاجتماعي عنده، ولا شك في قوة موقفه، وهو يومئذ بين فريقين من مشايخه: فريق المحافظين، وفريق الإصلاحيين.

وإذا أتينا إلى آخر عمره، رأينا الشجاعة نفسها التي تلى بها في الصغر، فعندما قامت الجمهورية المصرية عام 1952م، كان أول شيخ للأزهر وقتها، مع أنه ليس مصريا، فلم يكن له حزب ولا أتباع، وقبل الرئاسة، ولكنه وبمجرد ما اصطدمت قناعاته مع بعض أعمال رجال الثورة مثل الإصلاحات على مستوى الأزهر، أو حول قضية المحاكم الشرعية، ولم يقبل الشيخ هذه الإصلاحات قدم استقالته على أثرها.

ومن ميزاته أنه عندما استدعاه الرئيس محمد نجيب، قبل استقالته أجابه بأن شيخ

الأزهر لا ينتقل إلى الحاكم.¹

وذكر الدكتور محمد بن إبراهيم الحمد موقفا للإمام نذكره كما جاء: "أن الرئيس محمد نجيب لما قدم إلى الأزهر طلب الشيخ الخضر من سكرتيه، ومن الشيخ عبدالفتاح القاضي أن يستقبلنا الرئيس محمد نجيب عند باب المصعد، يقول الشيخ عبدالفتاح: فاستقبلنا الرئيس عند باب المصعد ومعه مجموعة من الضباط والعسكر، وقلنا له: تفضل، وسرنا معه حتى وصلنا مكتب الشيخ الخضر، فأسرع الرئيس نجيب إلى الشيخ الخضر قبل أن يخرج من

^{1/} انظر: محمد الخضر حسين: ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، الموسوعة، المجلد 15، مصدر سابق، ص113.

مكانه، فقبل يد الشيخ الخضر عدة مرات، ثم جلس الرئيس نجيب أمام الشيخ الخضر كما يجلس العسكري أمام الضابط، وظلا يتحدثان، ونحن واقفان.

ولما هم الرئيس بالتوديع قال للشيخ الخضر: هل تأمرون بشيء؟ فقال له الشيخ: نعم، ثم أخرج ورقة فيها عدد من المطالب، وأعطاه الرئيس محمد نجيب، ومن ضمنها طلب افتتاح معهد القراءات وتأسيسه، فوضعها محمد نجيب في جيبه، وقال: كلها ستكون محل التنفيذ، وبالفعل نُفِّذت، وافتتح معهد القراءات فيما بعد.

ولما انتهت الجلسة قام الشيخ مع الرئيس محمد نجيب إلى باب المصعد وودعه، ثم لما رجع الشيخ صاح مرة أخرى قائلاً: يا سيد نجيب، يا سيد نجيب، فالتفت إليه الرئيس قائلاً: نعم يا مولانا أهلاً وسهلاً، فقال له الشيخ الخضر: قل لهذا الأفندي ألا يكتب في الدين مرة أخرى، فقال الرئيس نجيب: حاضر، حاضر، وهو لا يعلم من المقصود بذلك، ولكنه لم يجرؤ أن يسأل الشيخ عنه؛ فالتفت إلينا وقال: من يقصد الشيخ بالأفندي، فقلنا له: إن الوزير الفلاني يكتب فتاوى كثيرة في الجريدة، ولا يجرؤ أحد أن يرد عليه إلا الشيخ، والشيخ تعب منه، وبعد ذلك لم يعد ذلك الوزير إلى الكتابة.¹

ومن أبرز المعالم البارزة في شخصيته، حفظه للصدقة والود بينه وبين أصدقائه، وخير مثال من حياته صداقته للشيخ محمد الطاهر بن عاشور وقد دامت أكثر من ستين عاماً، بدأت بطلبهما العلم معا في جامع الزيتونة، واستمرت إلى أن فارق الإمام محمد الخضر دار الدنيا.

وأما الإمام محمد الطاهر بن عاشور فقد عاش إلى عام 1393هـ، حيث بلغ سبعاً وتسعين سنة.²

¹ / محمد بن ابراهيم الحمد: الشيخ محمد الخضر حسين سيرته ومؤلفاته، دار ابن خزيمة، الرياض -السعودية،

الطبعة الأولى 1435هـ-2014م، ص 74

² / انظر محمد الخضر حسين: كتابات حول محمد الخضر حسين، الموسوعة، مج 14، مصدر سابق، ص 25-

وكذا صداقتهما لأحمد تيمور باشا في مصر، والذي قال فيهما:¹
تَقَاسَمَ قَلْبِي صَاحِبَانِ وَدِدْتُ لَوْ
تَمَلَّهْمَا عَيْنَايَ طُولَ حَيَاتِي
وَعَلَّلْتُ نَفْسِي بِالْمُنَى فَإِذَا النَّوَى
تَعَلُّ الْحَشَا طَعْنًا بِغَيْرِ قَنَاءِ
فَأَحْمَدُ فِي مِصْرٍ قَضَى وَمَحْمَدُ
بِنُونَسَ لَا تَحْظَى بِهِ لَحْظَاتِي²

¹ / محمد الخضر حسين: ديوان خواطر الحياة، الموسوعة، مج 7، ص51.
² / أحمد: أحمد تيمور باشا (1288-1348هـ) أديب ومؤرخ ولد وتوفي بالقاهرة، وله مؤلفات عديدة، محمد: محمد الطاهر بن عاشور (1327_1390هـ، 1909_1970م) مفتي تونس، وأحد أعلامها الكبار، وصاحب كتاب "التحرير والتتوير".

المبحث الرابع: أعماله ومؤلفاته

قسم معظم الدارسين حياة الشيخ محمد الخضر حسين إلى ثلاث مراحل رئيسية: المرحلة الأولى: وتتمثل في نشأته في تونس، من الميلاد إلى خروجه مع أسرته نحو الشام.

والمرحلة الثانية: رحلته إلى الشام بما في ذلك رحلته للأستانة وبرلين.

المرحلة الثالثة: رحيله إلى مصر واستقراره فيها إلى أن وافته المنية -رحمه الله-. وفي كل مرحلة، قام الإمام بأعمال جليلة تتعلق بواجبه الإصلاحية الدعوية إماماً ومصلاً وداعية إلى الله تعالى.

المطلب الأول: أعماله في المرحلة التونسية:(1293هـ - 1331هـ)

بعد أن تكونت شخصيته، وطلب العلم في جامع الزيتونة، ظهرت براعته، واشتهر بين أقرانه، وعند أساتذته، بحبه للعلم وجدّه في طلبه، وبراعة قلمه، واجتهاده في التحرك للمصالح العامة، فساهم بأعمال جليلة، كان له السبق في بعضها، نذكر منها:

تأسيس مجلة السعادة العظمى(1322هـ-1904م): وهي أهم إنجاز قام به في تونس، وقد كان سابقاً في ذلك، إذ تُعد أول مجلة عربية ظهرت بالبلاد التونسية، وكانت نصف شهرية، وبعد صدور 21 عدداً، توقفت، ولعل سبب ذلك هو عجز الرجل عن مواصلة هذا العمل من الناحية المالية.¹

وكان إصداره المجلة في وقت مشحون بالخلافات بين تيارين بارزين في تونس آنذاك، وهما: تيار الإصلاحيين، وتيار المحافظين، بمثابة المهدئ، وذلك راجع لصاحبها الشيخ محمد الخضر حسين الذي تعاملَ بهدوء وورصانة مع الخلاف الذي

¹ / انظر محمد موعدة، مرجع سابق، ص 137.

كان وقتها محتدماً حول قضايا فكرية ودينية عديدة؛ مما جعل أصحاب التيارين وأنصارهم المتطرفين يخاصمون المجلة وصاحبها باستثناء صديقه الوفي العلامة محمد الطاهر بن عاشور¹

تولي القضاء بمدينة بنزرت (1323هـ): وذلك بعد انقطاع مجلة السعادة العظمى؛ حيث تولى إثر ذلك خطة القضاء ببنزرت، وكان للشيخ محمد الطاهر بن عاشور قسط كبير في التأثير عليه لقبول هذه الوظيفة.

ولحب الإمام محمد الخضر حسين للعلم والتعليم، لم يستطع البقاء في القضاء، فما كان منه إلا أن قدم استقالته، وعاد إلى تونس العاصمة؛ لمباشرة التدريس بجامع الزيتونة. وقد تولى أثناء المدة القصيرة التي قضاها ببنزرت_ الخطابة والتدريس بجامعها الكبير، كما كانت له مجالس علمية، وأدبية.²

التدريس بجامع الزيتونة: (1324هـ-1906م) باشر الإمام التدريس بجامع الزيتونة تطوعاً، كما كلفته إدارة الجامع بالإشراف على تنظيم المكتبة ضمن لجنة تكونت للقيام بهذا العمل.

وهذا يؤكد اهتمام الإدارة، وتقديرها لكفاءته؛ لأن تنظيم مكتبة علمية غنية بالمخطوطات، وبأمهات الكتب لا يمكن أن يُؤكّل لغير رجال عرفوا بالعلم الغزير، والاطلاع الواسع.

وقد وقع تعيينه أستاذاً بالمدرسة الصادقية، وانتدبته الجمعية الخلدونية؛ ليلقي دروساً على طلابها في الإنشاء والبلاغة.

دعوته إلى الله: وذلك من خلال المحاضرات، والدروس التي كان يلقيها، والتي كان

¹ / انظر: محمد الخضر حسين: ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، الموسوعة، المجلد 15، مصدر سابق، ص 185.

² / انظر محمد مواعدة، مرجع سابق، ص 37-38.

من أشهرها: محاضرة (الحرية في الإسلام) سنة 1906م، فهي أشهر وأعظم محاضرة ألقاها، وذلك في نادي (جمعية قدماء الصادقية) ونشرت سنة 1909م، ونالت اهتمام جميع الأوساط الثقافية والعلمية في ذلك الوقت.

_ اهتمامه بالإصلاح التربوي: من خلال المحاضرات، والمسامرات، والمقالات.

ولعل من أبرز ما قام به في الميدان التربوي اهتمامه بإصلاح التعليم الزيتوني مذ كان طالباً إلى حين تخرجه ودخوله ضمن شيوخ الزيتونة، وعلمائها العاملين على تطوير التعليم من ناحية المنهج والمضمون والأسلوب.

وقد شارك في تكوين (جمعية تلاميذ جامع الزيتونة) سنة 1324هـ مع نخبة من العلماء، وفي مقدمتهم صديقه العلامة محمد الطاهر بن عاشور.

وخلال سنة 1325هـ انحلت هذه الجمعية، وتكونت جمعية جديدة باسم (الجمعية الزيتونية) برئاسة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وعضوية العلماء: محمد الخضر حسين، والطاهر النيفر، ومحمد رضوان، ومحمد النخلي، وأبو حسن النجار¹.
فهذه أبرز أعماله في هذه المرحلة.

المطلب الثاني: أعماله في المرحلة السورية: (1331هـ-1339هـ):

امتدت هذه المرحلة لمدة تسع سنين، وهي مرحلة الترحال، والتنقل، والاكتشاف، بالإضافة إلى النضال السياسي، وأبرز أعماله فيها، هي كالتالي:

- مواصلة نشاطه العلمي والثقافي بالتدريس في المدرسة السلطانية بمجرد استقراره عند أهله.

¹ / انظر: محمد الخضر حسين: ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، المجلد 15، مصدر سابق، ص186.

- السعي الدؤوب لتقوية العلاقة بين الأتراك والعرب للحفاظ على تلائم الأمة¹.
- مواصلة كتابة المقالات بالصحف السورية، وكذا إلقاء المحاضرات بالجامع الأموي.
- مع أنه تعرض للسجن بسبب السفاح جمال باشا، ظلما وتعسفا مع مجموعة من العلماء، إلا أنه وبعد خروجه مباشرة وثبوت براءته - بعد حوالي ستة أشهر من الحبس - واصل عمله في التدريس وإلقاء المحاضرات
- سافر للأستانة -تركيا- وعمل منشئا عربيا بوزارة الحربية.
- بما أن خاله محمد المكي بن عزوز قد كان يحظى بمكانة مرموقة لدى الباب العالي فقد أوكلت للشيخ الخضر مهمة في ألمانيا والتي كانت حليفة للدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى.
- تتمثل مهمة الإمام الخضر في تكوين تنظيمات ثورية شعبية من المغاربة المقيمين بألمانيا ضد الاستعمار الفرنسي في بلدان شمال إفريقيا⁽²⁾.
- والجدير بالذكر أنه في هذا الإطار تكونت (اللجنة التونسية الجزائرية) والتي قدمت تقريرا مفصلا لمؤتمر الصلح المنعقد بباريس سنة 1917م تحت عنوان: (مطالب الشعب الجزائري التونسي)، وبإمضاء مجموعة من مناضلي المغرب العربي، منهم محمد الخضر حسين³.
- وبعد حوالي تسعة أشهر من النضال السياسي، سقطت ألمانيا بيد الحلفاء، فما كان من عالمنا إلا أن عاد أدراجه إلى تركيا ومن ثمّ إلى دمشق.
- ولما عاد الإمام إلى دمشق، واصل في تقديم الدروس والمساهمة في الجانب الثقافي،

¹ / انظر: محمد الخضر حسين: ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، الموسوعة، المجلد 15، مصدر سابق، ص188 .

² / المصدر السابق، ص188_189 .

³ / انظر: المصدر نفسه، ص 189.

والعلمي، بالإضافة إلى العمل الإعلامي.

وتم تعيينه عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، والذي عقد جلسته الأولى يوم: 30 جويلية 1919م، وبقي عضواً عاملاً به مدة إقامته، ولما انتقل إلى القاهرة واستقر بها سنة 1920م، أصبح عضواً مراسلاً له.⁽¹⁾

واصل الإمام نشاطه العلمي والإصلاحي إلى غاية احتلال الجيش الفرنسي لسوريا عام 1920م، فاضطر الإمام الخضر إلى الخروج منها متجهاً نحو مصر، كونه محكوماً عليه بالإعدام في تونس من قبل الاحتلال الفرنسي، وذلك بسبب نشاطه السياسي وعدائه للاستعمار الفرنسي الذي اشتهر به.⁽²⁾

وهذا مختصر أعماله في المرحلة السورية.

المطلب الثالث: أعماله في المرحلة المصرية (1339هـ _ 1377هـ)، (1920م - 1958م)

هي آخر مرحلة في حياة الإمام، وقد امتدت لقرابة الأربعين عاماً، وهي مرحلة يسميها صديقه محمد الطاهر بن عاشور "مرحلة المجد الثقافي والشهرة العلمية"⁽³⁾،

و تعد أغزر مراحل حياته إنتاجاً علمياً، وثقافياً، وإعلامياً، وفكرياً، وأبرزها مكانة.

والممتنع لسيرته يجد أن حياته بمصر مرت بثلاث مراحل، أطولها مدة هي من وصوله إلى البلد إلى غاية توليه مشيخة الأزهر، أي من سنة (1920م إلى غاية 1952)، وبعد هذا بدأ الإمام مرحلة جديدة في حياته وهي توليه لمشيخة الأزهر إلى غاية استقالته، أي من سنة (1952 حتى 1954م)، وآخر مرحلة في حياته بدأت بعد استقالته

¹ / انظر: محمد موعدة، مرجع سابق، ص 71.

² / انظر: المرجع السابق، ص 72.

³ / انظر: محمد الخضر حسين، ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، الموسوعة، مجلد 15، مصدر سابق، ص 190 .

من المشيخة إلى وفاته -رحمه الله-، أي من (1954م حتى 1958م).

لما وصل الإمام إلى مصر لم يكن له سند في غربته إلا المولى عز وجل، فلا قريب ولا صديق حميم، ومع ذلك كان كثير التوكل على الله، شديد الثقة به.

ولم يبق الإمام دون سعي وحركة، بل قدم الأسباب للتواصل مع الناس، فبحث عن الطلبة المغاربة بالجامع الأزهر، وسخر له المولى عز وجل رجلاً كريماً هو العلامة تيمور باشا، فتوطدت العلاقة بينهما وأصبح صديقه المقرب، وساعده في أن يعمل مصححاً، ومراجعا للنصوص بدار الكتب المصرية.

وبدأ الإمام الخضر في نشاطه المعتاد، فساهم في بتأسيس (جمعية تعاون جاليات أفريقيا الشمالية) في سنة 1342هـ، والتي ضمت عدة شخصيات مغربية: من تونس، والجزائر، والمغرب، وليبيا.¹

وتحمل مسؤولية رئاستها، وكان هدفها الرفع من مستوى هذه الجاليات مادياً، واجتماعياً، وثقافياً، وقد استمر اهتمامه بالمغرب العربي، وقضايا طيلة حياته. (2)

- اهتمامه بتكوين الجمعيات في مختلف مجالات الإصلاح الديني، والاجتماعي، والتربوي، والسياسي، ومنها (جمعية الشبان المسلمين) التي اشترك في تأسيسها مع صديقيه العلامة أحمد تيمور باشا والعلامة محب الدين الخطيب (سنة 1346هـ _ 1927م)، وكان الغرض من تأسيسها التعريف بالإسلام، والنود عن حياضه.

ثم قام بعدها بإنشاء (جمعية الهداية الإسلامية) عام 1347هـ _ 1928م.

وضم إليها نخبة من علماء الأزهر ونخبة من الشباب، والمتقنين.

وأنشأ بها مكتبة كبيرة كانت نواتها مكتبته الخاصة، وأصدر مجلة تحمل اسم

¹/ انظر: محمود المرسي شولح، مرجع سابق، ص64.

²/ انظر: محمد الخضر حسين: ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، الموسوعة، مج 15، مصدر سابق، ص191-192.

الجمعية، وأنشأ لها فروعاً في الأقاليم، وكانت محاضراته المستمرة فيها، ومقالاته تنشر في مجلتها.

وقد قدم في هذه الجمعية عملاً منظماً مستمراً أوضح من خلاله معالم دعوته، ومنهجه.

وقد كان يكتب في مجلة الهداية أكابر العلماء والأدباء، كالشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ومحمد النيفر. (1)

وقد نال حظوة خاصة لدى علماء الإسلام مغرباً ومشرقاً كالشيخ محمد رشيد رضا. - صار للشيخ الخضر مكانة وحضور لدى علماء الأزهر؛ نظير نشاطه العلمي، والثقافي، والإعلامي، وبهذا وقع انتدابه للتدريس في قسم التخصص بهذه المؤسسة العلمية سنة 1927م بصورة مؤقتة، ثم بصورة رسمية سنة 1928م عندما أصبح صديقه الشيخ المراغي شيخاً للأزهر.

وفي هذه المرحلة من حياته العلمية أصدر الأزهر مجلة باسم (نور الإسلام) وذلك في محرم عام 1349هـ، فأسندت رئاسة تحريرها إلى الشيخ الخضر، فنهض بهذه المهمة ثلاث سنوات، وأرسى قواعد التحرير في تلك المجلة، ونظم شؤونها. (2)

- تأسس (مجمع اللغة العربية) في القاهرة بمرسوم ملكي أصدره الملك فؤاد في 1351/8/14هـ، ثم صدر مرسوم ثانٍ كان بموجبه تعيين الأعضاء العاملين بالمجمع، وكان الشيخ الخضر على رأس هؤلاء، وكانوا عشرين عالماً وأديباً من كبار رجال العلم والأدب في مصر والعالم العربي وأوروبا.

وقد ترأس الشيخ الخضر لجنة اللهجات، وشارك في أعمال عدة بلجان علمية، ونشر

^{1/} محمد الخضر حسين: الموسوعة، ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، مج 15، مصدر سابق، ص193_194.

^{2/} انظر: محمد الخضر حسين: الإرث الفكري للإمام محمد خضر حسين، الموسوعة، مج13، ص216.

العديد من البحوث بمجلة المجمع، كما مثل هذه المؤسسة في مؤتمرات دولية عديدة. (1)
- حج بيت الله الحرام في عام 1351 هـ، وأقيم له بعد عودته من الحج حفلة ترحيب في جمعية الهداية الإسلامية ليلة الجمعة العاشر من المحرم سنة 1352 هـ.
- أصبح الشيخ الخضر عضواً بهيئة كبار العلماء سنة 1370 هـ _ 1950م إثر تقديمه بحث: "القياس في اللغة العربية".

وهي أكبر هيئة علمية في مصر، وتكونت اللجنة من قساة الممتحنين؛ فبهرها الشيخ الخضر بغزارة علمه، وخلال مناقشة اللجنة لصاحب البحث قال الشيخ عبدالمجيد اللبان رئيس اللجنة عبارته المشهورة عن الشيخ الخضر: "هذا بحر لا ساحل له؛ فكيف نقف معه في حجاج؟".²

-تولّيه مشيخة الأزهر؛ وذلك في يوم الأربعاء 1371/12/27 هـ؛ حيث زاره في منزله ثلاثة وزراء منهم الشيخ حسن الباقوري وزير الأوقاف.

ويذكر الأستاذ محمد مواعدة واقعة توليه مشيخة الأزهر، بأن صديقه الوزير الباقوري قال له: لقد وقع الاختيار عليك؛ لتكون شيخ الأزهر، فأبدى الشيخ امتناعاً؛ لكبر سنه وكان قد شارف الثمانين ولخطورة المهمة، وكبرها، ولعجزه البدني، وهو الشيخ الذي أحيل على التقاعد عام 1950م بعد مدة من التدريس في الأزهر دامت عشرين عاماً، ولكن الوزير رفض قائلاً: هذا أمر تجنيد، وفي هذا العهد المبارك تجند الكفاءات النزيهة لخدمة مصر، وعند ذلك قبل هذه المسؤولية الجديدة، وأجاب: "وأنا لا أهرب من الجندية، وليوفّقنا الله".⁽³⁾

ولما ولي الشيخ الأخضر هذا المنصب قام على الأزهر خير قيام، وكان في ذهنه

¹ / انظر: محمد الخضر حسين: الإرث الفكري للإمام محمد خضر حسين، الموسوعة، المجلد 13، مصدر سابق، ص 216.

² / المصدر السابق، ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، الموسوعة، المجلد 15، مصدر سابق، ص 195.

³ / انظر: محمد مواعدة، مرجع سابق، ص 113_114.

برنامج إصلاح، لكن رجال الحكم لم يتركوا الشيخ يعمل في هدوء، فوضعوا العراقيل في طريقه، ولما شعر الشيخ بذلك قدم استقالته؛ لخلافات عديدة بينه وبين مجلس قيادة الثورة، وكذا علمه برغبتهم في تغيير القضاء الشرعي، والتعليم في الأزهر...وأمر كان يرفضها ويقول: "إن الأزهر أمانة في عنقي أسلمها _ حين أسلمها _ موفورة كاملة، وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يدي فلا أقل من ألا يحصل له النقص" وكان كثيرا ما يردد: "يكفيني كوب لبن، وكسرة خبز، وعلى الدنيا بعدها العفاء".¹

وقال لما ترك الأزهر: "إن كانت جنة فقد دخلت فيها، وإن كانت ناراً فقد خرجت منها" وهكذا ترك مشيخة الأزهر في 1373/5/2 هـ.²

ولم ينقطع عن كتابة البحوث، والمقالات في بعض المجالات، ولا عن مجالسه العلمية المفيدة من أصدقائه الأدباء والعلماء، كما أنه كان على اتصال بأبناء وطنه الأصلي تونس الذين كانوا يقيمون في مصر، وكانت سنُّه إذ ذلك تقرب من إحدى وثمانين سنة، ولم يبق له من المهام العلمية سوى عضوية المجمع اللغوي التي حافظ عليها، وواصل القيام بها إلى آخر يوم من حياته، وكذلك عضوية جمعية كبار العلماء.⁽³⁾

معاركه الفكرية:

خاض الشيخ محمد الخضر حسين معارك فكرية كثيرة لفتت الأنظار إليه، وأبانت عن سعة علمه، وقوة حجته، ونزاهته في عرض آراء خصومه، وموضوعيته في الرد عليها. ولم تكن تلك المعارك مقتصرة على أحد بعينه، بل كانت كثيرة متنوعة تحدوه إليها غيرته الإسلامية، وقيامه بواجب الأمانة المناطة بالعلماء.

وأشهر تلك المعارك ما يلي:

^{1/} محمد الخضر حسين: الإرث الفكري للإمام محمد خضر حسين، الموسوعة، المجلد 13، مصدر سابق، ص 439-440

^{2/} انظر: ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، الموسوعة، المجلد 15، مصدر سابق، ص 46.

^{3/} انظر: محمد مواعدة، مرجع سابق، ص 116_118.

- 1- رده على علي عبدالرازق في كتابه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم).
- 2- رده على طه حسين في كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي)، ورد على بحثه (حقيقة ضمير الغائب في القرآن).
- 3- رده على الشيخ محمود شلتوت حول (الهجرة وشخصيات الرسول).
- 4- رده على الدكتور محمد خلف الله في بحثه (الفن القصصي في القرآن).
- 5- رده على محمد أبو زيد الدمهوري في كتابه (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن)، وعنوان بحث الإمام الذي رد به عليه: (كتاب يهذي في تأويل القرآن المجيد).
- 6- رده على مقال (التشريع المصري وصلته بالفقه الإسلامي) ل: عبد المتعال الصعيدي، ببحث (تحريف آيات الحدود عن مواضعها).
- 7- رده على أحمد أمين، ببحث (نقد اقتراح ببعض الإصلاح في متن اللغة).
- 8- رده على الأستاذ فريد أبو حديد، ببحث (ملاحظات على البحث المقدم عن موقف اللغة العامية من اللغة العربية الفصحى).
- 9- رده على اللجنة المؤلفة من: طه حسين، وأحمد أمين، وعلي الجارم، ومحمد أبي بكر إبراهيم في (مجمع اللغة العربية بالقاهرة)، ببحث (حول تبسيط قواعد النحو والصرف والرد عليها).

وكانت سنُّه إذ ذلك تقرب إحدى وثمانين سنة، وبعدها انزوى بمنزله إلى كتبه المحببة إلى نفسه، وقد أنهكه الإعياء، ولم يبق له من المهام العلمية سوى عضوية المجمع اللغوي التي حافظ عليها، وواصل القيام بها إلى آخر يوم من حياته، وكذلك عضوية جمعية كبار العلماء.

له ردود أخرى على الشيخ رشيد رضا، ومحمد فريد وجدي، وغيرهم. (1)

وفاة الإمام المصلح والعالم الشيخ محمد الخضر حسين:

¹ / انظر: محمد الخضر حسين: الموسوعة، مجلد 15، مصدر سابق، ص 41-42 .

أتعب المرض الإمام في آخر أيامه، ولكن ذلك لم يمنعه من حضور جلسة المجمع اللغوي التي انعقدت في تلك المدة، ولم يثته عن كتابة مقال في مجلة لواء الإسلام.

وبعد ظهر يوم الأحد 13/رجب/1377هـ انتقل الشيخ إلى جوار ربه؛ فتلقى العالم الإسلامي ذلك النبأ بالحزن الشديد على ذلك العالم الذي قضى حياته في نشر الإسلام، والدعوة إليه، والذب عن حياضه⁽¹⁾.

وقد صلي عليه في الجامع الأزهر، ومشى في جنازته علماء الأزهر، وأعيان الأمة، والمنتسبون إلى العلم، حتى بلغ النعش (باب الخلق) والموكب متصل فيما بينه وبين الأزهر، ودفن في مقبرة آل تيمور؛ حيث أوصى أن يدفن هناك حذو صديقه أحمد تيمور باشا، فدفن كما أوصى.⁽²⁾

المطلب الرابع: مؤلفاته

سهل المحامي على الرضا الحسيني على الباحث الاطلاع على الموضوع المراد دراسته من خلال وضعه لفهارس مؤلفات الإمام المطبوعة ما عدا ديوان شعره "خواطر الحياة"، والكتب التي حققها وعلق عليها رحمه الله، وهي كما جاءت في الموسوعة الكاملة للإمام محمد الخضر حسين في خمسة عشر مجلدا: ³

وهذا معظم ما جاء فيها:

* أسرار التنزيل: تفسير سورة الفاتحة - تفسير آيات: من سورة البقرة، من سورة آل عمران، من سورة الأنفال، من سورة يونس، من سورة الحج، من سورة ص.

* بلاغة القرآن: بلاغة القرآن - نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية - رأي في

¹ / توافقت وفاته في اليوم والشهر مع وفاة صديق عمره العلامة ابن عاشور الذي توفي يوم الأحد 13/رجب 1393هـ.

² / انظر: محمد مواعدة، مرجع سابق، ص 119_120.

³ / أنظر: محمد الخضر حسين: الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر، الموسوعة، مج 14، مصدر سابق، ص 241.

تفسير القرآن - أمثال القرآن الكريم - المحكم والمتشابه في القرآن - اليمين في القرآن والحديث - الرقية والاقْتباس والاستخارة والقرآن - إعجاز القرآن وبلاغته - ترجمة القرآن - حقيقة ضمير الغائب في القرآن - القرآن لا يقول إلا حقاً - الفن القصصي في القرآن - تحريف آيات الحدود عن مواضعها - كتاب يهذي في تأويل القرآن المجيد - كتاب يلحد في آيات الله - قصة أيوب عليه السلام ونقض آراء حديثة في تفسيرها.

* **محمد رسول الله وخاتم النبيين:** أديان العرب قبل الإسلام - محمد رسول الله وخاتم النبيين - صبر محمد عليه السلام ومتانة عزمه - الهجرة النبوية - رفقته وحكمته البالغة في السياسة - نظرة في دلائل النبوة - عظمة رسول الله ﷺ وهدايته - شجاعته ﷺ منقذ العالم من الظلمات - آداب الدعوة وحكمة أساليبها - راحة عقله ﷺ وحكمة رأيه - هجرة الصحابة إلى الحبشة وأثرها في ظهور الإسلام - إبادته ﷺ للأصنام - حياة الدعوة الإسلامية بجزيرة العرب - قضاء البعثة المحمدية على المزاعم الباطلة - البلاغة النبوية - الاحتفال بذكرى الهجرة النبوية - لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة - الهجرة مبدأ التاريخ العام في الإسلام - المعجزات الكونية - من آداب خطب النبي ﷺ في الهجرة بركة - العظمة - الهجرة وشخصيات الرسول ﷺ ملاحظات على مقال مولد النبي ﷺ تحية المقام النبوي ومناجاة الرسول ﷺ ذكرى المولد - ذكرى المولد النبوي - مشاهداتي في الحجاز.

* **تراجم الرجال:** نظرة في ناحية من خلافة عثمان - موسى بن نصير - علي زين العابدين - محمد الباقر وزيد - نظرة في حياة عمر بن عبد العزيز - نظرة في حياة الإمام مالك بن أنس - صقر قريش وكيف تأسست الدولة الأموية بالأندلس - أبو داود وكتابة "السنن" - صفحة من حياة أبي الحسن الأشعري - القاضي أبو الحسن الجرجاني - حجة الإسلام الغزالي - أبو بكر بن العربي - أحمد تيمور باشا.

* **الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان:** الاجتهاد في أحكام الشريعة - بناء

الشريعة على حفظ المصالح ودرء المفاسد - الأصول النظرية الشرعية - القياس - الاستصحاب - مراعاة العرف - سد الذرائع - المصالح المرسله - الاستحسان - مدارك الشريعة الإسلامية وسياستها - النسخ في الشريعة الإسلامية - "صحيح البخاري" وأثره في حفظ الشريعة - السنة والبدعة - الرؤيا ليست طريقاً للأحكام الشرعية - وجوب العمل بالحديث الشريف - أسباب وضع الحديث - الحديث المتواتر وحكم ما رواه الإمامان البخاري ومسلم - اجتهاد ابن القاسم - ليلة النصف من شعبان - نظرة في أحاديث المهدي - لا عدوى ولا طيرة - باب في حديث السحر - السنن والحكم النبوية - شرح مسألة الاقتداء بالمذهب المخالف - صنع الصور واقتنائها - مكافحة الجشع والغش في المعاملات المالية - التصوف - تعدد الزوجات - الأخذ بالدين - الفتاوى والأحكام.

* دراسات في الشريعة الإسلامية: الله موجود - الأحكام العادلة - كيف تستنبط القواعد من الكتاب والسنة - الحديث الصحيح حجة في الدين - الشهادة وأثرها في إقامة الحقوق - الذرائع: سدها، وفتحها - مراعاة العرف - حكمة الإسلام في العزائم والرخص - موقف الإسلام من الرؤيا وتأويلها - الكبيرة والصغيرة - الذوق وفي أي حال يعتد به - النذر - المتعة - استحضار الأرواح - حكم الإسلام فيمن بلغت الدعوة - العدوي والطيرة - الزكاة وأثرها في نهوض الأمة - الغيبة وأثرها في النفوس - حقوق الزوجية - صلاة الجماعة وأثرها في اتحاد الأمة - الدعوة القائمة على حق - فساحة الصدر ونزاهة اللسان عن المكروه - مكافحة المظالم موجبة للسلام - ما يلاقيه العلماء من المكاره - ما يلاقيه العلماء من سماحة أهل العلم - ما يلاقيه العلماء من سماحة الأمراء - المال المباح في الإسلام - الطلاق في الإسلام - تعدد الزوجات في الإسلام - النظافة في الإسلام - العلوم في دائرة الإيمان - الرفق بالضعفاء - الأدباء العلماء - زينة الإنسان حسن السمات - المنافقون في عهد النبوة والملاحدة بعده - تحقيق مذهب مالك في رفع اليدين عند الركوع والرفع منه - تحقيق مذهب مالك في إشارة المصلي في التشهد بأصبعه.

* رسائل الإصلاح: المروءة ومظاهرها الصادقة - الإلحاد: أسبابه، طبائعه، مفسده - في مفسد البغاء - كلمة في المسكرات - الشجاعة - المساواة في الإسلام - إِباعة الضيم وأثرها في سيادة الأمم - عظم الهمة- الإسلام والمدنية الحديثة - صدق اللهجة - فضيلة الإخلاص - الأمانة في العلم - القضاء العادل في الإسلام - الإنصاف الأدبي - العلماء والإصلاح - المدنية الفاضلة في الإسلام - أصول سعادة الأمة - صدق العزيمة أو قوة الإرادة - الغيرة على الحقائق والمصالح - الشجاعة وأثرها في عظمة الأمم - كبر الهمة في العلم - الدهاء والاستقامة - الانحراف عن الدين - ضلالة فصل الدين عن السياسة - سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين - العزة والتواضع - المداراة والمداهنة - الرفق بالحيوان - محاكاة المسلمين للأجانب - الاجتماع والعزلة - علة إعراض الشبان عن الزواج - النبوغ في العلوم والفنون - متى تكون الصراحة فضيلة.

* محاضرات إسلامية: الحرية في الإسلام - علماء الإسلام في الأندلس - السعادة عند بعض علماء الإسلام - التصوف في القديم والحديث - الدهاء في السياسة - الزينة والرفاهية في نظر الإسلام - هجرة الصحابة إلى الحبشة وأثرها في ظهور الإسلام - الصداقة- مضار الإسراف - تعاون العقل والعاطفة على الخير - حقوق الفقراء على الأغنياء في الإسلام - السمو الخلقي في الإسلام - المعتزلة وأهل السنة - اختلاط الجنسين في نظر الإسلام - نقد آراء للأستاذ فريد وجدي.

* تونس وجامع الزيتونة: فقهاء تونس - شعراء تونس - الحالة العلمية بجامع الزيتونة- الدولة الحسينية في تونس - الشعر التونسي في القرن الخامس - حياة ابن خلدون ومثل من فلسفته الاجتماعية - حياة أسد بن الفرات- نظرة في أدب الشيخ محمود قبادو التونسي - نظرة في حياة وزير تونسي - الشيخ محمد ماضور من علماء تونس وأدبائها - الشيخ محمد النجار من أفاضل علماء تونس - أحمد أبو خريص - الشيخ محمد بيرم الثاني - الشيخ محمد الخضار - السيد محمد النيفر - السيد محمد الطاهر

بن عاشور - عمر بن الشيخ - أحمد كريم - محمد بن الخوجة - أحمد الورتاني -
الطاهر بن عاشور - علي الدرويش - صالح الشريف - تونس - سالم بو حاجب.

* الرحلات: الرحلة والتعارف في الإسلام - أثر الرحلة في الحياة العلمية والأدبية -
النهضة للرحلة - الرحلة الجزائرية - خلاصة الرحلة الشرقية - حديث عن رحلتي إلى
دمشق - رحلتي إلى سورية ولبنان.

* أحاديث في رحاب الأزهر: من الأستاذ الأكبر إلى أبنائه الطلبة - شيخ الأزهر
يعترض على القبعة - لا قيمة للعلم ما لم يلازمه الفضائل الخلقية - سماحة الإسلام في
التعامل مع غير المسلمين - الميسر وورق اليانصيب - أكمل رسالات الله - موقف
الإسلام من الشيوعية والرأسمالية - بيان إلى العالم الإسلامي عن قضايا المغرب - هل
للمرأة أن تباشر الوظائف العامة - الرفق بالحيوان في الشريعة الإسلامية - خير نظام
للحكم - قضية فلسطين وإخلال ألمانيا الغربية بحيادها في اتفاقية التعويضات لإسرائيل -
الدعوة إلى عقد المؤتمر الإسلامي في القاهرة - جيل يؤمن بالأخلاق - لماذا صار
المسلمون هدفاً للمستعمرين؟ - التقليد والمحاكاة في نهضتنا الحاضرة - الأزهريون
والتدريبات العسكرية - الإسلام لا يقر المحسوبة - الجهاد أعلى مراتب العبادة في
الإسلام - الاستعمار يقرب من نهايته - العلم بين الأساتذة والطلاب - الحج المبرور -
جددوا أنفسكم في هذا العيد - موقف الإسلام من حوادث مراكش ومعاهدة ليبيا -
إشاعات السوء وموقف الإسلام منها - لا تعرف الإنسانية حضارة قاومت الرق كالإسلام
- الدعوة لتحديد النسل هدم لكيان الأمة - رأي الإسلام في شروط التوظيف - مولد رسول
ومولد رسالة - ليس للمرأة شريعاً أن تمارس السياسة - طغيان الاستعمار وخطر الشيوعية
- المعاهدات في الدول الإسلامية - أعجبتني هذه الكتب - كفانا قوتاً من الكلام -
واجب الشباب إزاء التوسع الصناعي والزراعي - الاحتكار والريح الفاحش حرام كالربا -
هدية العلماء لفاروق كانت غصباً - فقدان الحياء بين النساء هو السبب في أزمة الزواج

- النفاق والملق والمدارة أمام الحكام وذوي السلطان.

* **الدعوة إلى الإصلاح:** الدعوة إلى الإصلاح - أثر الدين في إصلاح الاجتماع -
أثر أدب اللغة في نجاح الدعوة إلى الإصلاح - حرية الدعوة دليل على رقي الأمة
وعظمة الدولة - أصول الإصلاح الاجتماعي - من هو الواعظ بحق - الإسلام والعلم -
التربية الدينية والشباب - التعليم الديني في مدارس الحكومة - العلماء وأولو الأمر -
تعاون الدولة والأمة على انتظام الأمن - من هو الشاب المسلم - إلى شباب محمد ρ
مقاصد الإسلام في إصلاح العالم - نهوض الشباب بعظائم الأمور - جيل يؤمن
بالأخلاق - مثل أعلى لشجاعة العلماء واستهانتهم بالموت في سبيل الحق - شجاعة
العلماء وانصاف الأمراء - محاربو الأديان ونموذج من سلاحهم - العلماء وحياتهم
الاجتماعية - العناية بالتعليم الديني - مناهج الشرف .

* **القاديانية والبهائية:** طائفة القاديانية: غلام أحمد، أصله، وولادته، ونشأته -
ادعاء غلام أحمد الوحي والنبوة والرسالة - زعمه أن له آيات على صدقه - غروره
وتفضيله نفسه على رسل الله الأكرمين - تكفيره لمن لا يؤمنون برسالته - القاديانية
فرقتان - وجوب مقاومتهم، والتحذير من دعايتهم.

تفنيد مذهب القاديانية: خيبة مدعي النبوة كذباً - انقطاع النبوة بعد رسول الله ρ دفع
شبهة يتشبهت بها القاديانية - نقض شبه القاديانية - البابية أو البهائية.

* **الهداية الإسلامية:** آداب الحرب في الإسلام - الروح العسكرية في الإسلام -
الطيب في نظر الإسلام - حقوق الزوجية في الإسلام - القضاء العادل - مكانة القضاء
- صفات القاضي في الإسلام - شريك قاضي الكوفة وموسى بن عيسى أميرها - كل
الجيش أسلفه؟ - السياسة الرشيدة في الإسلام - الدين والفلسفة والمعجزات - حقوق الجار
- السخاء وأثره في سيادة الأمة - الحلم وأثره في سعادة الحياة الفردية والاجتماعية - حالة
الأمة في هذا العصر - اليد العليا خير من اليد السفلى - خير نظام للحكم - سعيد بن

جبير والحجاج - استعمال الألفاظ في غير مواضعها ومضاره الاجتماعية - فضل شهر رمضان - بحث موجز في أشهر الفرق الإسلامية - إصلاح المعاهد الدينية والدكتور طه حسين - الأدوية المفردة بين دسقوريدس وابن البيطار - كلمات وخواطر وآراء.

* **هدى ونور:** الإسلام والفلسفة - الحكمة وأثرها في النفوس - الحكمة العربية - التعاون في الإسلام - مكانة الأزهر وأثره في حفظ الدين ورقي الشرق - خواطر - الشورى في الإسلام - طرق الصوفية والإصلاح - رسائل إخوان الصفا - العمل للكمال - الجمعيات الإصلاحية - الخلافة الإسلامية - العرب والسياسة - أسباب سقوط الأندلس - الجزائر واستبداد فرنسا - الظهير البربري - طريق الشباب - للحقيقة والتاريخ - الشعور السياسي في الإسلام - العاطفة والتسامح في الإسلام - لهجة بلاد الجزائر - الدعوة الشاملة الخالدة - التراويح.

* **دراسات في العربية وتاريخها:** القياس في اللغة العربية - حياة اللغة العربية - الاستشهاد بالحديث في اللغة - موضوع علم النحو - التضمين - تيسير وضع مصطلحات الألوان - طرق وضع المصطلحات الطبية وتوحيدها في البلاد العربية - حول تبسيط قواعد النحو والصرف والرد عليها - الإمتاع بما يتوقف تأنيثه على السماع.

* **دراسات في اللغة:** المجاز والنقل وأثرهما في حياة اللغة العربية - من وثق من علماء اللغة، ومن طعن فيه - اللهجات العربية في هذا العصر - نيابة بعض الحروف عن بعض - الأمثال في اللغة العربية - وصف جمع غير العاقل بصيغة فعلاء - اسم المصدر في المعاجم - شرح قرارات المجمع والاحتجاج لها - نقد اقتراح ببعض الإصلاح في متن اللغة - نقد إعرابين جديدين في صيغة التحذير -

ملاحظات على البحث المقدم لمجمع اللغة العربية عن موقف اللغة العامية من اللغة العربية الفصحى - الألفاظ المؤنثة من طريق السماع.

* **الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية:** الخيال في الشعر العربي - الشعر

البديع في نظر الأدباء - أثر الشعر في الترويح عن النفس وإثارة العواطف الشريفة - نموذج من نقد الشعر - الشعر المصري في عهد الدولة الأيوبية - نظرة في شعر حسان بن ثابت - الخطابة عند العرب - نشأة علم البلاغة - الشعر حقيقته ووسائل البراعة فيه - قوة التخيل وأثرها في العلم والشعر والصناعة والتربية - البراعة في الشعر.

* **نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"** تمهيد: منهج البحث - مرآة الحياة الجاهلية في القرآن لا في الشعر الجاهلي - الشعر الجاهلي واللغة - الشعر الجاهلي واللهجات - أسباب انتحال الشعر: ليس الانتحال مقصوراً على العرب - السياسة وانتحال الشعر - الرواة وانتحال الشعر - القصص وانتحال الشعر - الشعوبية وانتحال الشعر - الرواة وانتحال الشعر - الشعر والشعراء: قصص وتاريخ - امرؤ القيس - علقمة - عمرو ابن قميئة - مهلهل - جليلة - عمرو بن كلثوم - الحارث بن حلزة - طرفة بن العبد - المتلمس - نتيجة البحث.

* **نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم"** الخلافة والإسلام: الخلافة وطبيعتها - في حكم الخلافة - في الخلافة من الوجهة الاجتماعية - الحكومة والإسلام: نظام الحكم في عصر النبوة - الرسالة والحكم - رسالة لا حكم، ودين لا دولة. الخلافة والحكومة في التاريخ: - الوحدة الدينية والعربية - الدولة العربية - الخلافة الإسلامية.

* **مجلة "السعادة العظمى"**: مقدمة المجلة: الاستطلاعات - الاعتصام بالشرعية - الأخذ بالقول الراجح - براءة القرآن من الشعر - تقسيم الكلام بحسب أغراضه - العربية الخالصة - البدعة - التمدن - مهيئات الإبداع - التأكيد - فلسفة شعرية اقتصادية - تحقيق مسألة تاريخية - الحياء - العمل والبطالة - الفصيح من الكلام - حياة الأمة - المولد النبوي - التربية - التقدم بالكتابة - النهضة للرحلة - طرق الترقى في الكتابة - فضل ليلة النصف من شعبان - الشعر العصري - الأحاديث الموضوعية - مدنية الإسلام والعلوم العصرية - الكلام الجامع - الأحاديث الموضوعية - رأي الشرع في

الصحافة - مدنية الإسلام والخطابة - كبر الهمة - التعاون والتعاقد - الديانة والحرية المطلقة - منذر بن سعيد - الصيام - الرحلة الجزائرية - الزمان والتربية.

* نظرات في الإسلام وأصول الحكم: بحث في الاحتجاج بالإجماع - المسلمون والسياسة - كلمات سياسية لبعض علماء الإسلام - الإسلام والفلسفة - بحث في مبايعة الخلفاء الراشدين، وأنها كانت اختيارية - بحث في قوة الإرادة - بحث في الخلافة والملك والقوة والعصبية - ملوك الإسلام وحرية العلم - القرآن والخلافة - السنة والخلافة - الإجماع والخلافة - شكل حكومة الخلافة - وجه الحاجة إلى الخلافة - آثارها الصالحة - العرب والسياسة الشرعية - القضايا التي ترفع إلى الحكام نوعان - القضاء في عهد النبوة موكول إلى الأمراء - نبذة من مبادئ القضاء في الإسلام وآدابه - المالية في عهد النبوة - لماذا لم يكن في عهد النبوة إدارة بوليس؟ - الملك - الرسول عليه السلام ذو رئاسة سياسية - الجهاد النبوي - الجزية - المخالفون أنواع ثلاثة - سر الجهاد في الإسلام - من مقاصد الإسلام أن تكون لأهله دولة - وجه قيام التشريع على أصول عامة - مكانة الصحابة في العلم والفهم - معنى كون الدين سهلاً بسيطاً - الاعتقاد بحكمة الأمر لا يكفي للعمل به - الشريعة فصلت بعض الأحكام، ودلت على سائرها بأصول يراعى في تطبيقها حال الزمان والمكان - الاجتهاد في الشريعة وشرائطه - سياسة الشعوب وقضاؤها في العهد النبوي - درة عمر بن الخطاب وإدارة البوليس - التشريع الإسلامي والزراعة والتجارة والصنائع - التشريع الإسلامي والأصول السياسية والقوانين - أحكام الشريعة معقدة بالمصالح الدنيوية والأخروية، والمصلحة الدنيوية منها هي ما يبحث عنه أصحاب القوانين الوضعية - لماذا لم يسم النبي ρ من يخلفه - تحقيق أنه عليه السلام جاء للمسلمين بشرع يرجعون إليه في الحكومة بعده - حكومة أبي بكر وسائر الخلفاء الراشدين دينية - أسباب سيادة الإسلام لعهد الخلفاء الراشدين - بيعة أبي بكر اختيارية إجماعية - كلمة في سيرة أبي بكر - هل يقال: خليفة الله؟ - حكم

- المرتدين في الإسلام - حكم مانعي الزكاة - سبب حروب أهل الردة ومانعي الزكاة -
- واقعة قتل مالك بن نويرة - حكمة رأي أبي بكر في تلك الحروب - لا حرية للشعوب
- الإسلامية إلا أن تساس على مقتضى شريعته - ضلالة فصل الدين عن السياسة -
- خير نظام للحكم - العرب والسياسة - الخلافة الإسلامية - السياسة الرشيدة في الإسلام
- الدهاء في السياسة - الشعور السياسي في الإسلام.

الفصل الثاني:
ميادين الاصلاح عند
محمد الخضر حسين

المبحث الأول: الإصلاح الديني

المطلب الأول: منهج محمد الخضر في تفسير القرآن:

كان للقرآن الكريم دور عظيم في حياة الخضر وأثر كبير في فكره، يقول محمد الخضر حسين: "دواؤنا أن نتفقه في حكمة القرآن المجيد ونجري على ما يرشد إليه من وسائل القوة والحياة الطيبة فإنه لم يترك وسيلة من وسائل الخير إلا دل عليها ولا بابا من أبواب الشر إلا حذر منه".¹

لقد خلف محمد الخضر حسين ميراثا معتبرا في التفسير فهو وإن لم يأت على تفسير القرآن الكريم كله، فإنه وقف على آيات كثيرة من كتاب الله وهي التي جمعها في كتابين هما: (أسرار التنزيل) (و(بلاغة القرآن)، حيث قام الإمام بتفسير سورة الفاتحة، وسورة البقرة حتى الآية 193 منها، كما فسّر آيات من سور مختلفة وهي: آل عمران (52-53)، والآية 159 من نفسها السورة، وكذلك سورة الأنفال (24-26)، يونس (62-65)، الحج (27-28)، ص (21-25).²

كما أننا نجد الكثير من تراثه في التفسير متناثرا في ردوده التي كان يرد بها على أخطاء بعض الكتاب أو بعض الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم، فقد كان يستعين بالتفسير لأنه الفهم الحقيقي لمراد الله عز وجل من آياته، ومن ذلك بعض الدروس التي ألقاها في جامع الأزهر ثم سجلت مواعيد تفرغها بعد ذلك ونشرت في بعض المجلات.³

يقول محمد سعيد رمضان البوطي: "ابتدأت أولى مراحل جهاد - محمد الخضر حسين - على صفحات مجلة الأزهر وقد كان اسمها آنذاك (نور الإسلام)، وقد كانت

¹ محمد الخضر حسين: "الهداية الإسلامية"، الموسوعة، المجلد 10، ص 253.

² محمد الخضر حسين، "أسرار التنزيل"، الموسوعة، المجلد 1، مصدر سابق، ص 03، 04.

³ جباللي بن ديمية: تفسير محمد الخضر حسين لأي القرآن وملاحم الإصلاح فيه، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التفسير بين القديم والحديث، جامعة تلمسان، الجائر، 2013/2014، ص 44.

صوتا إسلاميا مدويا في شتى أطراف العالم، يخشع له العدو والصديق، ويهتز بتأثيره القاصي والداني، وكانت روح تلك المجلة متمثلة في شيخين عظيمين لا يذكر أحدهما إلا وذكر معه الآخر وهما الشيخ يوسف الدجوي، والشيخ محمد الخضر حسين والذي استعرض شيئا من كتابات هذين العظيمين في تلك المجلة يستطيع أن يتخيلهما في وقفتهما المناضلة المكافحة عن حوزة الإسلام وقدسيته ضد قوى متألبة تهدف إلى خدشه والنيل منه".¹

تتوعدت مصادر محمد الخضر حسين في التفسير، فقد كان اعتماده على تفاسير عدة خاصة تفاسير المتقدمين ومن أبرزهم: تفسير الزمخشري "الكشاف" وابن العربي في تفسير آيات الأحكام، وكشف المعاني لابن جماعة وتفسير البيضاوي "أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، وأبي بكر الجصاص في كتاب "الأحكام"، وطريقته في الاستشهاد بهذه المصادر أنه يذكر المؤلف وكتابه ثم يذكر ما قاله المفسر في معنى الآية².

منهج الإمام الخضر في التفسير:

إن المتمعن في إنتاج محمد الخضر حسين في التفسير يدرك أهمية منهجه في التفسير واستقلاله عن التفاسير السابقة والمعاصرة له، فقد ساعده على هذا التميز البيئات المختلفة التي تنقل فيها والنشاطات التي مارسها والمنابر التي كان يكتب أو يحاضر أو يعلم فيها المقالات، الصحف، المجالات يضاف إلى ذلك العصر الذي عايشه فقد كانت معظم البلاد الإسلامية تحت وطأة الاستعمار.

اعتمد الخضر حسين على منهج التفسير بالمأثور فهو يفسر القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة، والقرآن بأقوال الصحابة والتابعين، وما أثر عن العلماء والمفسرين، كما اعتمد

¹ / محمد سعيد رمضان البوطي: من الفكر والقلب فصول من النقد في العلوم والاجتماع والأدب، دار الهدى، الجزائر، 1990، ص 242.

² / جيلالي بن ديمية، مرجع سابق، ص 60.

على أسس التفسير بالرأي من خلال الاعتماد على أسباب النزول والقراءات والأخذ عن كتب الديانات الأخرى والأسس التي ذكرها العلماء في التفسير بالرأي¹.

كما عرض إلى بعض المآخذ التي أخذت على الطريقتين، فأما التفسير بالمأثور فقد دخله الخلل من جهة روايات لم يصح إسنادها إلى النبي ρ ، أو إلى من نسبت له من الصحابة، ودخل التفسير بالمأثور أشياء أسرها نفر من الإسرائيليين وتلقاها بعض المفسرين دون أن يعنوا بتمحيصها والتثبت في صحة روايتها؛ وأما التفسير بالرأي فقد يدخله الخلل من جهة مخالفته لما ورد عن النبي عليه السلام في تفسير الآية برواية صحيحة أو من جهة عدم موافقته لما تقتضيه قواعد اللغة العربية أو بلاغتها ذهولا عنها أو لقلة الخبرة بها².

سار الشيخ محمد الخضر حسين في تفسيره القرآن الكريم على منهج يمكن إجماله فيما يلي:

1- تفسير القرآن بالقرآن:

وجّه الخضر اهتمامه إلى البحث عن معنى الآية من خلال الآيات الأخرى، مثال ذلك قوله تعالى: [لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ] (يونس/64)، ويقول في هذا: البشرى الخبر السار، والمعنى أنهم يبشرونهم في الدنيا وفي الآخرة بما يسرهم، أما البشرى في الدنيا ففي قوله تعالى: [يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ] (التوبة/21)، وأما البشرى في الآخرة ففي قوله تعالى: [لَا يَخْزَنُهُمُ الْعَرْزُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ] (الأنبياء/103)³.

¹ / الطاهر بن سالم: محمد الخضر حسين النص القرآني في فكره الإصلاح، دار نقوش عربية، ط1، تونس، 2010، ص 73، 74.

² / محمد الخضر حسين، "بلاغة القرآن"، الموسوعة، المجلد2، ص29.

³ / محمد الخضر حسين، أسرار التنزيل، الموسوعة، المجلد1، مصدر سابق، ص 409 - 410.

ومما يلحق بهذه المسألة اعتماد أسباب النزول: وإن كان هو نفسه عتب على الذين تمسكوا بالروايات الضعيفة وأوهموا كثيرا من الناس أن القرآن لا تنزل آياته إلا لأجل حوادث القرآن الكريم في الإصلاح والهداية¹.

فالتمكن من هذا العلم شرط في المفسر، ومن ذلك: تفسير الإمام لقوله تعالى: [قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلِيلًا بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ] (البقرة/97)، ويقول في ذلك أن سبب نزول الآية أجمع عليه علماء التفسير، كون اليهود قالوا للنبي μ أنهم لا يؤمنون بوحي يجيء به عدوهم، بعد أن عموا أن جبريل عليه السلام هو الذي ينزل بالوحي².

ومن نماذج استشهاده بأسباب النزول، ما ذكره بصدد تفسير قوله تعالى: [... وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا النُّبُوتَ مِنْ ظُهُورِهِمْ...] (البقرة/189)، أن الأنصار كانوا إذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية لم يدخل من بابه بل كان يدخل بنقب من ظهره، أو يتخذ سلما يصعد عليه قيل لهم: ليس البر من تخرجكم من إتيان الأبواب من أبوابها³

ونجده في حالات قليلة يعمد إلى بيان اختلاف المعنى باختلاف القراءة، قوله تعالى:

[مَا نُنَسِّعُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِئُهَا نَأْتِي بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] (البقرة/106)، الكلمة هي (ننساها)، بضم النون وكسر السين من أنسى الشيء؛ أي جعله منسيا ومعنى، نسخ الآية في قوله: [مَا نُنَسِّعُ مِنْ آيَةٍ] رفع حكمها مع بقائها في نظم القرآن ومعنى إنسائها: رفع الآية من نظم القرآن جملة وفي إنسائها نؤخر إنزالها إلى وقت ثان فلا ننزلها وننزل ما يقوم مقامها في القيام بالمصلحة⁴.

¹ / جيلالي بن ديمية، مرجع سابق، ص74.

² / محمد الخضر حسين، أسرار التنزيل، الموسوعة، المجلد 1، مصدر سابق، ص 177.

³ / جيلالي بن ديمية، مرجع سابق، ص74.

⁴ / الظاهر بن سالم، مرجع سابق، ص81.

2- تفسير القرآن بالحديث:

لقد راعى محمد الخضر حسين هذا الجانب واعتمد على السنة في تفسير معاني الألفاظ وتوضيح أحكام القرآن، فهو يرى أن حديث رسول الله ρ ، كالكتاب في العمل بما يتضمنه من الأوامر والنواهي.

ففي تفسيره لقوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ] (الأنفال/24)، قال هذه الآية إحدى الشواهد الناطقة بأن النبي ρ أحد طرق التشريع، وأنه كالكتاب في العمل...، وقد ضل قوم السبيل فزعموا أن التشريع مقصور على القرآن الكريم، واطرحوا الأحاديث¹.

ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: [وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْمَدُونَ] (البقرة/84)، يقول "والسفك: الصب، والدماء: جمع دم وهو معروف، والنهي عن سفك الدماء هو معنى النهي عن القتل... والمعنى: لا يتعرض بعضكم لبعض بالقتل، كما قال عليه الصلاة والسلام في ما روي في الصحيح "لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض"²

ولم يورد الخضر حسين الأحاديث الضعيفة أو الموضوعية، والمره الوحيدة التي اعتمد فيها حديثا موضوعا فلضرورة اقتضاها بيان المعنى، وابرز الخطأ الذي وقع في المستدلون به، وذلك في تفسير قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ...] (الأنفال/24)، فبين أنّ حديث النبي ρ ، هو المصدر الثاني للتشريع، وفي ذلك يقول: " وقد ضل قوم السبيل، فزعموا أن التشريع مقصور على القرآن الكريم، واطرحوا الأحاديث، وأملت عليهم الزندقة، حديث " ما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله

¹ / محمد الخضر حسين، الموسوعة، أسرار التنزيل، الموسوعة، مجلد1، مصدر سابق، ص 398.

² / المصدر السابق، ص 153. والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الفتن، باب: قول النبي ρ : " لا ترجوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض"، رقم الحديث: 8070، ص 1417.

فإن وافق كتاب الله، فأنا قلته، وإن خالف كتاب الله، فلم أقله"¹، قال يحيى بن معين: " هذا الحديث وضعته الزنادقة فقالوا نحن عرضنا هذا الحديث على كتاب الله فوجدناه لكتاب الله، إذ وجدنا كتاب الله يأمر الله بطاعة الرسول ويحذر من المخالفة عن أمره في كل حال".²

3- تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين: اتبع الخضر منهج التفسير بالمأثور من خلال الاعتماد على أقوال الصحابة، فهو يذكر أقوالهم ليؤكد المعنى من الآية، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: [... وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ مَّا رَزَقْنَاهُ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ...] (الحج/28)، فمن الصحابة والتابعين من قال أن الأيام المعلومات هي الأيام العشر كابن عباس والحسن البصري وأبو حنيفة، ومنهم من قال أنها يوم النحر، ويومان بعده، كالإمام مالك بن أنس وأصحابه³، قال وروى ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في تفسير المهد "مضجع الصبي في رضاعه"⁴

وقد كان اعتماد الشيخ كثيرا على أقوال ابن عباس ترجمان القرآن فما هو يقول في تفسيره لقوله تعالى: [... وَقَدْ كَانَ فَرِيقًا مِنْهُمْ ...] (البقرة/75)، قال الفريق المشار إليه هم الأخبار الذين حرفوا التوراة، وكلام الله: التوراة . وروي هذا الوجه في تفسير الآية عن ابن عباس⁵.

¹ جاء في ابن حبان البستي: تعليقات الدارقطني على المجروحين لابن حبان البستي، الفاروق الحديثية، القاهرة، مصر، 1414هـ-1994م، ط1، ص 181. بلغني عن علي بن المديني أنه قال: ليس لهذا الحديث أصل، والزنادقة وضعت هذا الحديث، وعثمان هذا هو ابن أخت محمد ابن كعب القرظي.

² محمد الخضر حسين، أسرار التنزيل، الموسوعة، مجلد1، مصدر سابق، ص398.

³ المصدر السابق، ص 418.

⁴ محمد الخضر حسين، بلاغة القرآن، الموسوعة، مجلد2، مصدر سابق، ص151.

⁵ محمد الخضر حسين، أسرار التنزيل، الموسوعة، مجلد1، مصدر سابق، ص 398.139.

4- الاعتماد على روايات أهل الكتاب:

يورد محمد الخضر الروايات عن التوراة ولكنه يورد ما يتماشى والفهم الصحيح للآية فقط، ومن ذلك تفسيره لقول الله تعالى: [... وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً مِنْهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ لِمَا تَعْمَلُونَ] (البقرة/140)، والشهادة ما اشتملت عليه التوراة والانجيل من البشائر بقدم الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي ذلك يقول: "ومن هذه البشائر ما جاء في سفر التثنية من التوراة، أقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك، واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به"، والنبى المماثل لموسى عليه السلام، في الرسالة والشريعة المستأنفة هو النبى محمد عليه الصلاة والسلام، واخوة بني اسرائيل هم العرب، لأنهما يجتمعان في ابراهيم عليه السلام، وقوله اجعل كلامي في فمه يوافق حال النبى ρ من الأمي عدم تعاطي الكتابة".¹

5- الاعتماد على الشعر

استشهد محمد الخضر حسين بالشعر لشرح المفردات أو لتأكيد المعانى أو بيان الجوانب البلاغية، ومن ذلك قوله تعالى: [... وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ..] (البقرة/61)، حيث يقول في ذلك "الذلة": الهوان، و"المسكنة": الخضوع، وضرب الذلة والمسكنة عليهم كناية عن إحاطتهما بهم كما تحيط القبة بمن ضربت عليه، كما قال زياد الأعجم في عبد الله بن الحشر:

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشر²

6- الاعتماد على اللغة

لقد استحوذت اللغة على النصيب الأوفر من تفسير محمد الخضر حسين فقد برزت براعته وقدرته في اللغة التي تعتبر أهم الأسس التي قام عليها، وهو بذلك يحقق ما أورده

¹ / الطاهر بن سالم، مرجع سابق، ص 83.

² / محمد الخضر حسين، أسرار التنزيل، الموسوعة، مجلد 1، مصدر سابق، ص 120.

هو نفسه في كتابه "بلاغة القرآن"، ومن خلاله تفسيره للقرآن الكريم تظهر طريقته في تناول اللغة العربية كالاتي:

- **بيان المفردات:** اهتم محمد الخضر بإيضاح المفردات القرآنية وبيان أصولها اللغوية العميقة وجذورها، ومثال ذلك قوله تعالى: "ولا يزكّهم"، يزكّهم: من التزكية وهي التطهير، وتستعمل بمعنى الثناء ومنه زكى الرجل نفسه، إذا وصفها وأثنى عليها؛ وزكى الشهود إذا عدلهم ووصفهم بأنهم أزكياء¹.

-**الاشتقاق:** اهتم محمد الخضر حسين بالاشتقاق في تفسيره ذلك أن معرفة اشتقاق الكلمة يزيد في بيان معناها ويوضحه²، ومن أمثلة ذلك قوله: (فأزلهما)، أزل من الزل وهو عثور القدم وزلقها، ثم استعمل في ارتكاب الخطيئة، كما استعمل في خطأ الرأي مجازاً، ومعنى أزلهما عن الشجرة: أوقعهما في الزلة بسببها.³

-**معاني الحروف:** من نماذج ذلك ما قاله في تفسير قوله تعالى: [وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ] (البقرة/166)، بهم: باء الملايسة وهي التي يكون بين مجرورها وفاعل الفعل وجه م من الملايسة أي: الاتصال ويعبر عنها علماء العربية بباء الحال، لأنها تقع مع مجرورها في الإعراب موقع الحال، ووجه الملايسة بين أولئك المشركين وتلك الأسباب: انعقادها بينهم في الدنيا وطمعهم في نفعها لهم في الآخرة⁴.

ويرى الإمام الخضر أن ترجمة القرآن مفسدة ومضرة، عكس ما يتبادر إلى الذهن من أنها سبب لنشر الإسلام أو لفهم القرآن، وهذا ناجم عن معرفته واطلاعه على تراجم مختلفة، إذ أنه يرى أنها لا تؤدي ولا تستطيع أن تقدم القرآن كما أراده الله...، ويتراءى إزاء هذا وجوه من الفساد تعترض سبيل ترجمته، حرفية كانت أو معنوية، والأصح من

¹ / محمد الخضر حسين، أسرار التنزيل، الموسوعة، مجلد1، مصدر سابق، ص308.

² / الطاهر بن سالم، مرجع سابق، ص95.

³ / محمد الخضر حسين، أسرار التنزيل، الموسوعة، مجلد1، مصدر سابق، ص70.

⁴ / المصدر السابق، ص297.

قولنا: ترجمة القرآن أن نقول: ترجمة معاني القرآن...¹

كما يرى أن ترجمة القرآن قد ترسم في أذهان غير العرب أنها تحل محل القرآن نفسه، فيكتفوا بها عن قراءة القرآن، أو يتعبدون بها، ولا يدرون أنهم يتعبدون بغير ما أنزل الله. ويرى أن القرآن يراعي في حقيقته المعاني الأصلية مضموماً إليها المعاني الثانوية التي هي وجوه بلاغته.

والحل في نظره هو أن: "يتولى طائفة من الراسخين في الإيمان وفهم القرآن تأليف تفسير باللسان العربي، لا يزيدون فيه على ما يفهم على وجه التحقيق من الآية، مع ملاحظة ما اقتضى الإيجاز حذفه، ثم يتولى طائفة ترجمة هذا التفسير بأمانة وبراعة، وتظهر هذه الترجمة بعنوان: "ترجمة تفسير القرآن"، وينبه إلى أن التفسير ألفته لجنة، وترجمته تحت إشراف رئاسة دينية حازمة، ومن المعهود أن التفسير لا يخلو من كلمة تنبئ أنه تفسير لا ترجمة"².

ويمكن إجمال مميزات أسلوب الخضر في التفسير فيما يلي:

- الكتابة بلغة عالية واضحة؛ ولاشك في ذلك؛ فالمؤلف من أعيان البيان.
- السير في مسائل العقيدة على منهج السلف؛ والعناية بجناب التوحيد، والتحذير من الشرك ومظاهره المعاصرة وذلك حين يمرّ بآيات في هذا الشأن.
- الحرص على ربط تفسيره بواقعه الذي يعيشه؛ فلذا تراه يتعرض لهداية الآيات، وعلاجها لكثير من مشكلات العصر.
- الميل إلى الإيجاز، والبعد عن الحشو والتطويل في إيراد الأقوال؛ فتراه لا يستقصي، ولا يُفصّل، وإنما يبين ما يظهر له من معنى الآية، وربما استشهد بأقوال بعض أهل العلم السابقين وآرائهم.

¹ / أنظر: محمد الخضر حسين، أسرار التنزيل، الموسوعة، مجلد1، مصدر سابق، ص 76.

² / المصدر السابق، ص 77-78.

المطلب الثاني: إصلاح الطرق الصوفية عند الخضر حسين

اهتم الخضر حسين بالإصلاح الديني، ومن ذلك تناوله لموضوع الطرق الصوفية، ذلك أنه ابن الزاوية أبا عن جد، ومن أسرة عريقة ومتمكنة في هذا المجال، ونشأته كانت صافية وظاهرة من البدع والانحرافات، وهذا ما جعله يحمل همّ الدعوة إلى تصحيح هذا الجانب لما رأى وقرأ عما طرأ فيه من بدع ليست من الدين في شيء.

وقد عالج ذلك في عدة مقالات ومحاضرات، منها مقال: "الطرق الصوفية والإصلاح"، ومقال: "التصوف في القديم والحديث"، مبينا كيف بدأ التصوف طاهرا ونقيا في حياة الرسول ﷺ، والصحابة الكرام والتابعين وتابعيهم بإحسان.

تعريف التصوف:

لغة: (تَصَوَّفَ) الرجل وهو (صُوفِيٌّ) من قوم (صُوفِيَّةٍ) كلمة مولدة و(صَافٍ) السهم عن الهدف (يَصُوفُ) و(يَصِيفُ): عدل¹

فالتصوف: مجاهدة النفس وحملها على الأخلاق الكريمة، بالرياضة والعكوف على العبادة، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في المال والجاه، ولم يعرف هذا الاسم "التصوف" إلا في حدود المئتين من الهجرة، يقول الإمام: "أن التصوف في الأصل: زهد في الدنيا، ومحاسبة للنفس على كل ما تفعل أو تترك، وانقطاع إلى عبادة الله في إخلاص وعفاف وعزة، واحتفاظ بحقوق العباد، وجهاد في سبيل الحق قدر المستطاع"²

وذكر ابن تيمية جماعة من الزهاد منهم: الفضيل بن عياض المتوفى سنة 187 هـ، وقال: في عصرهم حدث اسم التصوف، وقال القشيري في "الرسالة": واشتهر هذا الاسم - يعني: التصوف - قبل المئتين من الهجرة، وذكر حسن صديق في كتاب (أبجد العلوم):

¹ / الفيومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، لبنان، بيروت، المكتبة العلمية، مادة الصوف، ج1، ص 352.

² / محمد الخضر حسين، الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، الموسوعة، مجلد4، ص 240-241

أن أول من دعي بهذا الاسم: أبو هاشم الصوفي، وقد توفي أبو هاشم هذا سنة 150 هـ.¹ واختلف الناس في سبب هذه التسمية، فقال بعضهم أنها مأخوذة من الصفة، وهو لقب أطلق على جماعة من الصحابة كانوا يسكنون مسجد رسول الله ﷺ، عابدين متعفين ملازمين له، غير أن قاعدة النسبة في اللغة تقتضي القول صفة، لا صوفية، وذهب ابن الجوزي وآخرون إلى أن الصوفية نسبة إلى صوفة؛ تشبيهاً لهؤلاء الزهاد بآل صوفة، وهم قوم كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية، ويتسكون. والأقرب أنهم تسموا بالصوفية لأنهم كانوا يؤثرون لبس الصوف؛ تجنباً للبس الفاخر من الثياب².

نماذج من الزهاد في الإسلام:

وكان صحابة رسول الله ﷺ من أزهد الناس، فلم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، يعملون حتى لا تدفعهم الحاجة إلى أكل العطاء، وقد اشتهر كثير منهم بالجد في العبادة والزهد في الدنيا، ونذكر منهم الصحابي الجليل أبا ذر الغفاري، وسلمان الفارسي... أما سلمان الفارسي، فكان عطاؤه خمسة آلاف، فإذا خرج عطاؤه، تصدق به جميعاً، ولا يقات إلا بما كسبت يده؛ تمسكاً بقول النبي ﷺ فيما يرويه البخاري: "ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده"³. ويدلكم على مكانته في الزهد والتقوى: كتابه الذي بعث به من العراق إلى أبي الدرداء، وهو يومئذ القاضي بدمشق، ومما يقول فيه: "أما بعد: فقد كتبت إلي أن الله رزقك مالاً وولداً، اعلم أن الخير ليس في المال والولد، وإنما الخير أن يكثر حلمك، وينفعك علمك. وكتبت إلي: أنك نزلت في الأرض المقدسة، اعلم أن الأرض لا تقديس أحداً، وإنما يقديس الإنسان عمله"⁴.

¹ محمد الخضر حسين، الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، الموسوعة، المجلد 4، مصدر سابق، ص 228.

² المصدر السابق، ص 91.

³ أخرجه البخاري / كتاب البيوع / باب: شراء النبي ﷺ بالنسيئة / رقم الحديث 2072 / ص 426

⁴ محمد الخضر حسين، المجلد الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، الموسوعة، المجلد 04، مصدر سابق، ص 88.

وأما أبو ذر الغفاري ؓ، فكان شديد الورع على نفسه وعلى الناس، ويتلو قول الله عز وجل [...وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالنَّوْضَةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ] (التوبة/34)، على عمال عثمان -رضي الله عنه- حينما يراهم يتسعون في المراكب والملابس، وهذا أمر لا يطيقه كل إنسان، فكتب معاوية لعثمان عنه، فأمره الخليفة بالقدوم إلى المدينة، فجاءها واجتمع إليه الناس، وعاملهم بالطريقة نفسها التي كان يعامل الناس بها في الشام، فلم يطيقوا حاله، فطلب منه عثمان اعتزال الناس لعدم قدرتهم على احتمال قوله، فخرج أبو ذر إلى منطقة بجوار المدينة يقال لها "الربذة" تاركاً خلفه قوما يقاربونه ورعاً¹.

وترك المباهاة جملةً ليس من الزهد، وقد كان الحسن البصري يقيم عوج من يعدون في الزهد بامتناعهم من تناول بعض المباحات؛ كالأطعمة الفاخرة. دخل عليه أحد زهاد البصرة، فقال له الحسن: أتحب الخبيص (طعام لذيذ)؟ قال: لا أحبه، ولا أحب من يحبه، فأقبل الحسن على جلسائه، وقال لهم: أترونه مجنوناً؟!

فلا ورع في ترك المباح من حيث أن فيه متعة للنفس، فذلك هو التمتع في الدين، وإنما الورع في ترك الإكثار من تناول المباحات؛ حذراً من أن يفضي ذلك إلى بטר النفس، أو يدفع سلطان التعود عليها إلى اكتساب المال، ولو من طريق فيه شبهة². ومن ذلك أن الصحابي الجليل أمين هذه الأمة أبا عبيدة عامر بن الجراح لما فتح أنطاكية ورأى طيب هوائها، وحسن تربتها... عزم على الخروج بعسكره منها وعدم البقاء بها، فأرسل له عمر جواباً جاء فيه: "أما قولك: إنك لم تقم بأنطاكية لطيب هوائها، فإله -عز وجل- لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات...."³.

ولم يكن بعض الصحابة والتابعين وتابعيهم يبنذ الزينة، ويعرض عن العيش الناعم

¹ / محمد الخضر حسين، الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، الموسوعة، مجلد 04، مصدر سابق، ص 232.

² / محمد الخضر حسين، أسرار التنزيل، الموسوعة، مجلد 1، مصدر سابق، ص 299.

³ / محمد الخضر حسين، الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 29.

مع القدرة عليه بقصد أن ذلك قرينة بذاته، وإنما كان يريدُ تدريب النفس على مخالفة الشهوات، لتسهل قيادتها بالعقل، ولأن الشارع الحكيم أمر بالاعتقاد عند الأخذ بالطيبات وعدم الإسراف فيها.

وقد تخلى بعض الزهاد في عهد رسول الله ρ عن أشغال الدنيا بالتعبد والعزلة فنهاهم وقال: "لا رهبانية في الإسلام". وتدبر إن شئت قوله تعالى:

[... خُذُوا زِينَتَكُمْ مِنْ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ] (الأعراف/31)، فقد تبين بهذه الآية أن الزينة من علائق العبادة، غير منافية لها، وأن العبادة لا تستدعي الإعراض عن الذات الحسية المعتدلة¹.

وفي عهد التابعين ظهرت طائفة تتحدث عن أحوال النفس وصلاتها بالخالق عز وجل، والزهد عن الدنيا، واشتدت عنايتهم بهذه الآداب، ودعوا إليها غيرهم، حتى لقبوا: بالوعاظ، والزهاد، ومن أشهرهم: الإمام الحسن البصري، فكان صاحب علم بالقرآن والحديث والفقه، وصاحب بيان وبلاغة، فلازمه كثير من الناس ليتعلموا منه.

وكان يتكلم عن الإخلاص والمراقبة، ومحبة الله، والشغف بذكره، ويصطفي في مجلسه هذا طائفة يتوسم فيهم النباهة والفهم لهذا الباب من العلم ويعقد لهم مجلساً في منزله، قال أبو سعيد بن الأعرابي: لم يبلغنا أن أحداً ممن تكلم في هذه المذاهب (يعني: أحوال النفس)، ودعا إليها، وزاد في بيانها وترتيبها وصفات أهلها؛ مثل: الحسن البصري².

ومن مجلس الحسن البصري وغيره تخرجت طبقة زاكية منهم: مالك بن دينار، وعبد الواحد بن زيد، وحبيب العجمي... وبقي هؤلاء الزهاد لا يمتازون عن الناس إلا بكثرة عملهم الصالح، وخشيتهم من الله، وعدم التعلق بالدنيا.

¹ / محمد الخضر حسين، الشرعية الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 32-33.

² / المصدر السابق، ص 233.

ونجد في القرن الثالث للهجرة فئة على طريقة سلمان الفارسي، والحسن البصري، ونذكر منهم: أبا القاسم الجنيد بن محمد، وسري السقطي وأبا يزيد البسطامي وسهل بن عبد الله التستري، ويحيى بن معاذ الرازي، وذا النون المصري، وبشر الحافي، وطائفة أخرى خلطت التصوف بشيء من أصول الفلسفة الإشراقية، وشاع يومئذ الغلو في الزهد، وتوهم بعضهم أن التوكل هو نزع اليد من الأسباب جملة.¹

ومما اتصل بالتصوف: مسألة الكرامات وقد أجازها أهل السنة وأثبتوها، بيد أن الناس بالغوا فيها وفي نسبتها إلى شيوخ الصوفية، مما أثار بحث العلماء فيها منذ حوالي نهاية القرن الرابع.

مظاهر الانحراف عن منهج الإسلام في التصوف:

ومن أشنع مظاهر الانحراف والخروج عن المنهج الإسلامي - حسب محمد الخضر حسين - القول بحلول الله في بعض مخلوقاته، إذ يعتبر ذلك مخالفة صريحة للدين، وأخذ الصوفية يتحدثون عن أحوال وخواطر ومقامات تعرض لهم أثناء المجاهدة، ومقامات... ويعبرون عن ذلك بألفاظ خاصة، وفي ذلك وجد بعض المضللين منفذا لضيفوا إلى التصوف معاني باطلة، وشروحا غير صالحة، ككلمات الحلول والاتحاد... قال الحافظ ولي الدين أبو زرعة العراقي في كتابه "الأجوبة المرضية في الأسئلة المكية": أما ابن عربي، فلا شك في اشتمال "الفصوص" المشهورة عنه على الكفر الصريح الذي لا شك فيه، وكذا "فتوحاته المكية"، ثم قال: "وينبغي عندي ألا يحكم على ابن العربي بشيء، فإني لست على يقين من صدور هذا الكلام منه، ولا من استمراره عليه إلى وفاته، ولكن نحكم على هذا الكلام أنه كفر" (نقله ابن زكري في شرحه للنصيحة).²

ولا شك أن طائفة قد انتمت إلى الإسلام ظاهرا، ولبست لباس الصوفية، لما علمت

¹ / محمد الخضر حسين، الشرعية الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق ص 235.

² / المصدر السابق، ص 239.

مكانتهم في الأمة أخذت تثبت هذه النواقض للدين تحت اسمهم، فالشيخ (محيي الدين بن عربي، الذي هو أبعد الصوفية مرمى في هذا المقام يقول في (الصحيفة 39) من أول "فتوحاته": "تعالى الله أن تحله الحوادث، أو يحل في الحوادث"¹.

ولهذا لا بد لنا من العلم أن كثيرا ممن ينتمون إلى طرق الصوفية يحاولون دس السم فيها ليضلوا الناس على علم، فالمسألة خطيرة والسكوت عنها عظيم، لذا وجب علينا تمييز الخبيث من الطيب بالعودة إلى لأصول: القرآن والسنة الصحيحة.

فقد كان السلف الصالح، يأخذون أنفسهم بآداب الشريعة، ويزنون أعمالهم بميزان الشرع، ويستمدون الأخلاق منه، ولا يستشهدون إلا بآية أو حديث أو حكمة أو قصة تؤخذ منها العبرة، ولم يجعلوا الكرامة مقصدهم، وما لبثوا أن غبطهم أناس يبتغون أن تكون لهم الكلمة والعيش الرغيد، ولو من غير طريقهما المشروع، فحاولوا الظهور بمظهر الهداة، ولو من غير الطريق الصحيح، ولما عجزوا عن القيام بالفضائل والاستقامة على الطريقة المثلى، فتحووا في الشريعة ثلثة حتى لا ينكر عليهم الناس فقالوا: "إن الولي إذا انتهى إلى منزلة عليا في رضوان الله، سقطت عنه التكاليف جملة. وتوكأ على هذه المقالة الوقحة كثير ممن يدعي الولاية، ويرتكب الفواحش على مرأى ومسمع من جماعات يلثمون أقدامه، وينشرون بين يديه أموالهم؛ ليقربهم إلى الله زلفى"².

وقد أبرز الخضر حسين جوانب من انحرافاتهم تظهر في ممارساتهم الرقص، والتصدية، واللهو بآلات الطرب في المساجد، وهو ما ذكره بقوله: "أما السماع الذي ننكره على المتصوفة فهو الأناشيد التي تحوي من وصف الغزل كشعر عمر بن أبي ربيعة، أو تحوي من وصف الخمر مثل ما نسمعه من شعر أبي نواس، وحاشا لفضلاء الصوفية أن

¹ / محمد الخضر حسين: "الرحلات"، الموسوعة، المجلد 11، ص 112.

² / محمد الخضر حسين: "هدى ونور"، الموسوعة، المجلد 12، ص 52-53.

يكونوا قد شهدوا هذا النوع من السماع، وهم يحسبون أنهم في طاعة"¹.

"قال أبو حامد الغزالي يصف المتصوفة في عصره: متصوفة أهل هذا الزمان - إلا من عصمه الله - اغتروا بالزني والمنطق والهيئة من السماع والرقص، ولم يتعبوا أنفسهم في المجاهدة والرياضة"².

وقد بين الإمام الخضر مكانة الإمام حُجَّة الإسلام الغزالي، وذكر كلاماً عنه، نقلاً عن كتاب "القواسم والعواصم"، والذي نقل منه قول المؤلف: "فاوضت فيها أبا حامد الغزالي حين لقائي له بمدرسة السلام في جمادى الآخرة سنة تسعين وأربع مئة، وقد كان راضٍ نفسه بالطريقة الصوفية من سنة ست وثمانين إلى ذلك الوقت نحواً من خمسة أعوام، وتجرد لها، واصطحب مع العزلة، ونبذ كل فرقة، فتفرغ لي بسبب بيناه في ترتيب الرحلة، فقرأت عليه جملة من كتبه، وسمعت كتابه الذي سماه "الإحياء لعلوم الدين"، فسألت سؤال المسترشد في عقيدته، المستكشف عن طريقته، لأقف من سر تلك الرموز التي أوماً إليها في كتبه على موقف تام المعرفة، وطفق يجاوبني مجاوبة الفاهم لطريق التسديد للمريد؛ لعظيم مرتبته، وسمو منزلته، وما ثبت له في النفوس من تكرمة، فقال لي من لفظه، وكتبه لي بخطه: إن القلب إذا تطهر عن علاقة البدن المحسوس، وتجرد للمعقول، انكشفت له الحقائق، وهذه أمور لا تدرك إلا بالتجربة لها عند أربابها؛ بالسكون معهم، والصحبة لهم"³.

بالغ الغلاة من الصوفية في ما يسمى: الحال والذوق، وجعلوه من دلائل الشريعة، (وهذا ما يرده ابن السبكي في قوله: "مسألة الإلهام ليس بحجة". بل طغى بهم العبث أن جعلوا دلالة الذوق فوق دلالة النصوص، وقالوا: إذا تعارض الأمر والذوق، قدمنا الذوق على الأمر"⁴.

¹ / محمد الخضر حسين، الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، الموسوعة، المجلد 04، مصدر سابق، ص 93.

² / المصدر السابق، ص 94.

³ / محمد الخضر حسين: تراجم الرجال، الموسوعة، المجلد 03، ص 113.

⁴ / محمد الخضر حسين، الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، الموسوعة، مجلد 04، مصدر سابق، ص 97.

وحاولوا استدراج الناس إلى الضلالة، بدعوى أن الصوفي يتلقى أحكاماً عن مُنَزَّلِ الشريعة من غير واسطة، وبهذه الدعوة ابتعدوا عن تعاليم الإسلام، مما استلزم صدهم وردهم إلى جادة الطريق، انقسم العلماء في هذا إلى فرقتين، الأولى: ثبتت أمامهم، وعرضت أقوالهم وأفعالهم على الشريعة، وبينت ضلالها، كما فعل أبو بكر بن العربي، وابن الجوزي، وابن تيمية، وأبو اسحاق الشاطبي... وغيرهم.

والثانية: جنبت في مواجهتهم، واسترهبوها بمثل قولهم: "إن الإنكار على أهل الطريق يفضي إلى الموت على سوء الخاتمة"، فكانت تصغي إلى مقالاتهم بأذن هادئة، وتتنظر إلى أعمالهم بعين راضية، حتى إذا عرضت عليهم شيئاً من آثارهم، وأريتها كيف يكدر مورد الشريعة أو ينقض بعض أركانها من أساسه، طفقت تخرج الأقوال عن موضعها اللغوي والعرفي، وتحملها على معان ليست من منطوقها ولا مفهومها، ولا مما تفتح له الاستعارة أو الكناية صدرها، وأخذت تحاول بما يشبه تخبط العشواء في ليل، أو اعتساف المدلج في غير سبيل، أن تدخل بعض الأعمال المنكرة في قالب قاعدة أو قياس شرعي، كما فعل نفر الذين تصدوا للاعتذار عن المقالات الصريحة في نفي حكمة الباري، أو حوله في مخلوقاته، أو دعوى رؤيته بالعين الباصرة في حال اليقظة، أو نهي المريد عن زيارة غير أستاذه، أو ترك صلاة الجماعة والجمعات أيام الخلوة لرياضة النفس ومجاهدتها¹.

وقال حصين بن عبد الرحمن: قلت لأسماء بنت أبي بكر: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ عند قراءة القرآن؟ قالت: كانوا كما ذكرهم الله، تدمع عيونهم، وتتشعر جلودهم، فقلت لها: ها هنا رجال إذا قرئ على أحدهم القرآن، غشي عليه، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وقال عامر بن عبد الله بن الزبير: جئت إلى أبي يوماً، فقال: أين كنت؟ فقلت: وجدت أقواماً ما رأيت خيراً منهم، يذكرون الله، فيرعد أحدهم حتى يغشى عليه من خشية

¹ / محمد الخضر حسين، هدى ونور، الموسوعة، مجلد 12، مصدر سابق، ص 54، 55.

الله، فقعدت معهم. فقال لي: رأيت رسول الله ρ ، وأبا بكر، وعمر يتلون القرآن، ولا يصيبهم هذا، أفتراهم أخشعَ لله من أبي بكر وعمر؟ قال: فرأيت أن ذلك كذلك، فتركتمهم¹.

ومن بدع بعض المتصوفة لبس "المرقعات" بدعوى الزهد، ولقد قال القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب "العارضة": إن الثوب إذا خلق منه جزء، كان طرْحُ جميعه من الكبر والمباهاة والتكاثر في الدنيا. وإذا رقعته، كان بعكس ذلك كله، ووقع الخلفاء ثيابهم. والحديث مشهور عن عمر، وذلك شعار الصالحين، وسنة المتقين. حتى اتخذ الصوفية شعاراً، فجعلته في الجديد، وإنشاء مرقعة من أصلها، وهذا ليس سنة، بل هو بدعة عظيمة، داخل في باب الرياء، وإنما المقصود بالترقيع: الانتفاع بالثوب على هيئة البلى².

يؤكد الخضر أن التصوف نشأ صافياً طاهراً نقياً، فلبسه أناس عن جهل، وأحدثوا فيه بدعا، واستعمله أناس عن قصد ليقضوا حوائجهم، ودرسوا فيه السموم وخاصة بين السذج من العامة وجهلتها، وما هم بقليل، ولعل هذا هو سبب بقاء التصوف ملوث ببدع عملية وأخرى اعتقادية، رغم ما بذله ويبذله العلماء من تصويب لأعمالهم وأقوالهم ووضعها في ميزان الشرع، ومواجهتهم بها وهم لا يخشون في الله لومة لائم.

ومن الأمثلة كذلك ما اعتبره الخضر جريمة في حق الدين والمجتمع، وهو إصرار بعض رؤساء الفرق الصوفية على المضي في طريق الباطل والانحراف عن الدين، وذلك لترضية أصحاب السلطة والتقرب منهم لتحقيق مآرب شخصية وأطماع مادية، وهو ما ذكره بقول: "وأكبر من هذا جريمة، أن في رؤساء الطرق من يعرف الباطل باطلاً، ولا يبالي أن يطأطئ له رأسه، ويؤازره على محاربة الحق، حتى يزيده أهل الباطل بسطة في الجاه، ولا يعترضوه في سبيل يتصيد منه بعض مآرب شخصية"³.

¹ / محمد الخضر حسين، الموسوعة، الشرعية الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، مجلد 04، مصدر سابق، ص 89.

² / المصدر السابق، ص 134.

³ / محمد الخضر حسين، هدى ونور، الموسوعة، مجلد 12، مصدر سابق، ص 56.

كما اعتبر محمد الخضر حسين شدة تعصب أصحاب كل فرقة لفرقتهم ورؤسائهم ومعاداتهم لغيرهم انحرافا في سلوك الفرق الصوفية، وقد اعتبر ذلك خروجا عن المنهج الإسلامي لما يؤدي إليه من تفتيت لوحدة المسلمين وتشتيت لصفهم، وهو ما ذكره بقوله: "ومما أنجز في أذيال هذه الطرق من الخطر على اتحاد الأمة، أن المتشبهين بطريقة قد يتغالون في التعصب لها إلى أن يقصروا عاطفة محبتهم ومساعدتهم على من تقلدوا عهدا ويتجافون عن تمسك بعهد طريقة أخرى.... ومن الرؤساء من يحبذ ذلك التعصب الضال، إذ يرى أنه ليس له سلطان الا على من نفضوا قلوبهم من كل احترام وتعاطف الا عليه، أو على من انخرطوا في الطريق التي قام على رأسها"¹.

إن محمد الخضر حسين لا يميل إلى محاربة هذه الفرق والقضاء عليها، وإنما يدعو إلى إصلاحها واستغلال قربها من الناس للتأثير فيهم، وإصلاح المجتمع والعودة به الى المنهج الإسلامي الصحيح، فالإمام الشيخ محمد الخضر حسين جمع بين السلفية المتتورة والتصوف السني، وحارب كل ما هو مثبت للدين والعقل ومُعاد للمنهج العلمي والعقلي ومنه جملة من الزوايا الصوفية التي هدفها ترويض مريديها والسيطرة عليهم بالخوارق والكرامات التي نسجتها الإسرائيليات لغايات إيديولوجية تقتل خصوصا مبادرات العقل المسلم.²

وهو يرى أن إصلاحها يكون من جهة المعتقد والسلوك، ومن جهة الأهداف والعلاقة بالمجتمع، فمن جهة المعتقد والسلوك يدعو الخضر إلى تنقية الزوايا من كل مظاهر الانحراف والخروج عن الدين، وضرورة الالتزام بما ورد في القرآن والسنة والسير على منهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين.³

¹ / محمد الخضر حسين، هدى ونور، الموسوعة، مجلد 12، مصدر سابق ص53.

² / أنظر: محمد الخضر حسين: "كتابات حول محمد الخضر حسين"، الموسوعة، المجلد 14، ص173.

³ / أنظر: طاهر بن سالم، مرجع سابق، ص348.

أما من جهة علاقتها بالمجتمع، فيرى محمد الخضر أن من واجب أصحاب الزوايا أن يستغلوا سلطتهم على الناس في توجيههم إلى ما يحقق الخير والمنفعة، للوطن وعدم الخضوع لأي سلطة مهما كان استبدادها، فالخضر يدعو إلى استثمار قرب الصوفية من الناس وانتشارها في أرجاء العالم الإسلامي، مادام لرؤساء الصوفية كلمة نافذة وتأثير عظيم على العامة، فإذا أمكن إصلاح هذه الفرق بما يتلاءم وأسس الشريعة الإسلامية ومقاصدها أمكن التأثير على العامة والخاصة فيصلح المجتمع ويتحقق الخير للإسلام والمسلمين¹.

المطلب الثالث: تصدي محمد الخضر للطوائف الدينية المنحرفة

لقد عاصر محمد الخضر حسين ظهور عدة طوائف عقدية وسياسية وأيديولوجية وكان لهذه الطوائف وجود وانتشار وأتباع داخل البلاد الإسلامية، ومن الطوائف التي عني بالرد عليها في كتاباته البهائية والقاديانية اللتان كانتا نتاجا وصناعة استعمارية أراد بها أعداء الإسلام ضربه من الداخل وبواسطة أناس يتسمون بأسماء إسلامية وخير دليل على ذلك: المؤسسون لهاتين الطائفتين فقد أسستا على يد كل من غلام أحمد القادياني والبهاء حسين علي نوري.

اعتمد أتباع هاتين النحلتين على أفهام خاطئة لبعض نصوص القرآن وتأويلها تأويلا شاذا حتى يكتسبوا الشرعية والقبول والإقبال من الناس، وهاتان الفرقتان متفقتان في مبادئهما على تغيير المفاهيم الأساسية للإسلام والقضاء على أركانه، ومنها الجهاد والكفاح ضد الاستعمار حتى يتقبل المجتمع الإسلامي النفوذ الاستعماري ويستسلم له بدعوى التسامح والتعايش السلمي بين البشر².

¹ / أنظر: طاهر بن سالم، مرجع سابق، ص 348، 349.

² / أنظر المرجع السابق، ص 283.

وهم في آرائهم امتداد للباطنية سواء في العقائد أو في التكاليف الشرعية، وهنا يظهر ملمح الإصلاح في فكر محمد الخضر حسين، حيث رأى الخطر الذي يهدد كيان العقيدة داخل البلاد الإسلامية ورأى انه ليس من اللائق الخوض في الرد على طوائف انقرضت ولم يصبح لها وجود في العصر بل لا بد من التصدي للطوائف المناوئة للإسلام في الفترة التي عاش فيها¹.

وقد تصدى محمد الخضر حسين للرد على هاتين الفرقتين، بل إنه أَلَّف رسالة كاملة في الرد على عقائدهما عنونها ب: "القاديانية والبهائية، قائلًا في شأنهما: "ظهر أشخاص قل في علم اللغة نصيبهم، أو خف في علم الشريعة وزنهم، فتناولوا القرآن بعقول لا تراعي في فهمه قوانين البلاغة، ولا تدخل إلى تفسيره من باب السنة الصحيحة، فأدخلوا في تفسير القرآن آراء سخيفة، ومزاعم منبوذة، ووجدت هذه الآراء وهذه المزاعم عند بعض العامة وأشباه العامة متقبلاً"²، وفيما يلي عرض لأهم عقائد الطائفتين وردود الخضر عليها:

البابية أو البهائية:

فرقة تنتسب إلى الباب، والباب عند الشيعة هو نائب المهدي المنتظر، ولقب به رجل فارسي اسمه علي بن محمد، ادعى أنه من أهل البيت كذباً³، سلم به طائفة من الجهال، ولما بلغ عددهم ثمانية عشر، أمرهم بالانتشار في أطراف فارس والعراق، ولما ناظره العلماء خلصوا لكفره، واعتقل في "شيراز"، ثم بأصفهان، وثارَت بين أشياعه وبين المسلمين فتن وحروب سفكت فيها الدماء، وكانت عاقبته أن أعدمته الحكومة في "تبريز" صلباً ورمياً بالرصاص عام 1265 هـ.⁴

¹ / أنظر: جيلالي بن ديمية، مرجع سابق، ص 110، 111.

² / محمد الخضر حسين، بلاغة القرآن، الموسوعة، مجلد 12، مصدر سابق، ص143.

³ / أنظر أحمد حماني: رسالة الدلائل البادية على ضلال البابية وكفر البهائية، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، د. ذ. ت، ص 27.

⁴ / أنظر: المرجع السابق، ص33.

جاءت بعد قتله فترة كان أتباعه فيها على اختلاف في شأن من ينوب عنه، إلى أن دبروا اغتيال الملك ناصر الدين انتقاماً لزعيمهم، فهجم عليه اثنان منهم، فخاب سعيهما، وأخذت الحكومة تتقصى أثر البابيين، وتسوق زعماءهم إلى مجلس التحقيق، وكان الميرزا حسين علي الذي لقبوه بعد ب (بهاء الله) من شيعة الباب، ودعاة نحلته، فقبض عليه، وسجن بطهران بضعة أشهر، ثم أبعده إلى بغداد سنة 1269 هـ.¹

ذكر الإمام الخضر أن الحكومة الإيرانية أدركت خطر هذه الفئة، لذا جعلتهم تحت المراقبة، فالتحقت طائفة منهم ببغداد، واجتمعوا بميرزا حسين الملقب ببهاء الله، وأثار البهائيون فتناً بينهم وبين شيعة العراق حتى كادت أن تقوم حرب أهلية، فقررت الحكومة العثمانية وقتئذ إرسال (بهاء الله) إلى الآستانة، ونفثهم إلى "أدرنة" بالبلقان، فقام المسمى (بهاء الله) في هذا العهد يدعو إلى نفسه، ويزعم أنه هو الموعود به الذي أخبر عنه الباب، واشتعلت فتن بين البهائيين أنفسهم، فقام أخوه ميرزا يحيى الملقب (صبح أزل) برفض دعوته وخالفه وبقي وفيما لدين الباب فنسبت له فرقة منهم تسمى (الأزلية)، ثم أن الحكومة العثمانية أمرت بإبعاد الفريقين من "أدرنة"، فنفت الميرزا يحيى وأتباعه إلى "قبرص"، ونفت البهاء وأتباعه إلى "عكة" بفلسطين.²

لا يؤمن أتباع هذه الطائفة بنبوة محمد p بدليل أنهم يخالفون ما جاء به رسول الله p، ويزعم زعيمهم الأول أنه أفضل من رسول الله p، حيث قال: "إن أمر الله في حقي أعجب من أمر محمد رسول الله من قبل لو أنتم فيه تتفكرون"³

وقد ذكر محمد الخضر أن في ادعاء النبوة تكديبا للقرآن الذي أعلن صراحة ختم النبوة بالرسول p، في قوله تعالى: [مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ

¹/ أنظر: محمد الخضر الحسين: "القاديانية والبهائية"، الموسوعة، المجلد 09، ص 24-25.

²/ أنظر: المصدر السابق، ص 69.

³/ محمد الخضر حسين: رسائل الإصلاح، الجزء 01-02، دار الصفوة- مكتبة الإيمان، ط01، مصر، 2011، ص435.

النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ حَلِيمًا] (الأحزاب/40)، حيث قال الخضر: " وقد انعقد إجماع المسلمين على هذا جيلا بعد جيل، وأصبح معلوما من الدين بالضرورة، فمن أنكروه وادعى لنفسه أو لغيره النبوة، بعد رسل الله ρ ، فقد انسلخ من الاسلام وكان من الغاوين، وإذا شهد لسانه بنبوة محمد ρ فهو من أولئك الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم فالبابيون لا يدخلون في المعترفين بنبوة رسول الله ρ في حال".¹

ويرى الباب أن شريعته ناسخة للشريعة الإسلامية، فجعل الصوم تسعة عشر يوما من شروق الشمس إلى غروبها، ووقتها وقت الاعتدال الربيعي، بحيث يكون يوم عيد الفطر هو يوم "النيروز" على الدوام، كما قرر البهاء أن الدين قسمان: عملي وروحاني، فالروحاني هو مظاهر الألوهية والنبوة، وغير قابل للتبديل، والقسم العملي، متعلق بالأشكال الخارجية وقابل للتغيير، وعلى هذا جعل الصلاة تسع ركعات في اليوم والليلية والقبلية أين يكون هو؟ وفي هذا يقول: "إذا أردتم الصلاة فولوا وجوهكم شطري الأقدس".²

لا يؤمن البهائيون بالبعث ولا بالجنة والنار، قال في كتاب بهاء الله والعصر الجديد: "طبقا للتفسير البهائية يكون مجيء كل مظهر إلهي عبارة عن يوم الجزاء، إلا أن مجيء المظهر الأعظم بهاء الله هو يوم الجزاء الأعظم للدورة الدنيوية التي تعيش فيها"³ كما أنهم أنصار للصهيونية، فقد أعلن عباس عبد البهاء تأييده المطلق للحركة الصهيونية وإقامة وطن لليهود على أرض فلسطين قائلا: " سيجتمع بنو إسرائيل في الأرض المقدسة وتكون أمة اليهود التي تفرقت في الشرق والغرب والجنوب والشمال مجتمعة... تأتي طوائف اليهود إلى الأرض المقدسة ويزدادون تدريجيا إلى أن تصير جميعا وطننا لهم".⁴

¹ / محمد الخضر الحسين، القاديانية والبهائية، الموسوعة، مجلد 9، مصدر سابق، ص 288.

² / محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، ج2، مكتبة وهبة، القاهرة، ص 192.

³ / محمد الخضر حسين، رسائل الإصلاح، الموسوعة، مجلد 5، مصدر سابق، ص 434

⁴ / محمد الخضر الحسين، القاديانية والبهائية، الموسوعة، مجلد 9، مصدر سابق، ص 288.

وقد لقيت هذه الدعايات قبولا لدى الأوساط المثقفة ممن تربوا في المدارس والجامعات الاستعمارية، فعملوا على نشرها في الكتابات والصحف والمجلات، قال سلامة موسى: "إن هذا الدين أي البهائية يختلف عن المسيحية واليهودية، حيث لم يقتل أحدا من مخالفيه، لأن مبادئه تدعو قبل كل شيء إلى السلام... ونحن نحب أن يلقي هذا الدين تأييدا في مصر بين الطبقات التي لا تجد من الأديان السائدة أو من الآداب والعلوم ما يقنع نفوسها، وفي الدعوة البهائية، كبت للتعصب ودعوة إلى إخاء البشر، وإن البهائية تنزل على حاجة العصر الحاضر الذي يكره تعدد الأديان، وما يجلب من مخالفة بعضها البعض من تحيزات وتعصب".¹

ذكر الشيخ محمد الخضر أن البهائية من ولائد الباطنية تغذت من ديانات وآراء فلسفية ونزعات سياسية، وقد بين الخضر حسين أن مبادئ هذه الفرقة هي مبادئ الباطنية نفسها، وتعمل الباطنية على إبطال الشريعة الإسلامية، وهو ما عبر عنه بقوله: "عرفنا تاريخ الباطنية، وقرأنا بعض كتب البابية والبهائية فوجدنا روح الباطنية، حلت في جسم ميرزا علي، فخرجت باسم البابية والبهائية".²

ومن أوجه التشابه بينهما التأويل بما يخرج به عن المعنى الصحيح إلى معان سخيفة، لا يقبلها العقل، ومثاله: "الباطنية يستدلون بكلام النبوة، ويحرفون في كالم القرآن والحديث عن مواضعه، كما فسروا زيارة البيت العتيق بزيارة شيوخم، والبابية والبهائية يستدلون بالقرآن والحديث، ويذهبون في تأويلهما إلى مثل هذا الهذيان نفسه، ولميرزا علي المسمى بالباب تفسير لسورة يوسف مشى فيه على هذا النمط فقال في قوله تعالى: [إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنَّي رَأَيْتُ أَحَدَ نَجْمَاتِ كَوْكَبَاتِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ] (يوسف/4)، والمراد من يوسف: حسين بن علي، والمراد بالشمس فاطمة، وبالقمر محمد،

¹ / الطاهر بن سلامة، مرجع سابق، ص 283.

² / محمد الخضر الحسين، القاديانية والبهائية، الموسوعة، مجلد 9، مصدر سابق، ص 73.

وبالنجوم أئمة الحق، هم الذين يبكون على يوسف سجدا"¹

القاديانية:

جماعة دينية، تدعي انتسابها للإسلام، ظهرت في الهند أيام الاستعمار البريطاني، وكانت أكثر البلدان المنتشرة فيها الهند وباكستان والدول الغربية، أسسها ميرزا غلام أحمد (1839-1908م)، وذكر أن آباءه كانوا يسكنون "سمرقند"، ثم رحلوا إلى الهند، واستوطنوا "قاديان"، فهو من أصل فارسي، صارت لهم الرياسة في تلك الناحية، ثم دارت عليهم الدوائر، فذهبت عنهم تلك الرياسة، ونهبت أموالهم، وقال عن ذلك: "ثم ردّ الله إلى أبي بعض القرى في عهد الدولة البريطانية"².

وقد كان ظهوره في وقت اشتعلت فيه الهند بالحركات الجهادية المسلمة الثائرة ضد الإنجليز، فكان انحيازهم له لأنه حرم قتالهم، ادعى أنه أنزل عليه الوحي بموت والده بعد الغروب، أنكر المسلمون عليه بشدة، فرحل وبدأ ينشر أنه المسيح المنتظر، وانتقل إلى "دهلي" فواجهه علماءها بقوة، ودُعي إلى المناظرة فلم يجب، وقد أصدر عام 1902 مجلة لنشر مذهبه سماها مجلة: "الأديان"، وهي تنشر باللغتين: الأوردية والإنكليزية³.

يزعم غلام أحمد أنه ينزل عليه الوحي، قال في الخطبة الإلهامية: "هذا هو الكتاب الذي ألهمت حصة منه من رب العباد في يوم عيد من الأعياد"، وفي منشور له عنوانه: "شرائط الدول في جماعة الأحمدية" ما نصه: "إن المسيح الموعود- يعني غلام أحمد- كان مرسلا من الله تعالى، وإنكار رسل الله تعالى خسارة عظيمة قد تؤدي إلى الحرمان من الإيمان"⁴

¹ / محمد الخضر الحسين ، القاديانية والبهائية، الموسوعة، مجلد9، مصدر سابق، ص 73، 94.

² / المصدر السابق، ص 09.

³ / المصدر نفسه، ص 10، 12.

³ / محمد الخضر الحسين، رسائل الإصلاح، الموسوعة، مجلد5، مصدر سابق، ص 445، 446.

⁴ / المصدر السابق، ص 444.

وقد ذكر الشيخ محمد الخضر من الأحاديث وآثار الصحابة الصريحة ما يدل ويكفي في أن النبوة انتهت بنبوته p، وأصبح من المعلوم بالدين بالضرورة، يقول: "روى الإمام أحمد بسنده إلى أبي الطفيل أن رسول الله p قال: " لا نبوة بعدي إلا المبشرات"، قال: قيل: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: "الرؤيا الحسنة - أو قال - الرؤيا الصالحة".¹

استند القادياني وأتباعه إلى أن معنى "الخاتم" في قوله تعالى: [...وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ...] (الأحزاب/40) أي أفضل النبيين أو سيد النبيين، زينة النبيين وابتغوا هذا التأويل، ليتها لهم أن يقولوا على الله ما شاءت أهواؤهم، ويفسدوا على المسلمين أمر دينهم.² وكان الرد من محمد الخضر حسين معتمدا على كتب اللغة في شرح معنى الخاتم كالأتي: "وخاتم" في الآية بمعنى آخر وهو المعنى الذي يذكره علماء اللغة، قال صاحب اللسان وخاتمهم وخاتمهم: آخرهم، ومحمد p خاتم النبيين...³

كما اعتمد الخضر على آراء المفسرين بقولهم: "وخاتم النبيين" آخرهم، قال الإمام ابن كثير عند تفسير: (وخاتم النبيين): "وقد أخبر الله تعالى في كتابه، ورسوله في السنة المتواترة عنه، أنه لا نبي بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كاذب أفاك دجال مضل"، وقال الألوسي في تفسيره: "وكونه p خاتم النبيين مما نطق به الكتاب، وصدعت به السنة، واجتمعت عليه الأمة، فيكفر مدعى خلفه".⁴

يقول محمد الخضر حسين: "... وانتظرنا من داعية القاديانية أن يأتي بشاهد على دعواه من كلام العرب، أو من كتب اللغة، أو من أقوال أئمة التفسير فلم يفعل، وذهب يعارض

¹ / محمد الخضر الحسين، رسائل الإصلاح، الموسوعة، مجلد5، مصدر سابق، ص 444. الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مُسند الأنصار، حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة/ الجزء رقم:39، الصفحة رقم: 213-23795/من تطبيق جامه الكتب التسعة.

² / جيلالي بن ديمة، مرجع سابق، ص 112.

³ / محمد الخضر الحسين، القاديانية والبهائية، الموسوعة، مجلد 9، مصدر سابق، ص 59، 60.

⁴ / محمد الخضر حسين، رسائل الإصلاح، الموسوعة، مجلد 5، مصدر سابق، ص 445، 446.

أئمة اللغة والتفسير، بلغو من القول، كأنه لا يشعر أن القرآن قول فصل وما هو بالهزل"¹.
وبيّن الخضر حسين أن غلام أحمد ادعى أن له دلالات- أي آيات- تبين صدق
دعوته، ولكن في الحقيقة لم يقف أحد على شيء منها، كما أنه يزعم أنه أفضل من
بعض الرسل عليهم السلام، فيقول مثلاً: "تركوا ذكر ابن مريم فإن غلام أحمد خير منه"،
ومنها قوله: "ما أعطاه الله لكل نبي واحداً، أعطاه لي جميعاً، ومنها قوله: "قال الله لي: إن
أمرك إذا أردت شيئاً أن تقول له: كن فيكون"، ومؤلفاته مملوءة بمثل هذه الجمل الطاغية،
وبالنسبة للذين لا يؤمنون به ولا يقبلون دعوته، فقد شبههم باليهود الذي كذبوا عيسى عليه
السلام."²

وفي باب المعجزات تعاملت هذه الطوائف معها تعامل المنكر لها حتى قالوا: "إن
آيتهم -أي الرسل- على صدق دعوتهم لا تخرج عن حسن سيرتهم، وصلاح رسالتهم،
وأنهم لا يأتون بغير المعقول، ولا بما يبطل سنته ونظامه في الكون" فقولهم هذا صريح
في إنكار خوارق الآيات والمعجزات التي أجزاها الله على يد أنبيائه ورسله"³.

ويأتي رد محمد الخضر حسين، حيث يقر أن هذه التأويلات كلها زخرف من القول
وجحود لمعجزات الرسل وصرف لآيات الله عن معانيها المفرغة من لفظها العربي المبين،
فعند عرض البهائية لمعجزة كلام عيسى عليه السلام في المهد [وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِيهِ الْمَهْدِ
وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ] (آل عمران/46)، أنكروها وفسروا الآية تفسيراً بعيداً حيث قالوا: "في
دور المهد، وهو دور الصبا، علامة على الجرأة، وقوة الاستعداد في الصغر": يريد أنه
يكلمهم في سن أعتيد فيها الكلام"⁴.

¹ / محمد الخضر الحسين، القاديانية والبهائية، الموسوعة، مجلد9، مصدر سابق، ص 59، 60.

² / محمد الخضر حسين، رسائل الإصلاح، الموسوعة، مجلد5، مصدر سابق، ص 445، 446.

³ / جيلالي بن ديمية، مرجع سابق، ص 119.

⁴ / المرجع السابق، ص 120.

وقد أجاب محمد الخضر حسين عن هذا بما يلي: " جاء في الجامع الصحيح للإمام البخاري ما يدل على أن عيسى - عليه السلام - تكلم قبل أوان الكلام، تجد هذا في حديث: "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة"¹ وذكر في أولهم عيسى-عليه السلام، ثم عرض إلى كلمة المهد ومعناها بقوله: "والمهد في الأصل مصدر مهد؛ أي بسط ووطأ، وهو كما في لسان العرب: اسم لموضع الصبي الذي يهياً له ويوطأ لينام فيه، فكان على المؤول - أي البهائية- إذ فسره بدور التمهد للحياة أن يقيم على هذا شاهداً من كلام العرب ويبيد الوجه الذي دعاه إلى الإعراض عن حديث رسول الله ﷺ، وإلا كان هذا التأويل علامة على جرأته، واستعداده لأن يخوض في آيات الله بغير علم، وعلى غير أصل"².

كما أكد الإمام الخضر على وجوب مقاومة هؤلاء، والتحذير من دعايتهم، وذلك نظراً لنشاطهم في الدعوة إلى نحلته، ويكمن الخطر في كونهم يقيمون دعوتهم على شيء من تعاليم الإسلام، فينخدع بهم ضعاف النفوس، وقليلو العلم الشرعي والمشكلة أنهم ينشرون دعوتهم بين ظهراني المسلمين ولو تركوا لأفسدوا على النشء دينه، يقول محمد الخضر في هذا الصدد: "ولكن دعاة هذا المذهب، قد استهوا فريقاً من أبناء المسلمين، وأصبحوا يدعون إلى مذهبهم في النوادي، ويتحدثون عنه في الصحف، وكلفوا كتباً تقع في أيدي بعض الشباب، فذلك ما اضطرنا إلى أن نبسط القول، في بيان نحلته وسرد أقوالهم، حتى يكون المسلمون على بينة من أمرهم"³.

ويدعو محمد الخضر حسين جميع المسلمين إلى محاربة هذه النحل الضالة، فيوجه النداء إلى جميع العلماء والوعاظ والمصلحين في مصر وغيرها من البلدان الإسلامية، للتصدي لها بكل الوسائل، فأتباعها هم أعوان والشيطان، وأعداء الدين، يقول: "وها نحن أولاء قد كتبنا هذا المقال، ليحذر مسلمو مصر وغيرها من الأقطار الإسلامية فتنة هذه

¹ / أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، (واذكر في الكتاب مريم...)، رقم الحديث 3436، ص 723 .

² / محمد الخضر حسين، بلاغة القرآن، الموسوعة، مجلد 2، مصدر سابق، ص 151، 152.

³ / محمد الخضر الحسين، القاديانية والبهائية، الموسوعة، مجلد 9، مصدر سابق، ص 75.

الطائفة... ولنا الأمل في علمائنا ووعاظنا أن يقعدوا لدعاة هاتين الطائفتين كل مرصد، ويعالجوا كل قلب اعتل بشيء من وساوسهما، قال تعالى: [وَالَّذِينَ جَاءَهُوا فِينَا لِنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُؤْمِنِينَ] (العنكبوت/69)¹.

ومن أمثلة جهوده خطابه الذي توجه به إلى الزعيم الهندي مولانا شوكت علي حين زار القاهرة، حيث يقول: "أيها الزعيم الكريم لجمعية الهداية الإسلامية في بلاد الهند حاجة، وأن خير من توصيه بقضائها الزعيم المسلم الغيور، هي أن في تلك الديار فرقا حديثة، كالبهائية والقاديانية تفسد في دين الله علنا أو من وراء نفاق، فإذا لم تبادروا إلى علاج هذا المرض بالدواء الناجع، انحط بالنفوس إلى هاوية الجهالة، وفت في عضد الزعماء، فلا يجدون من ورائهم قوة الاتحاد الذي تخضع له كل قوة، الدواء الناجع أن يقف الراسخون في العلم تجاه هذه الفرق الزائغة عن السبيل، ويدفعوا باطلها بالحجة وحسن البيان، فبغية جمعية الهداية الإسلامية التي تضعها بين يدي حضرتكم، أن تكثروا من حث العلماء، هناك على الجهاد في الحق بالطرق العلمية، ولا تدعوا تذكيركم بأن ينقذوا الناس من وساوس تلك الفرق قبل ان يروج بهتهاها، ويكون السوا الغالب في جانبها"².

المطلب الرابع: مواجهة محمد الخضر للإلحاد:

عايش الإمام محمد الخضر حسين في زمانه بوادر الانحلال الديني بمختلف أشكاله، فبعد تحذيره الشديد من الطوائف المارقة والمنحرفة عن الدين - ونعني بذلك البهائية والقاديانية - عاد ليحذر من زيغ في العقيدة ظهر في وقته ألا وهو الإلحاد.

نحن نعلم أنه لم يخلو زمان في الإسلام من المنحرفين والملحدين منذ بعثته ρ ، وخير دليل على ذلك وجود المنافقين في المدينة المنورة وتحذير المولى عز وجل الدائم لرسول ρ وصحابته منهم، بيد أنهم لم يعلنوا إحادهم علنا مثلما فعل الملحدون في زمان الخضر

¹ / الطاهر بن سالمه، مرجع سابق، ص289.

² / محمد الخضر حسين: "الهداية الإسلامية"، الموسوعة، المجلد 10، مصدر سابق، ص207، 208.

وزماننا، ويصف الإمام ذلك بقوله: " كان المسلمون على إيمان صادق وطاعة لله خالصة، إلا نفرا لا يخلو منهم عصر، غلبت عليهم شقوتهم فأصيبوا بمرض الإلحاد والإباحية، وكان هؤلاء النفرا لا يتحدثون بإلحادهم وإباحيتهم إلا إذا خلا بعضهم إلى بعض، أو غمزوا بها غمزا خفيفا في خطبهم، أو أشعارهم، أو مؤلفاتهم، وكان هؤلاء النفرا يلاقون - بعد مقت الله تعالى - احتقار الأمة، والنظر إليهم كحيات سامة يجب الحذر منها.¹"

وعايش الخضر تغير الأوضاع، بانتشار الإلحاد والمجاهرة به والدعوة إليه، ونجد ذلك في قوله: "فإنه في هذا العصر قد تفشى حتى أصبح الملاحدة والإباحيون يصرخون في المجالس العامة، أو على صفحات المجلات أو الجرائد بما لا يختلف علماء الإسلام في أنه ردة وخروج على الدين إلى حد بعيد"².

ويضيف الخضر على ذلك أقوالا ينكر فيها ما آل إليه وضع العالم الإسلامي، منها قوله: " إلا أن الدعاية إلى القبائح - فيما مضى - لم تبلغ في علانيتها ما بلغته اليوم، ألم يبلغ الحال أن يكتب الكاتب أو يخطب الخطيب داعيا إلى ما يميز رداء العفاف والكرامة مخادعا الشباب باسم الحرية أو الفن الجميل؟".

وانطلاقا من دوره بوصفه إماما ونزعتة مصلحا، لم يترك الخضر حسين الأمر بالمعروف والتذكير الدائم لأمة الإسلام، فقد قال أيضا: "أيها السادة! إن هدى الله في خطر، وقد أصبحنا محاطين بشياطين الإلحاد والإباحية من كل جانب، ولو قلت: قد أصبحت الضلالة، وتقويض أركان الشريعة السمحة يأتين من حيث كنا نرجو المناصرة لم أكن مخطئا."³

ولم يكتف الإمام الخضر بالتحذير من الإلحاد علنا، بل قدم كشفا إصلاحيا للمشكلة جاءت فيه العناصر التالية:

¹ / محمد الخضر حسين، الهداية الإسلامية، الموسوعة، المجلد 10، مصدر سابق، ص 275-276.

² / محمد الخضر حسين، الدعوى إلى الإصلاح، الموسوعة، المجلد 5، مصدر سابق، ص 124.

³ / محمد الخضر حسين، الهداية الإسلامية، الموسوعة، المجلد 10، مصدر سابق، ص 277.

أسباب وجود الإلحاد، وطبائع الملحدين، ومفاسد الإلحاد الاجتماعية، وأسباب ظهوره وعلاجه.¹

أسباب وجود الإلحاد داخل المجتمع الإسلامي:

بيّن الخضر حسين في كثير من مقالاته الإصلاحية، الأسباب التي تذل بالمجتمع الإسلامي، وتسمح بظهور ثغرات يعبر منها كل ما هو دخيل عن الإسلام، ويمكن تقسيمها إلى أسباب خارجية وأخرى داخلية:

الأسباب الخارجية يمكن إجمالها في أجنحة المكر الثلاثة²: الاستشراق - التبشير - الاستعمار، وقد كان لكل منها الدور السلبي الكافي للنش في المنظومة الإسلامية، وتشويه ما يمكن تشويهه لإفساد المجتمعات الإسلامية، بضرب التعليم والأسرة والمرأة خاصة.

ويذكر الخضر حسين كيف أنهم أفسدوا التعليم عن قصد بقوله: "إلى أن بليت الشعوب الإسلامية بالاحتلال الأجنبي، وكان من أغراض الأجنبي: صرف قلوب الأمة عن إيمانها والتمسك بشريعتها، فأخذ يرمي إلى هذا الهدف بكل ما أوتي من قوة ودهاء، حتى صارت معاهد العلم تخرج لنا أفواجا من الملاحدة والإباحيين، ووقعت مناصب ذات بال في أيدي هؤلاء، فأخذوا يشجعون على المروق من الدين، ويعملون لإبعاد الدين عن معاهد التعليم، ومظاهر السياسة، فأخذ الإلحاد يرفع رأسه ويحاول أن يرفع صوته."³

وبسبب قوة الاستعمار المادية وسيطرته العسكرية، تمكن الملحدون من الجهر عبر الوسائل المتاحة آنذاك بما هو متفق عليه بأنه كفر بالإجماع، يقول الإمام الخضر في هذا: "حتى أصبح الملاحدة والإباحيون يصرخون في المجالس العامة، أو على صفحات

¹ / انظر محمد الخضر حسين: "رسائل الإصلاح"، الجزء 01-02، مصدر سابق، ص 207.

² / كما يسميها العلامة عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني في كتابه: أجنحة المكر الثلاثة: الاستشراق - التبشير - الاستعمار.

³ / محمد الخضر حسين، الهداية الإسلامية، الموسوعة، المجلد 10، مصدر سابق، ص 276.

المجالات أو الجرائد بما لا يختلف علماء الإسلام في أنه ردة وخروج على الدين إلى حد بعيد.¹

الأسباب الداخلية:

ويمكن حصرها في أربعة أسباب رئيسة تنطلق من الفرد في حد ذاته، إلى الأسرة ثم العلماء وأخيرا الدولة.

أسباب فردية:

وتعود إلى ضعف في شخصية الفرد، وتغلب شهوات نفسه عليه، فيرى كما يقول الخضر: "أن المصلحة في إباحتها، وأن تحريم الشارع لها خال من كل حكمة، فيخرج م هذا الباب إلى إباحية وجحود".²

أو يتصل الفرد بمن هو أقوى منه شخصياً، فيفسد عليه عقيدته ببراعته في الإقناع. أو يقرأ مؤلفات الملاحدة دون زاد من العلم في الدين، فيتأثر بهم بل قد يدعو إلى اتباع إلحادهم كما قال الخضر حسين: "أن يقرأ الناشئ مؤلفات الملحدين، وقد دسوا فيها سموما من الشبه تحت ألفاظ منمقة، فتضعف نفسه أمام هذه الألفاظ المنمقة، والشبه المبهجة، فلا يلبث أن يدخل في زمرة الملاحدة الألداء".³

أسباب أسرية:

بما أن الأسرة هي الحاضنة الأولى للفرد، فإن لها الدور البارز في إعدادها، وهي بمثابة نواة المجتمع، وقد تكون من مهيبات الإلحاد، بحيث تكون بعيدة تمام البعد عن ممارسة شعائر الإسلام كالصلاة والصيام وغيرها وكذا أخلاق الإسلام كالصدق والأمانة... وقد عبر عن ذلك الإمام بقوله: "أن ينشأ الشخص في بيت خال من آداب الإسلام

¹ / محمد الخضر حسين، الدعوى إلى الإصلاح، الموسوعة، المجلد 5، مصدر سابق، ص 124.

² / محمد الخضر حسين: رسائل الإصلاح، الموسوعة، الجزء 01 - 02، مصدر سابق، ص 208.

³ / المصدر السابق، ص 207 - 208.

ومبادئ هدايته، فلا يرى فيمن يقوم على أمر تربيته من نحو والد أو أم أو أخ استقامة، ولا يتلقى عنه ما يطبعه على حب الدين، ويجعله على بصيرة من حكمته، فأقل شبهة تمس ذهن الناشئ تتحدر به في هاوية الضلال"¹

أسباب علمية:

تتمثل في تقاعس بعض علماء الإسلام عن أداء دورهم التام في التوجيه والتعليم وكذا التحذير من هذه القضايا، والأدهى والأمر أن منهم من يوالي الملاحدة، بل قد يسعى لطلب ودّهم لغرض من الدنيا قليل، كتحقيق ماديات وغيرها، يقول الخضر حسين في ذلك: "أن كثيرا من المنتمين إلى علوم الشريعة، فرطوا في جانب الغيرة على الحق، فتراهم يوادون من يصفهم الناس بالإلحاد، ويتملقونهم بالإطراء، ويشهدون لهم بالإخلاص للدين، يفعلون هذا رجاء متاع الحياة الدنيا، وهم يعلمون أنهم إنما يمدحون طائفة تفسد على الأمة أمر دينها وأخلاقها".²

أسباب سياسية:

ويرجع ذلك إلى أن الكثير من الحكومات تتساهل في قوانينها مع هذه الانحرافات، بحجة الحرية الدينية، وحرية المعتقد والممارسة، ولا تظهر العزم ولا الحزم للحد منها، وقد ذكر الخضر حسين ذلك بقوله: "أن بعض الحكومات صارت تضع قوانينها الدستورية في عبارات لا يرى فيها الملحد قييدا يكفه عن إعلان إلحاده، أو الدعوة إليه كما يشاء".³ والأكثر من هذا، أن الحكومات قد توظف من أهل الإلحاد في مناصب مرموقة، فيكون لهم الأثر الكبير في بث السموم الفكرية من خلال سياستهم التعليمية والثقافية خاصة، وفي هذا قال الخضر حسين: "أن بعض الحكومات الإسلامية ترفع إلى مناصبها

¹ / محمد الخضر حسين: رسائل الإصلاح، الموسوعة، الجزء 01 - 02، مصدر سابق، ص 207

² / محمد الخضر حسين، رسائل الإصلاح، الموسوعة، المجلد 5، مصدر سابق، ص 24.

³ / المصدر السابق، ص 24.

العالية من لم يتلقوا من علوم الدين ما يميزون به المفسد من المصلح، فيجد الجاحدون لديهم حظوة، ولو مع إعلانهم الإلحاد، وجراءتهم على الطعن في الشريعة الغراء، وإقبال كبراء الدولة على الملحد وتمكينه من المناصب التي يتخذها وسيلة لنفث سموم إلحاده، قد يكون مشجعا لغيره من زائغي العقيدة على أن يجهروا بزيغهم ويدعوا إليه وهم آمنون.¹

كما أن بعض الحركات التحررية في البلدان الإسلامية قادها زعماء أظهروا حب الوطن والولاء له، ولما استقلت بلدانهم وتقلدوا سياستها نشروا إلحادهم بوسائل قانونية: "إن بعض الملاحدة دخلوا في الحركات الوطنية وتظاهروا بالغيرة على الوطن، فانخدع بهم الناس حتى خلعوا عليهم بلقب الزعامة، فأخذ هؤلاء الزعماء الملاحدة يعملون النشر الإلحاد بين من يتصل بهم من الشبان."²

وهذه بعض الأسباب الظاهرة التي مكنت للإلحاد من أن ينتشر بين المسلمين، بالإضافة إلى ما تم ذكره، فإننا ننبه إلى المخططات الاستعمارية التي كان لها الدور البارز بما امتلكت من وسائل وإمكانات مادية وبشرية لا حدود لها.

طبائع الملحدين:

عاش الخضر متغيرات زمانه، وما حدث فيه من فتن، فما كان منه إلا أن قام بدوره المنوط به داعية مصلحا، فعان الظواهر بإيجابها وسلبيتها، وتصدى للإصلاح في مختلف المجالات، مستعملا الوسائل المتاحة في عصره، وقد لاحظ أن الملاحدة يتفقون في تفكيرهم وسلوكهم مع اختلاف أماكن تواجدهم وعبر عنه بقوله: "سأقتني صروف الليالي إلى ملاقات طائفة من الملاحدة في تونس، وفي الأستانة، وفي الشام، وفي ألمانيا، وفي مصر، فرأيت هذه الطوائف تتشابه في أمور يبعد أن يكون تواردهم عليها من قبيل المصادفة، وإنما هي

¹ محمد الخضر حسين، رسائل الإصلاح، الموسوعة، المجلد 5، مصدر سابق، ص 24.

² المصدر السابق، ص 25.

- طبائع لما تواطأت عليه قلوبهم من جحود آيات الله، وإنكار لدينه الحنيف.¹
- وقد ذكر الإمام اثني عشر طبعا للملاحدة، ولأهميتها نذكرها جميعا كما جاءت باختصار وهي:
- 1- فرحهم بتهمة عالم كبير بالإلحاد: يفرح الملحدون بإشاعة الإلحاد عن بعض العلماء والمفكرين.
 - 2- استهزأؤهم بالدين: "يستهزئون في مجالسهم بالدين وربما رشحت ألسنتهم بهذا العبث في حضرة بعض المؤمنين بزعم أنهم مازحون غير جادين، كذلك كانت مجالس الملاحدة في القديم.... وهكذا ملاحدة هذا العصر."²
 - 3- انهماكهم في الفسوق: ولا ينتظر ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر أن يترك شيئا من شهواته إلا أن يخشى الناس.
 - 4- تناقضهم في الأقوال: لاتباعهم الهوى.
 - 5- إنكارهم المعجزات الكونية: وقد قال بهذا أتباع البهائية والقاديانية، وأشخاص في قلوبهم مرض.
 - 6- دسهم في الشريعة ما ينافي حكمتها: "يعمل الملاحدة لتنفير النفوس من الدين. ومن الطرق التي يسلكونها للتنفير: إصاقهم بالدين أشياء لا تطابق الحكمة وقد وضع الزنادقة أحاديث كثيرة نسبوها إلى النبي p (...) وقد كشف علماء الحديث عن الأحاديث الموضوعية، وبينوها للناس"³.
 - 7- إنكارهم العمل بالحديث: "لا يزال السلف الصالح من الصحابة والتابعين يجعلون الأحاديث أصلا من أصول الدين، يقفون عندها إذا وجدوها، ولا يتجاوزونها. حتى أخذت

¹ / محمد الخضر حسين: رسائل الإصلاح، الموسوعة، الجزء 01 - 02، مصدر سابق، ص 208

² / المصدر السابق، ص 208

³ / محمد الخضر حسين، رسائل الإصلاح، الموسوعة، المجلد 5، مصدر سابق، ص 20.

الزندقة تعبت من وراء ستار، فكان من مكايدها: أن أجرت على السنة شياطينها: أن مأخذ الدين هو القرآن وحده، وأن السنة لا تستقل بإنشاء الأحكام، يقولون هذا ليسقطوا جانباً كبيراً من أحكام الإسلام".¹

إن كثيراً من الأحكام لا تدرك وتفهم وتطبق إلا بشرح السنة كالصلاة والصيام والزكاة والحج...

8- **تأويلهم القرآن على حسب أهوائهم:** "يعمل الملاحظة لطرح السنة من أصول الدين، ثم يعمدون إلى القرآن المجيد فيحرفون الآيات الحكيمة عن معانيها، ويفسرونها كما يشتهون، ليتم لهم بهذا التأويل تعطيل أوامر الدين ونواهيه، وذلك ما فعله الباطنية من قبل، وجرى فيه على آثارهم باطنية أهل هذا العصر، مثل البهائية والقاديانية، وأشخاص يطوون صدورهم على جحود غير قليل".²

9- **صداقتهم للمجاهرين بالجهود:** "إن رأيت شخصا يصاحب جاحداً بآيات الله، وأحسست من لحن خطابه أن الصداقة بينهما محكمة، سبق إلى ذهنك أن منشأ هذه الصداقة التشابه في زيغ العقيدة: [لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ...] (المجادلة/22)

10- **إلحاحهم في الدعوة إلى حرية الرأي في الدين:** "غاية الملحد أن يطعن في الدين، ويصد عن سبيله بقلمه أو لسانه، وقد يرى أن الحال لا تسعه لأن يطعن في الدين، أو يصد عنه في علانية، فتجده يحتال لأن يذهب إلى غرضه من طريق البحث وإبداء الرأي، فيبالغ في الدعوة إلى حرية الرأي في الدين، ليكون مطلق العنان، يقول ويكتب ما يشاء من آراء يقوض بها صرح الدين من أساسه".³

¹ / محمد الخضر حسين، رسائل الإصلاح، الموسوعة، المجلد 5، مصدر سابق، ص 20-21

² / المصدر السابق، ص 21.

³ / المصدر نفسه، ص 21-22

11- بسط ألسنتهم في رجال الدين: "من طبائع الملحدين الحط من شأن علماء الدين المستقيمين، باعتقاد أن هدم من يتمثل فيهم الدين القويم هدم للدين نفسه، فإذا بلغوا أن جعلوا الناس يزدرون برجال الدين، ويصرفون أسماعهم عما يدعونهم إليه من الحق، فقد بلغوا أمنيته من تعطيل أوامر الدين، وإهمال آدابه وإطفاء نور حكمته".¹

12- دعوتهم إلى الإلحاد: "في الملاحظة من يعجز أن يكون داعية إلى الإلحاد. فيكتفي بأن يطلق لنفسه العنان في الإباحية، ومنهم من يدفعه بغض الدين إلى أن يعمل بلسانه أو بقلمه لهدم أصوله، والصد عن سبيله، ولهؤلاء طرق يأتمرون لتدبيرها، وهي شبيهة بطريق إخوانهم الباطنية، وذلك أنهم يبتدئون من يريدون إغواءه بعرض شيء من الشبه في صورة السائل، أو الحائر في دفعها، ثم ينظرون إليه ماذا يكون حاله من الاستخفاف بتلك الشبه، أو التأثر بها، فإن رأوه قد ضعف أمام هذه الشبه، أكثروا من إلقاء أمثالها عليه حتى يقع في حيرة، ويستبينوا منه أن إيمانه قد تزلزل، وعند ذلك يوحون إليه بما يشأون من الغمز في الدين، حتى يجردوه من عقيدة الحق، ويتخذوه عضواً في مجامعهم".²

ومما سبق، نستخلص أن الملاحظة يشتركون في كثير من النقاط عبر الزمان، ويختلفون في الوسائل والأساليب، وذلك حسب طبيعة كل حقبة.

الإلحاد ومفاسده الاجتماعية:

يرى الخضر حسين أن الملاحظة يتملصون من الضوابط الاجتماعية والقيم والمبادئ، ولهذا يعتبر أن مهم الأساس اتباع الشهوات والانصياع للإباحية حيث يقول: "عرفنا من طبائع الإلحاد: اتباع الشهوات، والانطلاق في الإباحية، فالملحد لا يحافظ على عرض أحد، ولا على ماله، ولا على حرمة، إلا أن يعجز عن الوصول إلى شيء من ذلك، ومتى

¹ محمد الخضر حسين، رسائل الإصلاح، الموسوعة، المجلد 5، مصدر سابق، ص 22

² المصدر السابق، ص 22-23

ساعدته الفرصة، وظن أنه بمأمن من العقوبة، عاث في الأعراض والأموال غير متحرج من انتهاك حرمتها.¹

فالدين والأخلاق أساس قيام المجتمعات كما يقول الشاعر أحمد شوقي:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا

وقال الخضر حسين عنهم: "ولنتخيل أمة مؤلفة من الملاحدة أو كانت الأغلبية فيها للملاحدة وننظر كيف تكون سيرتها، وماذا تكون عاقبتها في هذه الحياة؟ لا شك أنها تسير في غير طريق، وتكون عاقبتها السقوط إلى الحضيض، إذ أن الملاحدة يبيحون موبقة الزنا وما يضاهاها من الفواحش ويبيحون الخمر، ولا يتحرجون أن يضموا إليهم أموال غيرهم بغير حق"².

وهذا ما حدث في الأمة الإسلامية زمن الخضر حسين، فقد انتشر الإلحاد. وبانتشاره سقطت الأخلاق وتهاوت القيم.

أسباب ظهور الإلحاد:

يرى الخضر حسين أن ظهور الإلحاد يرجع إلى أربعة أسباب هي:

- 1- سنُّ الحكومات قوانين دستورية تدعو الملحدين إلى إعلان إلحادهم دون خوف.
- 2- تفریط الكثير من علماء الدين في الغيرة على الحق بمودتهم للملحدين.
- 3- تمكين من لم يتلقَّ علوم الدين من مناصب عليا في الحكومة، فيجد الجاحدون لديهم حضوة مع جرائتهم على الطعن في الشريعة.
- 4- انخراط بعض الملاحدة في الحركات الوطنية، وخذاعهم الناس بالغيرة على الوطن، وبحيازتهم الزعامة نشروا الإلحاد بين من يتصل بهم.

¹ / محمد الخضر حسين، رسائل الإصلاح، الموسوعة، المجلد 5، مصدر سابق، ص 23.

² / المصدر السابق، ص 23.

طرق العلاج:

لخص محمد الخضر حسين سبل العلاج في تظافر جهود الدولة، وجهود علماء الدين، بالإضافة إلى الدور الأساس للأسرة والتربية الحسنة، باعتبار أنّ الأسرة نواة المجتمع، وقد قال في هذا " متى قيّض الله للحكومات الإسلامية رجالاً يقدرّون فضل الدين، في إصلاح حال الأفراد والجماعات، وفضله في إخراج رجال يطمحون إلى العزة، ويقتحمون كل ما يعترضهم في سبيلها من عقبات، وفضله في بسط الأمن في البلاد، متى قدر أولو الأمر فضل الدين، ومتى تظافر علماء الشريعة على الدعوة إلى الحق بحكمة، وعلى مكافحة الزائغين بالحجة، ظهرت الأمة من خبث الإلحاد، وبلغت أقصى غايات المجد والفلاح"¹

¹ / محمد الخضر حسين، رسائل الإصلاح، الموسوعة، المجلد5، مصدر سابق، ص 25.

المبحث الثاني: الإصلاح الاجتماعي

المطلب الأول: منهج الخضر حسين في إصلاح التعليم - الإصلاح التربوي -

إن المتمعن فيما ترك محمد الخضر حسين من إرث فكري يرى أنه تناول الكثير من القضايا وحاول ان يقومها بما اهتدى إليه، وبما رزقه الله من علم وفهم وكان لميدان التربية والتعليم نصيبه من هذه العناية يستوي في ذلك ما كان يتعلق بمدارس التعليم على اختلاف أطوارها أو ما كان يتعلق بالتعليم الأزهري فهو أحد الشيوخ الذين درسوا في كبريات الجامعات آنذاك " الزيتونة والأزهر".

يرى الخضر أن النهضة لن تكون إلا بالتربية والتعليم، والاستفادة من علوم حضارة اليوم وتقنياتها، مع الاستغناء عن سلبياتها وسقطاتها. يقول: "نود من صميم قلوبنا أن تكون نهضتنا المدنية راسخة البناء، رائعة الطلاء، محمودة العاقبة"¹.

كما أرجع سبب انحطاط المسلمين وتخلفهم عن ركب الحضارة إلى ضعف التعليم، وتهاون العلماء والحكام في الأخذ به، وأكد أن سعادة الأمة الإسلامية لن تتوفر إلا بالتعليم، وأن التوازن الاجتماعي والسياسي لن يحصل إلا به، وأنه يصعب على القادة تحقيق هذا التوازن إذا كانت الأمة جاهلة؛ لأنه "يصعب على قادتها متى أرادوا توجيهها نحو الحياة الصالحة أن يجدها لينة القيادة خفيفة"².

وقد شخّص محمد الخضر حسين واقع التعليم في زمنه، ووصفه بالضعيف والمنحرف في مناهجه، وهو ما عبّر عنه بقوله: "فلو قلبت نظرك في السنين الماضية، وصعدت به الى عهد غير قريب، رأيت المعاهد العلمية إنما تنبت في العصر الواحد الرجل أو الرجلين، وعلة هذا ما طرأ على أسلوب التعليم من العوج الذي يقف بالأفكار في دائرة

¹ / محمد الخضر حسين، كتابات حول محمد الخضر حسين، الموسوعة، مجلد 14، مصدر سابق، ص 171.

² / المصدر السابق، ص 171.

ضيقة، ويحرمها من أن تتمتع بنعمة استقلالها"¹.

1/ نقائص التعليم في نظر الخضر حسين

ذكر الخضر عددا من النقائص في التعليم شملت في مجملها الآتي:

● **ضآلة المحتوى في التعليم الديني:** تحدث الخضر عن كون المعلومات المقررة في برامج التعليم هزيلة وقليلة ولا تستجيب لحاجيات التلميذ، وقد عبّر عن ذلك بقوله: "من دواعي الأسف والأسى أن التعليم الديني الحاضر في المدارس يكاد يكون اسما بلا مسمى، أو جسما من غير روح، إذ هو عبارة عن معلومات هزيلة ضئيلة لا تشبع حاجة التلميذ، ولا تتناول تنفيذ الشبهات الطارئة عليه، ولا تفضح أمامه كثيرا من البدع والخرافات المحيطة من حوله، ولذلك فإن تعليم الدين على الوجه الموجود لا يترك أثرا في نفس التلميذ وأخلاقه، وأفكاره ولا في مظاهره وأعماله"².

● **عدم اعتبار التعليم الديني مادة أساسية:** أشار الخضر أن التعليم الديني في جميع برامج التعليم في البلدان الإسلامية التي وقع استعمارها لا يعتبر من المواد الأساسية، ويدخل في ذلك الهدف الأساس للمستعمر وهو تحقير شأن الدين، وتواصل هذا الوضع مع الحكومات المستقلة، وقد أكد ذلك بقوله: "فإن الوزارة سلكت بالتعليم الديني مسلك الألعاب الرياضية فجعلته مادة إضافية لا يحاسب التلميذ عليها، ولا يمتحن فيها، ولا وزن له في نجاحه أو رسوبه، ولا فرق بينه وبين الألعاب إلا أن الألعاب محبوبة الى التلميذ بداع من طبيعته وميوله، أما الدرس الديني فمبغض إليه بدافع من هواه ومجونه"³.

¹ محمد الخضر حسين، الدعوى إلى الإصلاح، الموسوعة، المجلد 05، مصدر سابق، ص180.

² المصدر السابق، 186.

³ المصدر نفسه، ص186.

• **الاقتصار في التعليم على بعض المستويات دون غيرها:** تحدث الخضر عن أهم جوانب النقص في برامج التعليم في البلدان الإسلامية، وهو تدريس العلوم الدينية في المدارس الابتدائية، والتي تستمر في بقية المراحل إلا بنسب ضئيلة، حيث قال: "وزاد الطين بلة أن تقرر هذه المادة الحيوية على صغار التلاميذ دون كبارهم، ففرضت على القسم الابتدائي، وصدر من القسم الثانوي، حتى إذا بلغ التلميذ أشده واستوى وصار في السنة الثالثة الثانوية، وما بعدها من بقية الثانوي، وجميع العالي، هناك لا ينوق لدينه طعاماً، ولا يعرف لإسلامه هداية، على حين أنه في هذا الدور من السن والوسط والتفكير أمس الحاجة إلى التدرج بتعاليم الإسلام، فإن دور المراهقة بإجماع آراء المربين، وهو أخطر الأدوار على الفتى أو الفتاة وأشدّها احتياجاً إلى تقوية الوازع الخلقي، وتربية الضمير الأدبي، لمكان ثورة الشباب، وطغيان الشهوة وغاية الهوى في هذه المرحلة الطاغية في حياة الإنسان، ومما لا ريب فيه أنه لا قوة تعدل الدين في تقوية الوازع وإيقاظ الضمير".¹

• **عدم الاهتمام بدراسة التاريخ الإسلامي وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وعلماء الأمة:**

يقول الخضر حسين في ذلك: "وإن تعجب فعجب أن تجد التلميذ المسلم لا يعرف من تاريخ نبيه بقدر ما يعرف من تاريخ نابليون مثلاً ولا يدرك من سيرة عظماء الإسلام وأبطاله على نحو ما يدرك من سيرة مشاهير الغرب ورجاله....".²

كما يقول: "فمؤلفات التاريخ في المدارس آنذاك تقدم إلى أولادنا سيرة المشهورين من الأجانب في أسلوب فياض رائع وبلغة جذابة ممتعة، بينما هي لا تتكلم عن عظماء الإسلام إلا لمأماً في ثنايا التاريخ العام، وبلغة قاصرة جافة، لا تستهوي الشخص ولا

¹ / محمد الخضر حسين، الدعوى إلى الإصلاح، الموسوعة، المجلد 05، مصدر سابق، ص187.

² / المصدر السابق، ص188.

تمتع النفس ولا تثير في الطالب ما تستحقه من الإعجاب والإكبار"¹.

● **قلة العناية بالقرآن الكريم:** يرى الخضر أن مادة القرآن الكريم قلت العناية بها، فأصبحت المدارس لا يتخرج فيها من الحفاظ مثل من كانوا يتخرجون من قبل، إذ كثرة في العدد، ولا جودة في الأداء.²

● **اهمال التربية الدينية:** تحدث الخضر عن إنعدام الرقابة الدينية على التلاميذ في سلوكهم ولباسهم وهو ما عبّر عنه بقوله: "ومما هو جدير بالنظر أن ليس في مدارسنا رقابة دينية تهيمن على التلاميذ في أعمالهم وأحوالهم، ولا في أفكارهم ومظاهرهم، فليس ثمة عقوبة مفروضة على من ظهر بأفكار كافرة أو ملحدة، ولا على من قصر في صلاة وهو في المدرسة، ولا على من أفطر في رمضان مع الاستطاعة، ولا على من لوحظ عليه أو عليها رذيلة أو سلوك غير شريف".³

وقد نبّه الخضر إلى أنّ ذلك أحد أساليب الاستعمار ليتمكن من السيطرة على الشعوب وإحداث القطيعة بينها وبين هويتها وأصالتها، والانحراف بالتعليم وإفراغه من محتواه بقوله: "إذا سيطر المستعمر على الشعور والضمان فإن أكبر مساعد له على هذه السيطرة قبضة على زمن التعليم العام، حيث يسير به على منهج يخرج به الناشئ مزلزل للعقيدة، غالبا من سماحة الدين وحكمة التشريع".⁴

● **وجود نوعين متعارضين من التعليم:** ذكر الخضر حسين أن: "بعض أبناء هذه الأمة يتربون تربية دينية في الأزهر المعاهد الدينية، فينطبعون بطابع الإسلام، وتتأثر حياتهم ومشاعرهم به، بينما البعض الآخر من أبناء الأمة وهم الأكثرون، يتربون تربية مدنية فقط في المدارس الأميرية، أو غير الأميرية، فينطبعون بطابع يجافي الدين، وتتأثر

¹ / محمد الخضر حسين: "الدعوة إلى الإصلاح"، المجلد 05، مصدر سابق، ص 211، 212.

² / المصدر السابق، ص 188.

³ / المصدر نفسه، ص 187.

⁴ / المصدر نفسه، ص 201.

بهذا الطابع المجافي حياتهم التفاهم، واشتد التناكر بين طائفة المتعلمين تعلمنا دينيا، والمتعلمين تعلمنا مدنيا".¹

ومن هنا، كان يدعو إلى اصلاح المعاهد الأزهرية وانفتاحها على مختلف العلوم حتى يواكب الأزهر زمانه وحتى يكون المتخرج فيه واعيا بمتطلبات زمانه قادرا على الإجابة عما يقتضيه عصره وهذا أمر يحتاجه طلبة العلم الشرعي، وهي مشكلة المعاهد والجامعات الإسلامية في العصر الحديث، يقول محمد الخضر حسين: "الغرض من المعاهد الدينية: درس العلوم الإسلامية، والعلوم العربية وما يتصل بها من نحو: المنطق والفلسفة والتاريخ، ثم ما تدعو اليه الحاجة من العلوم والفنون الأخرى بمقدار، وإذا سارت دراسة هذه العلوم على طريقة منتظمة، وأسلوب موزون، كان في وسع هذه المعاهد ان تخرج لنا رجالا للقضاء، وأساتذة اللغة العربية وآدابه، وكان في وسعها أن تخرج لنا رجالا يقومون بجانب من إدارة شؤون الأمة، كما يكون في وسعها أن تخرج للناس مرشدين الى الآداب الفاضلة ودعاة الى الدين الحنيف"².

● **نظام العقوبات البدنية القاسية:** انتقد الخضر القسوة في التعامل مع الصبيان، وقد روى شيئا مما شاهده بنفسه عند أحد الشيوخ التقليديين، فيقول: "ذهبت الى الجامع الأزهر لأذان العصر، وانتدبت للتحية مكانا بين مجتمعين لتعليم القرآن، فانشق صدري أسفا لأحد المعلمين، إذ كان لا يضع العصا من يده، ولا يفتر أن يقرع بها جنوب الأطفال وظهورهم بما ملكت يده من قوة، وربما قفز الصبي أبقا من وجع الضرب الذي لا يستطيع له صبورا، فيثب في أثره بخطوات سريعة، ويجلده بالمقرعة جلدا قاسيا، حتى قلت لأزهري بجنبي، من جلس إزاء هذه المزعجات، فقد ظلم نفسه..."³.

¹ / محمد الخضر حسين، الدعوى إلى الإصلاح، الموسوعة، المجلد 5، مصدر سابق، ص 219.

² / محمد الخضر حسين، الهداية الإسلامية، الموسوعة، مجلد 10، مصدر سابق، ص 161، 162.

³ / محمد الخضر حسين: "الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي تونس"، الموسوعة، المجلد 15، ص 109.

كل هذه العيوب والمثالب أدت إلى فساد التعليم، وإفلاس أخلاق الشباب، وهذا ما أشار إليه الخضر بقوله: "... وإن كثيرا من أولادنا وفلذات اكبادنا نرى مصارعهم اللاطمة على قارعة كل طريق، فمنهم ضحايا التضليل والتبشير ومنهم حطب الزندقة والإلحاد، ومنهم ذبائح الانتحار صرعى الخمر، ومنهم فرائس التخنت والبغاء، ومنهم خراب الدور وسوس الأموال، ومنهم نكد الآباء والامهات، وداء المعلمين والمعلمات، أجل هذا شبابنا الذي يتسكع في الشوارع، ويطارد الفتيات من غير حياء ولا خجل، وليتسابق إلى الملاهي والمساخر ويتنافس في التخنت والتهتك ثم ليعبث بعد ذلك بكل مقدس ويحتقر تاريخه وتاريخ أمجاده".¹

2/ أسس إصلاح التعليم عند محمد الخضر حسين

والشيخ محمد الخضر لا يعرض المشكلة فقط بل يعالجها ويقدم الحلول المناسبة لها، حيث عرض الوسائل الإصلاحية لتلك المشكلة وملخصها فيما يلي:

إقرار التعليم الديني مادة أساسية: يدعو الخضر إلى إقرار التعليم الديني أن يكون داخل الجدول لا خارجه، وأن يتوقف عليه نجاح الطالب لا ترتيبه، وأن يفرض لنهايته الصغرى في النجاح درجة كبيرة تشعر التلميذ بخطورة هذه المادة دائما، وتحرك عزمه إلى العناية بها طوال أيام دراسته.²

ولذلك يرى الخضر أن الخطوة الأولى في التكوين الديني للتلميذ هي: "أن ندفع التلميذ دفعا إلى أن ينهل من مناهل الإسلام، والوسيلة الوحيدة، إلى ذلك هي تفرض مادته عليه فرضا يترتب عليه نجاحه ان اقبل ورسوبه ان أهمل".³

¹ / محمد الخضر حسين، الدعوى إلى الإصلاح، الموسوعة، المجلد 05، مصدر سابق، ص 201، 202.

² / المصدر السابق، ص 203.

³ / المصدر نفسه، ص 204.

• **تعميم التعليم الديني في كل دور من أدوار التعليم:** يرى الخضر حسين ضرورة تعميم التعليم الديني في جميع المراحل، من الابتدائي والثانوي والعالى وفي جميع التخصصات لا فرق بين الشعب العلمية والأدبية والتقنية، وهو ما أكده بقوله: " يجب أن يكون تعليم الدين عاما يشمل كل دور من أدوار التعليم لا فرق بين إلزامي وأولي وابتدائي وثانوي، وعال وفني وخصوصي، ولا فرق بين البنين والبنات، ولا بين المدارس والأميرية والأهلية".¹

كما يرى الخضر ضرورة وضع برنامج تراعى فيه الجوانب المكونة لشخصية التلميذ في تفكيره وأخلاقه وسلوكه، وتحميه من الزيغ والبدع والخرافات، ويقع التدرج في هذه المعلومات من المرحلة الابتدائية، حتى يصل إلى بداية التخصص وهي المراحل النهائية من التعليم الثانوي، وابتداء من هذه المرحلة يقع التمييز بين الاختصاصات فيدرج لكل تخصص ما يناسبه من المعلومات، ويكون لها أثر في تكوينه العلمي، وترشيده الفكري والأخلاقي والسلوكي، فنضمن للجميع القدر المشترك من العلوم الدينية على أن يتفاوت هذا القدر من اختصاص لآخر.²

• **تعديل مناهج التعليم تعديلاً يناسب حال التلاميذ:** وقد أشار الخضر إلى ذلك في قوله: " يجب تعديل مناهج التعليم تعديلاً يناسب حال التلاميذ في سنهم وتفكيرهم، وفي نوع دراستهم ومستقبلهم، ويتناول بالبحث جميع الشبهات التي تعرض لهم، ويتعرض للبدع والخرافات، فيقضي عليها أمامهم، ويعني عناية تامة بتهديبهم وردعهم عن كل ما يحيط بهم من فتن، لا سيما وهم في سن المراهقة".³

الجمع بين النظري والعملي: يكون ذلك من خلال الجمع بين التعليم الديني والتربية الدينية، فهو يرمي إلى أن لا يبقى التعليم خالياً من الجانب الديني، وأن لا يبقى الجانب

¹ / محمد الخضر حسين، الدعوى إلى الإصلاح، الموسوعة، المجلد 5، مصدر سابق، ص 190.

² / الطاهر بن سالم، مرجع سابق، ص 226.

³ / محمد الخضر حسين، الدعوى إلى الإصلاح، الموسوعة، المجلد 05، مصدر سابق، ص 190.

النظري منفصلا عن التطبيق، وإنما يجب الجمع بينهما حتى يقع التكامل في بناء الشخصية وتهذيبها ونحت كيائها بما يتماشى وإرشادات الدين الإسلامي، ولذلك نجده يؤكد على ضرورة الالتزام بأداء الصلاة في المدرسة وتهيئة الوسائل اللازمة لإقامتها، ومن قوله في ذلك: "أن يؤدي الجنسان ما يدركهما من الصلوات كل يوم بالمدرسة في جماعة، وأن تهيأ للوسائل اللازمة لإقامة هذا الشعار الإسلامي الفخم الذي هو أول أركان الإسلام بعد الشهادتين، فإن الصلاة درس عملي يتلقاه العبد من مولاه، ومتى أداه على وجهه، تأثر به كل التأثر من إيمانه وإيقانه، وفي أخلاقه وأمياله، وفي استقامته وسلوكه، ويظهر هذا الأثر في حياه العملية واضحا لا يحتاج الى برهان، قال تعالى: [... إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ] (العنكبوت/45)¹

كما يرى ضرورة وجود العقوبة التي تردع الزائع وتقوم المنحرف، وهو ما عبّر عنه بقوله: "وتفرض العقوبة الرادعة على كل من أهان الإسلام بكلمة أو فكرة من الاحاد أو الكفر أو الزندقة، كما تفرض عقوبة زاجرة على كل من قصر في تأدية الصلاة وهو في المدرسة، أو انتهك حرمة الصيام مع الاستطاعة، أو ثبت عليه أن يخادن فتاة، أو يسلك سلوكا شائنا".²

ومن الوسائل التي تعين على الالتزام بالجانب الديني، توحيد اللباس للفتيات داخل المدرسة، وإلزامهن بزي يُراعي فيه الذوق الإسلامي، من تغطية رؤوسهن وحشمة ملابسهن، ولذلك نجده يستتكر كل المظاهر الخليعة والأزياء الماجنة، ويشدد للوزارة على ضرورة التصدي لكل مظاهر الانحلال والانحراف ومن ذلك قوله: "ونعلن استيائنا واستنكارنا لك المظاهر الخليعة والأزياء الماجنة التي تظهر بها بناتنا ومعلماتنا في المدارس... فإن هذا لا يتفق وما عرف عن الإسلام والمسلمات من أدب الحشمة والتصون، وحرام على وزارة

¹ / محمد الخضر حسين، الدعوى إلى الإصلاح، الموسوعة، المجلد 05، مصدر سابق، ص 209.

² / المصدر السابق، ص 190.

المعارف أن تربي أمهات المستقبل على هذا التبذل المنافي للآداب العالية الدينية، والتقاليد الصالحة القومية، فإن ذلك جناية على فلذات الأمة يهون عليهن السقوط في مهاوي الرذيلة ويعرض سمعتهن للتسوء والتهمة ويصيب الفتاة في الصميم من عفافها وحيائها، ثم يزعزع الثقة بها، ومن ثم تنتشر العزوبة ويندر الزواج، ويظهر الفساد في البر والبحر، وتصاب الأمة بالعقم وقلة النسل، وتفشو الأمراض السرية والحوادث الاجرامية على نحو ما نرى ونسمع".¹

• **العناية بدراسة التاريخ الإسلامي:** يشدد الخضر على إعطاء التاريخ الإسلامي قيمته في برامج التعليم، وأن يكون مادة أساسية، وأن تكون لعظماء الإسلام مكانتهم لنحافظ على التواصل بين الشباب وتاريخهم، وفي ذلك قوله: "فلتتدرك الوزارة الصالحة هذه الطامة، ولتعمل من الآن على العناية بدراسة العظماء والعظيمات في الإسلام، ولتهتم اهتماما ممتازا بسيرة الرسول الأكرم ρ ، فإن الحياة الفاضلة الشريفة، والأخلاق العالية المشرقة والآمال القومية العزيزة، كل أولئك لا يمكن أن ندركه الا من وراء هذه الدراسات الخصبة العليا التي ملأ أصحابها آفاق العالم بالهدى والرحمة، والعلم والحكمة والسلام والإسلام".²

كما نجده في ديوانه "خواطر الحياة" ينهج الطريق نفسه فيبرز قيمة الرسول عليه الصلاة والسلام ورسالته في تغيير حال العالم وتأثيره في الإنسانية، وفي ذلك يقول³:

حي ذاك البدر بالزهر النظيم واملأ الجفن بمراة الوسيم
إنه يحكي محيا المصطفى إذ بدا بين المصلى والحطيم
إن تكن يا بدر تزهو بسنا يرشد الساري في الليل البهيم
فسنا أحمد يهدي أمما ويريهها سنن العز المقيم

¹ / محمد الخضر حسين، الدعوى إلى الإصلاح، الموسوعة، المجلد 5، مصدر سابق، ص 208.

² / المصدر السابق، ص 211، 212.

³ / محمد الخضر حسين: "ديوان خواطر الحياة"، الموسوعة، المجلد 07، ص 193.

هل رأى الناس كتابا عجا
ويح قوم سحرت أعينهم
غرقوا في لهوها واتخذوا من
صاحب الروضة في طيبة نم
إن في الشرق رجالا نهضوا
لا يبألون إذا ما جاهدوا
قدس الله ثرى قبرك ما
وأقام العلم آيات على

مثل ما يتلى من الذكر الحكيم؟
هذه الدنيا بمرعاها الوخيم
موالاة الهوى أشقى نديم
أما طغيان ذا الخطب الجسيم
يقرعون الخطب بالعزم الصميم
غضب الغاشم أو كيد اللئيم
نفح القرآن بالهدى العميم
إنه تنزيل خلاق حكيم

وعلى هذا الأساس، يرى ضرورة اختيار الكفاءة المؤمنة بعظمة الإسلام وعظمة رجاله، فمن سوء التصرف أن تسند هذه المهمة إلى من لا يعتقدون عظمة الإسلام فيشوهوا ولا يصدقوا ويحرفوا ولا يعدلوا، ومن ذلك قوله: "أن تسند دراسة الإسلام وتاريخه وأبطاله إلى أساتذة مسلمين أخصائيين مؤمنين بعظمة الإسلام، ومن العبث والعار أن تسند دراسة شيء من هذا ولو في ثنايا تاريخ العام، إلى أساتذة لا يدينون بعظمتهم، لأن ذلك مؤذ لشعور المسلمين، وجارح لكرامتهم ثم أن فاقد الشيء لا يعطيه".¹

كما يرى وجوب إسناد تسيير المؤسسات التعليمية إلى مشرفين صادقين، فهم الذين يسهرون على حسن تطبيق البرامج ورعاية التلاميذ وتوجيههم، ومن ذلك قوله: "ولهذا المعنى أيضا نطلب الا تسند نظارة المدارس الى غير المسلمين، فإن ناظر المدرسة هو الرأس المدبر لها، وليس بمعقول أن يخلص في رعاية تعليم دين لا يدين به... كيف نرضى نحن بتعيين نظار غير مسلمين يديرون دراسة الإسلام فيما يديرون؟ ألا إن هذا بعيد كل البعد عن مصلحة التعليم نفسه، كما أنه مناف لروح الدستور الذي ينص على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام".²

¹ / محمد الخضر حسين، الدعوى إلى الإصلاح، الموسوعة، المجلد 05، مصدر سابق، ص 212.

² / المصدر السابق، ص 212، 213

المطلب الثاني: المرأة في فكر محمد الخضر حسين

شغلت المرأة حيزا لا بأس به من اهتمامات الشيخ محمد الخضر حسين، حيث ركز على قضية الحجاب والسفور، وألزم المرأة بما دعا إليه الشرع الإسلامي في اللباس، كما دعا إلى ضرورة الاعتماد على ميدان التعليم لتحرير المرأة من جهلها وذلك في حدود الأخلاق الإسلامية التي ترفض الاختلاط بين الجنسين بغية بناء المجتمع السليم، وفيما يلي تفصيل ذلك:

• المرأة والتعليم

يرى الخضر حسين أن من حق المرأة طلب العلم والارتقاء في ذلك إلى أقصى الغايات، إلا أن طلبها العلمَ مشروط بعدم الاختلاط الذي من شأنه إحداث الفتنة وهتك الأعراض، وفي ذلك يقول: " نحن لا نعارض في تعليم المرأة ولا في استمرارها على التعليم إلى أبعد مدى ولكننا نريد الاحتفاظ بأساس كمالها والصيانة ونقاء العرض"¹.

فهو يعتبر الاختلاط نتيجة لتقليد الغرب ويدعو إلى التصدي له وحماية المجتمع منه، وفي ذلك يقول: "إذا كان اختلاط الجنسين من قبيل التطور الاجتماعي، فهو من نوع ما ينشأ عن تغلب الأهواء وتقليد الغربيين في غير مصلحة، فيتعين على دعاة الإصلاح أن يجهروا بإنكاره، ويعملوا على تنقية المجتمع من أقدائه، ومتى قويت عزائمهم، وجاهدوه من طريقه الحكمة أმაظوا أذاه وغلبوه على أمره"².

لذلك يصدر الخضر حكما بتحريم اختلاط الجنسين وهو ما عبّر عنه بـ: "إن الشريعة الإسلامية تحرم اختلاط المرأة بالرجال"³، فهو يرى أن الدين يحرم الاختلاط على النحو الموجود في الجامعة، يقول في ذلك: "وتحريم الدين لاختلاط الجنسين على النحو الذي

¹ محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة، المجلد 04، مصدر سابق، ص197.

² المصدر السابق، ص196.

³ محمد الخضر حسين: "أحاديث في رحاب الأزهر"، الموسوعة، المجلد 10، ص48.

يقع في الجامعة معروف لدى عامة المسلمين، كما عرفه الخاصة من علمائهم، وأدلة المنع واردة في الكتاب والسنة وسيرة السلف الذي عرفوا لباب الدين وكانوا على بصيرة من حكمته السامية، يقول تعالى: [قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ] (النور/30) ويقول: [(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ...)] (النور/31)، ومعنى غض البصر، صرفه عن النظر الذي هو وسيلة الفتنة، والوقوع في الفساد، ومن ذا الذي يجمع الفتیان والفتيات في غرفة وينتظر من هؤلاء وهؤلاء أن يصرفوا أبصارهم عن النظر، ولا يتبعوا النظرة بأخواتها؟ وهل يستطيع أحد صادق أن يقول: "إن هؤلاء المؤمنین والمؤمنات يحتفظون بأدب غض أبصارهم من حين الالتقاء بين جدران الجامعة الى أن ينفضوا من حولها".¹

وعلى هذا الأساس، يدعو الخضر الى طلب المرأة العلم في علوم ومنعها من أخرى بسبب الاختلاط، وفي ذلك يقول: "...ونحن لا نعارض في تعليم المرأة ولا في استمرارها على التعليم على أبعد مدى، ولكننا نريد الاحتفاظ بأساس كمالها، وهو الصيانة ونقاء العرض، ولاشك في أن اختلاطها بالفتیان وسيلة قريبة الى هدم ذلك الأساس... فللمرأة أن تطلب من العلوم ما وسعها أن تطلبه ولكن على أساس الصيانة، فإن كان طلبها لبعض العلوم يعرض هذا الأساس للانتقاص فلتكتف بما وصلت اليه يدها من علم، وفي الرجال كفاية للقضاء والمحاماة وعضوية مجلس النواب الى ما يشابه هذا من الأعمال التي لو تولتها المرأة لانجرت ببيعة العمل الى عاقبة سيئة هي الاختلاط بالرجال".²

فمن الواضح أن الخضر حسين يحاول دفع المرأة إلى أنواع من العلوم دون غيرها وهي العلوم التي تساعد على القيام بواجباتها الأساسية في الحياة وهي تدبير المنزل ورعاية الزوج وتربية الولد، وهو ما عبر عنه صراحة بقوله: "وأن يكون في فتياتنا حشمة

¹ محمد الخضر الحسين: "محاضرات إسلامية"، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص190.

² المصدر السابق، ص 197، 198.

وصيانة وعلم يساعدهن على تأدية واجبتهن في الحياة من نحو تدبير المنزل والقيام على تربية الولد".¹

• لباس المرأة

حسَمَ الخضر موقفه في لباس المرأة من الآيات والأحاديث، وقد ذكر أن: "المرأة المسلمة لا يجوز لها أن تظهر لغير محارمها الا بمثل ما تكون عليه في صلاتها، هذا هو الدين... ولا ينبغي لها أن تظهر في خارج بيتها ولا ببيتها ولا مع غير محرم لها إلا بثوب سابغ لا ينم عن شيء من أعضاء الجسم وأن تتصور دائماً أن الله يراها في جميع أحوالها كما يراها وهي في صلاتها"²

وقد اعتمد في تعريف للجلباب على قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ...] (الأحزاب/59)، وعرفَ الجلباب بأنه: "الثوب الذي يستر المرأة من فوق الى أسفل، أو كل ثوب تلبسه المرأة فوق ثيابها، وإدناؤه عليهن بمعنى ارخاؤه عليهن"³.

• حقوق المرأة وواجباتها الزوجية

ذكر الخضر حسين أن للنساء حقوقاً، إذ لهنَّ مثل ما للرجال من حقوق، والمماثلة تكون بين حقوقهما في الوجوب، لا في جنس الحق؛ إذ يجب على أحد الزوجين من جنس الحق ما لا يجب على الآخر، والدرجة تثبت للرجل من جهة رعايته للمرأة بالولاية، والإنفاق عليها، فمن حقوق المرأة المهر، وهو المال الذي تطلبه الزوجة من الزوج، ويتفقان عليه، ولا يجوز للزوج أن ينقص منه شيئاً، وجاءت هذه الحقوق بعبارة عامة في

¹ محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة، المجلد 4، مصدر سابق، ص 198.

² المصدر السابق، ص 197.

³ المصدر نفسه، ص 191.

قوله تعالى: [وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْبِرُّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْكُمْ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] (البقرة/228)¹

ومن حقوق الزوج أن تكون عصمة الزوجة بيده، فيمسكها بالمعروف، أو يسرحها بإحسان، وقد أمره الشارع بمعاشرتها بالمعروف، فقال تعالى: [وَمَا شَرُّهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ] (النساء/19)²، ومن حقه أيضا أن يبتغي الثقافة في زوجته؛ لأن الثقافة تعينها على تدبير المنزل، وتربية الولد تربية صحيحة³.

"ولقدرة الرجال على اكتساب المال من طرق لا يقدر عليها النساء، أو لا ينبغي لهن مباشرتها، فرض الشارع على الرجل نفقة الزوجية، ويرجع تقديرها إلى ما يتراضيان عليه، فإن لم يتراضيا على مقدار النفقة، أو کیفیتها، قررها أولو الأمر بما يقتضيه حال المرأة، وحال الزوج في يسر وعسر... على الرجل حق الإنفاق بالمعروف، وعلى الزوجة تدبير شؤون المنزل، وأن تراعي حال زوجها المالية، فلا تكلفه فوق ما يطيق، وأن ترعى الولد بالتربية البدنية والروحية"⁴.

وقد نبه الشارع الحكيم إلى مداراة المرأة، إذا أخلت بشيء من واجبات الزوجية في دائرة الصون والحصانة، فقال-عليه الصلاة والسلام-: "واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن خلقن من ضلع أعوج، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمته، كسرتة، وإن تركته، لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرا"⁵.

فالحديث الشريف يعلم الرجل كيف يسلك في سياسة الزوجة طريق الرفق والأناة، فلا يشتد ويبالغ في ردها عن بعض آرائها التي بها عوج؛ فإن ذلك قد يفضي إلى الفراق؛ كما

¹ محمد الخضر حسين، دراسات في الشريعة الإسلامية، الموسوعة، المجلد 02، مصدر سابق، ص 109.

² المصدر السابق، ص 110.

³ المصدر نفسه، ص 111.

⁴ محمد الخضر حسين، الهداية الإسلامية، الموسوعة، المجلد 10، مصدر سابق، ص 62.

⁵ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الرضاع، باب: الوصية بالنساء، الجزء رقم: 4، الصفحة رقم: 178-1468(60).

أنه لا يتركها وشأنها؛ فإن الإغضاء عن العوج مدعاة لاستمراره، أو تزايد، والعوج المستمر أو المتزايد قد يكون شؤماً على المعاشرة، فتصير إلى عاقبة مكروهة¹.

أما عن موضوع تعدد الزوجات، فقد تحدث الخضر عن إباحة الإسلام للرجل الجمع بين أربع نسوة فما دونهن، وشرط لهذا الجمع العدل بينهن، قال تعالى: [فَإِنْ خِفْتُهُ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً] (النساء/03)، والمعنى: أنه لا يحل للإنسان التزوج بأكثر من واحدة إلا إذا وثق من نفسه بالعدل بينهن، والعدل: التسوية بينهن في المبيت، والنفقة، ولكل واحدة من الزوجين الحق في أن لا تسكن بالمنزل الذي تقيم فيه الأخرى².

والخضر الحسين _ بعقلية المجتهد المجدد _ مثلما يقر بحق الرجل في تعدد الزوجات فإنه يعطي المرأة الحق في أن تشترط على زوجها عدم الزواج عليها، " على أن الإسلام لم يسد على المرأة باب الاقتران بزوج تتفرد بالعيش معه، متى شاءت ذلك، فلو أخذت على الرجل عند عقد نكاحها أنه إن تزوج عليها، فأمرها أو أمر الداخلة عليها في يدها، كان هذا الشرط نافذاً، ولها إن تزوج بعدها، أن تطلق نفسها أو تطلق الزوج الثانية عملاً بهذا الشرط"³.

وخلاصة حكمه أنّ ما أباحه الله فلحكمة ظاهرة أو خفية ولا يجوز لأي كائن أن يحرمه، لأن في تحريمه معارضة لحكم الله: " فالأمر من قبيل ما يعرفه المسلمون بالضرورة، وحكم ينص عليه القرآن والسنة الصحيحة، ويجري عليه عمل الصحابة والتابعين، لا ينبغي لمسلم أن ينكره، أو يترك نفسه تتردد في حكمته، ولا يجوز لذي قوة أن يمنع من تعدد الزوجات بإصدار قانون عام، فإن فعل فهو حاكم بغير ما أنزل الله،

¹ / محمد الخضر حسين، الهداية الإسلامية، الموسوعة، المجلد 10، مصدر سابق، ص 63.

² / محمد الخضر حسين، الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، الموسوعة، المجلد 04، مصدر سابق، ص 252.

³ / المصدر السابق، ص 252.

ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون".¹

• عمل المرأة

يصنّف الخضر حسين الأعمال التي يمكن المرأة مباشرتها داخل المجتمع حسب الشريعة الإسلامية الى صنفين:

○ الأعمال التي تدخل ضمن الولاية الخاصة

أباحّت الشريعة الإسلامية للمرأة مزاولتها جميعها وساوتها في ذلك مع الرجل: " إذ جعلت لها حق التصرف في أموالها بالبيع والهيبة والرهن والاجازة وغير ذلك من مختلف ضروب التصرفات، وأجازت لها الوصاية على الصغار والولاية على المال والنظارة على الأوقاف".² وعلى المرأة الالتزام بالمنهج الذي رسمته لها الشريعة الإسلامية وعدم الخروج عن حدوده وضوابطه، لأن في هذا المنهج مراعاة لمؤهلات المرأة وكيفية تكوينها فيما تصلح له من أعمال تتحقق بها مصلحتها ومصلحة المجتمع والإنسانية عامة، وكل خروج عن هذا المنهج يؤدي إلى الإفساد، وهو ما يجب التصدي له بكل الطرق للمحافظة على سلامة المجتمع³، ذلك أن: " وظيفة المرأة الأولى أن تكون أما، وأن تكون ربة بيت، وقد أبيع لها ان تمارس الوظائف التي تتمشى مع طبيعتها، فإذا هي أرادت أن تتعدها فإنما تكون قد خرجت عن الطريق التي رسمت لها، والتي تنفق مع طبيعة تكوينها وفي مضرة بها بالمجتمع وشر بالإنسانية جمعاء يجب أن نتكاتف على دفعه والله الموفق"⁴.

○ الأعمال التي تدخل ضمن الولاية العامة

تشمل تشريع القوانين والفصل في الخصومات وتقرير الأحكام، وتولي المهام السياسية

¹ / محمد الخضر حسين، الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، الموسوعة، المجلد 4، مصدر سابق، ص 256.

² / محمد الخضر حسين، أحاديث في رجب الأزهر، الموسوعة، المجلد 10، مصدر سابق، ص 50.

³ / الطاهر بن سالم، مرجع سابق، ص 241.

⁴ / محمد الخضر حسين، أحاديث في رجب الأزهر، الموسوعة، المجلد 10، مصدر سابق، ص 54.

بأنواعها كعضوية مجلس النواب وغيرها من وظائف الدولة، فيحرم على المرأة ممارستها شرعا وباتفاق جميع المذاهب¹، وهو ما يؤكد بقوله: "أن المرأة لا يجوز لها أن تباشر عملا من أعمال الولاية العامة مطلقا"².

وينفي الخضر سبب تحريم هذه الأعمال على المرأة لنقص في عقلها أو لقلّة ذكائها وفطنتها، وفي ذلك يقول: "وواضح أن الأنوثة ليس من مقتضاها الطبيعي عدم العلم والمعرفة، ولا عدم الذكاء والفطنة حتى يكون شيء من ذلك هو العلة، لأن الواقع يدل على أن للمرأة علما وقدرة على أن تعلم كالرجل، وعلى أن لها ذكاء وفطنة كالرجل، بل قد تفوق الرجل في العلم والذكاء والفهم"³.

ولكنه يرجع ذلك إلى تركيبها الجسدية وهو ما وضّحه بقوله: "إن المرأة بمقتضى الخلق والتكوين مطبوعة على غرائز تتاسب المهمة التي خلقت لأجلها، وهي مهمة الأمومة وحضانة النشء وتربيته، وهذه جعلتها ذات تأثير خاص بدواعي العاطفة وهي مع هذا تعرض لها عوارض طبيعية تتكرر عليها في الأشهر والأعوام من شأنها أن تضعف قدرتها المعنوية وتوهن من عزيمتها في تكوين الرأي والتمسك به، والقدرة على الكفاح والمقاومة في سبيله، وهذا شأن لا تتكره المرأة من نفسها"⁴.

المطلب الثالث: موقف الخضر من تقليد الغرب

حاول محمد الخضر تنفيذ أحد القوانين الاجتماعية التي تسير عليها أغلب الأمم الضعيفة في انقيادها للأمم القوية، كما سعى إلى تقديم مجموعة من الضوابط في علاقة الأمة الإسلامية بالغرب، ومدى إمكانية سلامتها من الانقياد التام نظرا لخصوصيتها الحضارية وفيما يلي تفصيل ذلك:

¹ / الطاهر بن سالم، مرجع سابق، ص 241.

² / محمد الخضر حسين، أحاديث في رحاب الأزهر، الموسوعة، مجلد 10، مصدر سابق، ص 54.

³ / المصدر السابق، ص 52.

⁴ / محمد الخضر حسين، أحاديث في رحاب الأزهر، الموسوعة، مجلد 10، مصدر سابق، ص 52.

انطلق الخضر حسين من أقوال ابن خلدون: "في أن المغلوب مولع أبدا بالاعتداء بالغالب في شعاره وزيه، ونحلته وسائر عوائده وأحواله" وأورد من كلامه: "ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب في ملبسه مركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله".¹

ولكن الخضر حسين يرى أنه بالإمكان أن تسلم الأمم الضعيفة من الانقياد الكامل للأمم الغالبة، إذا توافر لها زعماء يحسنون قيادتها وسياسة أمرها، وقد عبّر عن ذلك بقوله: "فيمكن لزعماء الأمة الضعيفة أن يعالجوا العلة، فتسلم الأمة من هذه الطبيعة، ويمكنها أن تتحفظ من الاعتداء بالغالب، إلا فيما كان من وسائل الرقي والسيادة".²

وبالتالي فهي تأخذ من الأمم الغالبة لها علومها ووسائل رقيها من معارف وصنائع مع الاحتفاظ بمقوماتها القومية والدينية، "فإذا قيض الله للأمة رجالا يعالجون ما عساه أن يطغى في صدرها من تعظيم شأن الغالب، أو يوقظونها إلى ما تغالط به من أن غلب الغالب بما انتحله من المذاهب والعوائد، أنقذوها من حماية التقليد الذي تتجرد به من الآداب الدينية والمميزات القومية"³

ولا ينبع رأي الخضر عن فكر منغلق وتوجه متفوق على ذاته، فهو لم يكن جامدا في حياته، بل كان موسوعي المعارف والعلوم، ورحالة إلى الكثير من البلدان، ومن بينها أوروبا، وقد وصف ذلك بقوله: "ولقد جسنا خلال أوروبا كما جاسوا، فرأينا: صفوا وكذرا ونظاما وخللا، وأدبا وسفها وتدينا والحادا، فما بال هؤلاء الأفراد يكتمون الحقائق ويقولون، كل ما في البلاد الأجنبية نظام ومدنية راقية"⁴.

¹ / محمد الخضر حسين، رسائل الإصلاح، الموسوعة، المجلد 05، مصدر سابق، ص244.

² / المصدر السابق، ص244.

³ / المصدر نفسه، ص245.

⁴ / محمد الخضر حسين: الدعوة إلى الإصلاح، الموسوعة، المجلد 5، ص174.

ولكنه يرفض التقليد الأعمى لمجرد أن تلك الأمة قوية، فقد يكون في خصالها وعاداتها ما لا يناسب المغلوب في بيئته ومحيطه، فالنقص سمة بشرية تعترى الضعيف والقوي، ولا بد أن يتخير المسلم ما يأخذه عن الأجنبي، وهذا ما ورد في قوله: "...وليس على وجه المعمورة اليوم أمة استوفت خصال الكمال، وبلغت في رقيها المدني أن يفتح الناقد الأعمى فيها عينه، فلا يرى إلا أعمالا مرضية، أو عادات مقبولة، فإذا وجد في الأفراد من يفضل ببرائته من العيوب جملة، فإن الأمم تفضل بغلبة خيرها على شرها، ورجحان محامدها على مذامها، وإذا وجد في الأفراد من يأذن لك أساتذة التربية في أن تقتدي بسيرته على الاطلاق، فليس في الأمم أمة يقول الرجل الحكيم لشعبه الناهض: خض خوضها في كل واد، وشابها مشابهة الغراب للغراب"¹.

فالتقليد الأعمى لهذه الأمم يعود على الأمم الضعيفة بالسلب بدل الايجاب وبالضرر بدل المنفعة التي كان أصحابها يريدونها: "هذه حقيقة قد تغيب عن أذهان فئة من الشعوب الآخذة في النهوض، فإذا رأوا أمة ذات معارف وسطوة، تهافتوا على محاكتها في غير تدبر واحتراس، وربما سبقوا الى ما يعد من سقط متاعها، ومستهجن عاداتها، فصبوا همهم في تقليدها فيه، فزادوا شعبهم وهنا على وهن، وكانوا كالعثرات تعترضه، فتعوقه عن السير، أو تجعل سيره في الأقل بطيئة... ومتى كثر في الشعب أمثال هؤلاء الذين لا يميزون في محاكاتهم السيئة من الحسنة، فقد الشعب هدايته الدينية، وتجرد من مميزاته القومية، ولا يفلح شعب نكث يده من الدين الحق، ولا يعتر شعب نظر الى قوميته بازدراء"².

وعلى هذا الأساس، اقترح الخضر مجموعة من الضوابط في مسألة محاكاة الأجانب، تخضع لأقسام الحكم الشرعي، فمنها ما هو مباح، ولكن هذه الإباحة قد تنتقل إلى مندوب، والمندوب قد يصير واجبا بحسب المصلحة المتعلقة به، وكذلك قد ينتقل المكروه إلى محرم بقدر ما يجلبه من مضرة، ويمكن توضيح ذلك كما يلي:

¹ / محمد الخضر حسين: رسائل الإصلاح، الموسوعة، المجلد 5، مصدر سابق، ص 243.

² / المصدر السابق، ص 243.

• محاکاتهم فيما يشتمل على مصلحة دنيوية ولا يخالف حكما شرعيا أو أدبا دينيا:

قسّم محمد الخضر هذا النوع من المحاکاة إلى فئتين مادية ومعنوية:

○ فالأولى تشمل مجاراتهم العلوم والصنائع والنظم الإدارية: ومن شواهد هذا ما فعله

النبي عليه الصلاة والسلام، من حفر الخندق حول المدينة المنورة، وقد أشار به

سلمان الفارسي، وهو من مكائد الفرس في حروبها، وفي أوروبا اليوم نظم ادارية نزلها

بقاعدة رعاية المصالح، فنرى اجراءها في بلادنا من قبيل اصلاح الادارة¹.

فمن الواجب شرعا أن نأخذ ما يحقق قوتنا من المعارف والصنائع والعلوم، وهذا ما

يؤكد في قوله: " وإنما يحسن فيما سبقونا إليه من الأشياء المادية، كالهاتف والبرق

والأسلحة والطائرات والغواصات والإذاعة"².

وإذا كان المسلمون في حالة ضعف وتأخر فإن الأخذ بهذه العلوم يصير واجبا دينيا، لأن

أهم واجبات المسلمين أن يكونوا في الصدارة من العالم، وأن يكونوا قادة الأمم إلى الرقي

والحضارة، ولا يتم ذلك إلا باكتساب العلوم وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب³.

○ الثانية تشمل الفضائل والأخلاق: ذكر محمد الخضر أن الاسلام قد دعا إلى مكارم

الأخلاق وكل الفضائل التي من شأنها زيادة رفعة المسلمين وتقدمهم مثل الإقدام والصبر

وغيرها، وفي هذا الشأن يقول: " ولا أسوق في هذا الوجه محاکاتهم في بعض أخلاق

انتظمت بها مدينتهم، وارتفعت بها على كثير من البلاد درايتهم، كالصبر على المكاره،

والاقدام على العظائم، وقوة رابطة الاتحاد والتعاون بين افرادهم وجماعاتهم، فإن الاسلام

قد ارشد الى جميع الاخلاق التي تزدهر بها المدنية، وتستحكم بها عرا السيادة، فإذا

¹ / محمد الخضر حسين: رسائل الإصلاح، الموسوعة، المجلد 5، مصدر سابق، ص 245، 246.

² / محمد الخضر حسين: دراسات في الشريعة الإسلامية، الموسوعة، المجلد 02، مصدر سابق، ص 69.

³ / الطاهر بن سالم، مرجع سابق، ص 256.

ظهر المسلمون بخلق عظيم، فإنما يقتبسونه من حكمة دينهم، وسيرة عظمائهم"¹.

• محاكاتهم في شيء من شعائر دينهم:

يرجع ذلك إلى حملات التبشير التي قام بها الأجانب إضافة إلى عمل المستشرقين وأتباعهم، فكان من نتائجه جيل من الملاحدة يغردون باسم الغرب ويتغنون به في جميع المجالات، وهذا محرم شرعا، وقد أورد الخضر مثلا على ذلك في قوله: "وقد وصل ببعضهم الشغف بالانحطاط في هوى الاجانب، والانغماس في التشبه بهم، أن اقترح في غير خجل قلب هيئة المساجد الى هيئة كنائس، وتغيير الصلوات ذات القيام والركوع والسجود الى حال الصلوات التي تؤدي الى الكنائس"².

كما تحدث الخضر عن تهاون بعض الآباء في واجبهم تجاه أبنائهم، إذ يرسلون الناشئ إلى معاهد العلم بأوروبا قبل أن يتلقن من علوم الدين ما يجعل عقيدته مطمئنة، يقول في هذا الشأن: "قالذين يرسلون أبناءهم لمدارس اجنبية تحتم على كل تلميذ الاشتراك في القيام بشعائرها الدينية انما يلقون بأفلاذ اكبادهم في حفرة من النار"³

وهذا ما يجعل النشء يلاقي في أثناء الدراسة هنالك أو في بعض المحادثات شيئا لا يجد في نفسه من الحجج ما يدفعها، وإذا تواردت الشبه على الناشئ رانت على قلبه، وأصبح يبصر وجه الحق أسود قاتما، فيعود الى وطنه وهو يحمل لأبويه عقيدة أنهما في ضلال قديم، وذلك جزاء من يستهين بهدى الله ولا يهمله إلا أن يكون لابنه رزق واسع، أو منصب في أحد الدواوين وجيه"⁴.

¹ / محمد الخضر حسين: رسائل الإصلاح، الموسوعة، المجلد 05، مصدر سابق، ص246.

² / المصدر السابق، ص247.

³ / المصدر نفسه، ص247.

⁴ / نجيب بن خيرة: "جهود الأزهر في مواجهة التغريب الشيخ محمد الخضر حسين أنموذجا"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة-الجزائر المجلد23، العدد01، 2008، ص188.

وقد نبّه الخضر إلى خطورة ما يدعو إليه هؤلاء المفتونون بمحاكاة الغرب إلى درجة نسخ جميع تقاليدهم ومظاهر عاداتهم لأمتنا قائلًا: "...كأنه لا يشعر بأن تجرد الأمة من مميزاتها، وتطوّحها في تقليد غيرها إلى هذه الغاية، علة من علل موتها، ومرونتها تحت مؤثرات من تقلده ولا سيما حيث تكون له السلطة الغالبة على أمرها، والرأي الذي لا يستقيم مع إرادتها"¹

فالخضر يؤكد أن لنا مرجعيتنا التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها بقوله: "فالذين ينقلون قوانين وضعها سكان رومة أو لندرة، أو باريس أو برلين، ويحاولون إجراؤها في بلاد شرقية، كتونس، أو مصر الشام، إنما هم قوم لا يدرون أن بين أيديهم قواعد شريعة تنزل من افق لا تدب فيه عناكب الخيال أو الضلال، وأن في هذه القواعد ما يحيط بمصالح الأمة، حفظا ويسير بها المدنية الراقية عنقا فسيحا"².

كما أوضح الشيخ أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان قائلًا: "يقع في وهم من لا يدري من الإسلام أن شريعته لا توافق حال العصر الحاضر، ويبني توهمه على هذا على أن القوانين إنما تقوم على رعاية المصالح، ومصالح العصور تختلف اختلافا كثيرا؛ فالدعوة إلى بقاء أحكامها نافذة هي في نظره دعوة إلى خطة غير صالحة، ذلك ما نقصد في هذا المقال إلى تفنيده وتفصيل القول في دفع شبهته، حتى يثبت بالدليل المرئي رأي العين أن الشريعة الغراء تسائر كل عصر وتحفظ مصالح كل جيل"³.

• محاكاتهم في شيء لم يكن من شعائر دينهم، ولكنه مما نهى عنه الإسلام على وجه الحرمة، أو على وجه الكراهة.

وقد وضّح الخضر حكمه هنا بين الكراهة والحرمة كما يلي:

¹ / محمد الخضر حسين: الدعوة إلى الإصلاح، الموسوعة، المجلد 5، مصدر سابق، ص174.

² / محمد الخضر حسين: " نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم "، الموسوعة، المجلد 09، مصدر سابق، ص300.

³ / محمد الخضر حسين: الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، الموسوعة، المجلد 04، مصدر سابق، ص05.

○ ما يدخل في باب الكراهة: ذكر الخضر التقليد في تناول الطعام باليد أو بالشمال أو اطالة بعض الأظافر أو إغلاق محلات التجارة يوم السبت أو الأحد، فهذا التشبه مكروه لعدم اتباعه بالاعتقاد السليم، فقد ثبت أن النبي ρ يخالف أهل الكتاب في جعلهما يومي عيد، لأن صوم اليوم يبعده عن أن يكون عيداً، فأغلاق المسلم لمحل تجارته يوم الأحد أو السبت يناقض قصد رسول الله ρ إلى صوم هذين اليومين، لأن إغلاق محل التجارة أو الصناعة في يوم معين لا يلتزمه إلا مَنْ مِنْ شأنه أن يعتقد أنّ ذلك اليوم حقيق بأن يتخذ عيداً، أما إذا كان عن عقيدة بأفضلية أعمالهم فيه فإن حكمه قد يتحول إلى التحريم¹.

○ ما يدخل في باب التحريم: ومنها: "تقليدهم في اختلاط الرجال بالنساء، ورقص الفتيان مع الفتيات" واستبدال أحكام الشريعة الغراء بقوانينهم الوضعية، نحو القوانين المبيحة لما حرم الله من الربا، ...ومن محاكاتهم فيما يحرمه الشرع وينبذه العقل، إنشاء مكتب تستأذنه فاسدات الأخلاق في التجارة بأعراضهن، فلا يجد صاحبه في صدره حرجاً أن يأذن لهن².

● محاكاهم فيما لم يتعرض له الدين بنهي خاص ولكن رعاية جلب المصالح أو درء المفاسد تقضي بترك هذه المحاكاة:

"ويدخل في هذا القبيل الملابس وأثاث البيوت من مصنوعاتهم، وفي المصنوعات القومية ما يغني عنها وفي الاقبال على المصنوعات القومية فتح باب عظيم من أبواب الثروة العامة، وارتقاء الشعوب على قدر يسارها"³.

¹/ محمد الخضر حسين: "رسائل الإصلاح"، الموسوعة، المجلد 05، مصدر سابق، ص 248.

²/ المصدر السابق، ص 247.

³/ المصدر نفسه، ص 248.

وفي هذا الحكم اجتهاد وتجديد من الخضر حسين، فإنه يجيز أن نقلدهم في مصنوعاتهم وإنتاجهم بشرط المحافظة على الإنتاج القومي الذي هو أحد مميزات الشعوب، كما أن في تشجيع الإنتاج الوطني محافظة على اقتصاد البلد وتوفير فرص العمل لأبناء الوطن¹.

• محاكاتهم في أمور لم يرد فيها عن الشارع نهي خاص، ولم تكن في موافقتهم فيها مصلحة أو مفسدة.

شرط أن لا يؤدي إلى الافتتان بالغرب حتى مشابهتهم في عاداتهم وطرق عيشهم فينسى القائم بذلك أصوله، ومن أمثلة ذلك محاكاتهم في لون خاص يلتزمونه في حفلات خاصة، فليس للون الخاص في الحفلات مصلحة أو مدخل في نهوض القوم، وإنما هي عادة جرت بينهم وألفتها أذواقهم، فإذا لم يعتد قوم مسلمون التزامها في مثل تلك الحفلات، وأبوا تقليد الأجانب في هذا العرف، دلوا بهذه على الاعتزاز بقوميتهم ونبهوا على انهم لا يريدون ان يكونوا اتباعا حتى فيما لا يقدمهم خطوة ولا يسد من حاجاتهم خلة².

وأضاف مثالا آخر يؤكد فيه رأيه حول هذا العنصر قائلا: "فإذا خطر على بال أحد أن النبي ρ كان يسدل شعر رأسه موافقة لأهل الكتاب، قلنا كان عليه الصلاة والسلام، بين فريقين عباد الأوثان ولكن بعد ان دخل عباد الأوثان فهم بالموافقة يومئذ أحق من عباد الأوثان، ولكن بعد أن دخل عباد الأوثان في الاسلام، وأصبح فرق الشعر شعار فريق كبير من المسلمين، عاد ρ ففرق شعر رأسه، وكان الفرق اخر حالتيه"³.

¹ / الطاهر بن سالم، مرجع سابق، ص 258.

² / المرجع السابق، ص 250.

³ / المرجع نفسه، ص 251.

وخلصة القول أن الخضر يرى بأن نتمسك بمقومات هويتنا وديننا وتشريعاتنا، وأن نأخذ من الغرب ما سبقونا إليه من العلوم والمعارف والصنائع: " هذه كلمة نوجهها إلى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، لعلهم يجدون فيها الفرق بين محاكاة الأجنبي المحمودة، ومحاكاته المنبوذة، فيسلكوا طريقا وسطا يكفل لهم سعادتي الأولى والآخرة: [وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ] (الأحزاب/04)¹.

¹/ الظاهر بن سالمه، مرجع سابق، ص251.

المبحث الثالث: الإصلاح الثقافي

المطلب الأول: آراء محمد الخضر في قضايا اللغة وفي إصلاح العربية

كان الإمام محمد الخضر حسين أحد الأعضاء الأوائل لمجمع اللغة العربية بدمشق الذي تأسس سنة 1920 م ثم عضوا مراسلا له منذ سنة 1923 م، كما كان عضوا مؤسساً لمجمع اللغة العربية بمصر، وعلى عكس مجمع دمشق فقد كان للإمام في هذا المجمع نشاط ملحوظ استمر إلى غاية وفاته، سواء ضمن هيئاته المختلفة أو من خلال تمثيله للمجمع في عدة ملتقيات سواء محلية بمصر أو دولية كالتي حضرها في لبنان، إضافة إلى بحوثه القيمة التي أثرى بها مجلة المجمع، وكذلك اقتراحاته واجتهاداته ضمن المجمع.

وقد عبّر محمد الخضر حسين عن آرائه في اللغة بوضوح في بحوثه ومحاضراته، حيث تناول فيها مفهوم اللغة وطبيعتها وأصل نشأتها، وعلاقتها بالمجتمع وغيرها من المسائل التي تمس إصلاح العربية.

1/ مفاهيم حول اللغة وأصل نشأتها

اللغة عند محمد الخضر حسين ميزة عرف بها الإنسان، ولم يعرف في البشر أمة ليس لها لسان تعبر به عن حاجاتها، وقد حاول بعض الباحثين أن يثبتوا ملاحظة تركيبية أدمغة أشخاص عاشوا في القرون الخالية أنهم كانوا محرومين من هذه المزية، فلم يستطيعوا أن يقيموا على ما يدعونه دليلاً تام المقدمات صحيح النتائج، وإذا كانت اللغة ميزة بشرية مؤكدة، فإنّ العلم لم يستطع أن يثبت لغير الإنسان من الحيوان لغة تخاطب¹.

وليس معنى هذا أن الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي وهبه الله القدرة على التفاهم، ومنحه وسيلة الاتصال بين بني جنسه، وإنما يشترك معه في ذلك سائر الكائنات

¹/محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، المكتب الإسلامي، مكتبة دار الفتح، دمشق، 1960، ص14.

الحية من حيوانات وحشرات وطيور، وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى هذه الحقيقة، فقال: [**قَالَ نَمَلٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**] (النمل/18).¹

يرى محمد الخضر أن قضية نشأة اللغة الإنسانية قد شغلت المفكرين على مر العصور، وإنشغل بالبحث فيها كثير من العلماء والفلاسفة، والمتكلمين واللغويين، وذهبوا في البحث مذاهب شتى: هذا يقول: مصدرها التوقيف من الله، وذاك يقول: مبدؤها الطبيعية، وآخر يقول: منشؤها الاصطلاح والتواطؤ.²

وينتهي إلى أن الحكم في أصل نشأة هذه اللغات أمر صعب لا يصل إلى نتائج مرضية حاسمة، وأن إدخال هذه المسألة في علم الأصول من الفضول، وإنما أقصى ما يستفيده الدارس من بحثه في اللغات التي بين يديه، أنها تكون في أول أطوارها قليلة الكلمات، غير متنوعة الأساليب، ثم تغزر مادتها، وتتعدد أساليبها، على حسب ما يكون للناطقين بها من ثقافة أو حضارة.³

يؤكد محمد الخضر قوة الصلة بين اللغة والمجتمع، إذ أن الشخص الذي يحل بين أقوام يجهل لغتهم يبقى منفردا عن جماعتهم، غير معدود في زميرتهم، وتتوعر الطرق الموصلة إلى انخراطه في سلوكهم، وتبادل المنافع معهم، فإذا تعلم من لسانهم ما يطلع به على آدابهم وعوائدهم ومعارفهم، انعقدت بينه وبينهم صلة التعارف والمعاشرة، وأصبح عضوا متصلا بهم، عاملا في هيئة مجتمعهم هذا ما ينشأ عن مجرد حفظ اللغة.⁴

¹ / مسعود طواهرية: جهود محمد الخضر حسين اللغوية دراسة وصفية تحليلية، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في اللغة، كلية اللغة العربي والأدب والفنون، جامعة باتنة 01، الجزائر، 2015 / 2016، ص 39.

² / محمد الخضر حسين، دراسات في العربية وتاريخها، المكتب الإسلامي، مصدر سابق، ص 14.

³ / المصدر السابق، ص 15.

⁴ / المصدر نفسه، ص 121، 122.

واللغة عند محمد الخضر من أبرز مقومات الأمة، ومن أقوى عوامل وحدتها الوطنية؛ ولهذا ترى الداعي إلى الوحدة الوطنية يسعى في تعليم لغة الوطن وتعميم نشرها، حتى تكون هي اللغة الجارية في خطاباتهم، ومتى أهملت الأمة لغتها، وزهدت في تعلمها، انفصمت عرى جامعتها لا محالة، فإذا قام مناد يدعو أمة إلى نبذ لغتها، وأن تستبدل بها لغة أخرى، فإنما يريد انقسام وحدتها، وإخراجها من صيغة جنسها.¹

واللغة بعد هذا كله عند الخضر أهم وسيلة لرقى الأمة ونهضتها، وعلى قدر ما تحتفظ به الأمة بلغتها ترتقي في حياتها الأدبية، فمثل اللغة مع حال الأمة كالمثاقيل التي توضع في مقابلة الموزون، بحساب ما ينقص من اللغة، ينزل ما يقابلها من حال الأمة على درك الشقاء؛ إذ لا يؤثر على إحساسهم في تكبيرهم بمجد الآباء، أو يهيج عواطفهم على الاتحاد، والأخذ بوسائل السعادة غير لغتهم الراقية.²

والناظر في أقوال الخضر يتحقق من أنه يفرق بين الانسان الذي يسعى إلى تعلم لغة غيره، ليحقق التواصل والتعارف فقط، وبين من يتعمق في أسرارها إلى أن يدرك حقائقها التي تمكنه من تذوق الآداب والمعارف، وعليه يتقرب من هؤلاء بلسانه وفؤاده، ولا بلسانه فقط، وشتان بين هذا وذاك، ومن هنا نقول أن الرجل أدرك الوظيفة الأساسية للغة، والتي لا تتوقف معرفتها عند التواصل مع الغير، بل تتطلب من الشخص المقبل على هذه اللغة الوقوف على أسرارها، وحقائقها والتعمق فيها أكثر، ليتذوقها ويكشف فصاحتها وبالتالي يسهل عليه الحكم على آدابها ومعارفها.³

2/ رأي محمد الخضر حسين في إصلاح متن العربية

يرى أحمد أمين أن اللغة العربية واسعة سعة عظيمة أكثر من اللازم في مواضع،

¹ / محمد الخضر حسين، دراسات في العربية وتاريخها، المكتب الإسلامي، مصدر سابق، ص 123.

² / المصدر السابق، ص 123.

³ / كمال مجيدي، مرجع سابق، ص 69.

والسبب في ذلك أن اللغة العربية كانت لغة قبائل بدوية مختلفة، حتى لم يتركوا شيئاً من ملبسات حياتهم إلا لحظوه ووضعوا له اسماً، فلما جمع العلماء من قبائل مختلفة تنوعت الأسماء المتعددة لذلك، ووجد ما نسميه بالمترادفات، وعلاج ذلك - في نظره - التخفف من كثير من مفردات اللغة التي في المعاجم، وذلك ضروري لفسح المجال للكلمات الجديدة في المسميات التي نحن في حاجة إليها، فما حاجتنا إلى أن يكون للعسل ثمانون اسماً وللسيف نيف وخمسون... في حين أن أهم من ذلك ليس له اسم واحد، ويقصد به مستجدات الحضارة والمدنية¹.

ولكن محمد الخضر يرى أن المعاجم توضع لهدفين: ليأخذ الناس منها ألفاظاً يؤلفون منها خطبهم ومراسلاتهم وأشعارهم، كما توضع لتيسير فهم ما يقوله بلغاء اللغة من شعر ونثر ودراسة آداب اللغة تقتضي أن نكون مستعدين لفهم كل ما يصل إلينا من ذلك الشعر والنثر، وعليه يجب وضع نوعين من المعجمات: معجمات متوسطة لجمهور المثقفين في الكشف عن الكلمات التي تكثر الحاجة إليها، فيحسن التخفف من مفردات اللغة فيها، ومعجمات كبيرة مبسطة توردها فيها كل الألفاظ العربية الصحيحة لا للتاريخ فحسب، بل توضع لأنه يحتاج إليها في فهم شعر أو نثر قد يكون مشتملاً على حكمة بالغة أو معنى جليل².

كما يرى أن في إعدام الكلمات الحوشية إعداما للشعر والنثر اللذين يحملانها، فالحيزبون مثلاً وردت في شعر عبيد بن الأبرص من الجاهلية، والدرديس وردت في شعر جزي الكاهلي، بل نجد أشعار البلغاء من الإسلاميين والمحدثين عامرة بكثير من الكلمات الحوشية، فحتى وإن كانت هذه الكلمات مخلة بالفصاحة عند أهل البلاغة، فإن ذلك لا يمنع هذا حفظها في المعاجم المبسطة³.

¹ / محمد الخضر حسين، دراسات في العربية وتاريخها، المكتب الإسلامي، مصدر سابق، ص 53.

² / المصدر السابق، ص 97.

³ / المصدر نفسه، ص 98.

أما في إعدام التضاد بحجة إفساده للغة وإبهامه للمعاني، فيرد محمد الخضر على أحمد أمين بأن صناع الفصاحة والبيان أعرف بما يقتضيه المقام، فيفرون بين الكلام الذي يجب أن يكون نصاً صريحاً كالمؤلفات العلمية، وعقود المعاهدات والمعاملات، والكلام الذي يحسن أن تقوم فيه القرائن الجلية مقام التصريح أو القرائن الخفية مقام القرائن الجلية، أو يقوم فيه الإبهام مقام الإيضاح.

ولا يشك أحد في أن كثيراً من المراسلات الأدبية والسياسية تقوم على البراعة في هذا الأسلوب من الكلام، وقد يكون لنحو التورية والتوجيه والإبهام أغراض نبيلة وصور من المعاني تستروح إليها النفوس، ويزداد بها أدب اللغة ثراء¹.

3/ نظرة محمد الخضر حسين لثنائية الفصحى والعامية:

ينظر محمد الخضر إلى هذه المشكلة نظرة موضوعية متقائلة، ويدعو إلى معالجة اللهجات والعاميات في إطار علمي دقيق ضمن أعمال المجامع العلمية الرسمية سعياً إلى تطويرها وتخليصها مما قد اعترأها من تحريف وفساد.

ويؤكد هذا المنهج قائلاً: "لهجات العربية اليوم أصلها العربية الفصحى دخلها فساد من وجوه شتى، وظهر في كثير من ألفاظها وأساليب مخاطبتها، ولما كان المجمع الملكي يعمل لسلامة اللغة العربية، وسد ثغور حاجتها وإصلاح ما اعترأها من خلل، كان من حقه دراسة تلك اللهجات بقدر المستطاع، متخذاً هذه الدراسات وسيلة لتخليصها مما طرأ على ألفاظها وأساليبها من فساد"².

كما يرى أن العامية فصحى محرفة، ويصرح بذلك قائلاً: "إذا تتبعنا لغة التخاطب الآن، لنعلم نسبتها من العربية، وجدناها نفس العربية، ولكن طراً عليها التحريف بنقص أحوال الإعراب، أو تغيير حروف بعض الكلم بالحركة أو السكون، أو التخفيف أو

¹ / محمد الخضر حسين، دراسات في العربية وتاريخها، المكتب الإسلامي، مصدر سابق، ص 98.

² / المصدر السابق، ص 25.

التشديد، أو الحذف أو الزيادة أو القلب أو الإبدال، وقد يرد الخطأ من ناحية الاشتقاق نحو: شائب، ومهبول، ومبروك، فإن الصحيح عربية: أشيب، وأهبل، ومبارك، وهناك كلمات دخيلة اقتضتها سنة المخاطبة، وقدرها بعض المحررين بالنسبة إلى ما هو عربي في لسان المصريين بخمسة في المئة، وليس التفاوت بينهم وبين التونسيين ببعيد.¹

ويؤرخ محمد الخضر لبداية هذا الانحراف عند شيوع اللحن في اللغة العربية الفصحى، وذلك بعد دخول أمم غير عربية بين العرب، واستيلائهم على كثير من مراكز الدولة كما وقع في أواخر الدولة العباسية.

كما يعتبر اللحن مظهرا من مظاهر الانحطاط الذي أصيبت به الأمة من ناحية الثقافة والاجتماع، وليس تطورا في الحياة يجب مسايرته كما يرى بعض الدارسين، وبالإضافة إلى اللحن يعتبر محمد الخضر ظهور العامية واتساع الفرق بينها وبين الفصحى راجعا إلى عامل أساس هو انحطاط الأمة وقلة حظها من التعليم وإطلاق الألسنة لتتطرق بالكلم على جهالة كيف تشاء.²

يرى محمد الخضر أن ثنائية الفصحى والعامية ظاهرة لغوية عالمية، حيث يقول: "ولا ننسى أن لغة العامة في كل أمة لا تتطبق بجملتها على اللسان الذي يكتب به علماءها، وإن كان الفرق بينهما في ممالك أوربا على ما ينقل أقل من الفرق بين لغة التخاطب عندنا والعربية الفصحى، لأن أولي الأمر منهم في الأعصر القريبة كانوا أشد عناية بشأن التعليم، وأحرص بتعميمه بين رعاياهم، واستقامة السنة الأمة"³

إذا كان محمد الخضر يعتبر أن لغة التخاطب الآن عربية، ولكنها ابتليت بفساد وعلل يرجى برؤها منها، وعودها إلى تمام صحتها بالمعالجة شيئا فشيئا، فإنه يرفض الدعوة إلى

¹ / محمد الخضر حسين، دراسات في العربية وتاريخها، المكتب الإسلامي، مصدر سابق، ص 162.

² / محمد الخضر حسين، دراسات في اللغة، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص 129، 131.

³ / محمد الخضر حسين، دراسات في العربية وتاريخها، المكتب الإسلامي، مصدر سابق، ص 163.

العامية والكتابة بها قائلًا: "فلا يحسن بنا أن نهجر اللغة الفصحى، ونسعى في تدوين لغة العامة على علاتها، فإن تحريفها يختلف بحسب اختلاف الأقطار والبلاد، حتى يكاد أهل الأقطار المتباعدة لا يفهم بعضهم خطاب بعض، وإن اشتركوا في فهم العربية الصحيحة"¹.

كما يحذر من عواقبها الوخيمة بقوله: "وإذا أريد أن أهل كل قطر أو بلاد يدونون لسانهم المحرف، فانظروا ماذا ترون؟ أيجمل بنا أن نعد إلى لغة يشترك في التفاهم بها جميع المسلمين على اختلاف أجناسهم، ويتخاطب بها ابن الصين مع ابن مراكش دون واسطة ترجمان، وبينهما من المسافة ما بين الخافقين، ونفرقها إلى لغات شتى تفريقاً يجعلها- على الأقل- لغات سافلة منزوعة من سر الفصاحة والرونق، ولا تجد قوة تذود بها عن حياضها كما وجدت العربية من ذات الفصاحة حائياً ونصيراً"².

وقد تظن **محمد الخضر** إلى ضرورة دراسة اللهجات دراسة علمية موضوعية أوسع نطاقاً وأعظم نفعاً، فقدم إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة - وقد كان من أعضائه المؤسسين ورئيساً للجنة اللهجات-مذكرة بعنوان: اللهجات العربية في هذا العصر، يدعو فيها إلى دراسة اللهجات العربية بقدر المستطاع متخذاً هذه الدراسة وسيلة إلى تخليصها مما طرأ على ألفاظها وأساليبها من فساد³.

ويقترح **الخضر** خطة يوضح فيها منهجه هذا في خطوات إجرائية نوضحها كالاتي:⁴

• التنبيه في اللهجات الدارجة إلى وجود كثير من الألفاظ العربية المبتذلة في السنة

العامة يتحاماها الكتاب والشعراء والمؤلفون ورد الاعتبار لها.

ومن أمثلة ذلك ألفاظ فصيحة وردت في المعاجم رصدتها في العاميات العربية، نذكر

منها: شُوِيَّة: أصلها شُوِيّ تصغير شيء، وقد ألحقت بها اللغة اليومية المتداولة هاء

¹ / محمد الخضر حسين، دراسات في العربية وتاريخها، المكتب الإسلامي، مصدر سابق، ص164.

² / المصدر السابق، ص164.

³ / محمد الخضر حسين، دراسات في اللغة، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص25.

⁴ / المصدر السابق، ص25.

السكرت، فأصبحت شُوَيْهً، وهو إلحاق جائز وبذلك تكون عربية سليمة¹.

- على دارس اللهجات أن يذكر الكلمات التي دخلها التحريف، ويبين وجه تحريفها، وينبّه إلى وجهها الصحيح².

فمن الأخطاء الشائعة الناتجة عن صياغة الجموع مثلاً: سواح جمع سائح والصحيح سياح، الأكفَاء والصحيح الأكفَاء أو الكفاء جمع كفاء لأن الأكفَاء جمع كفيف، أحفاد جمع حفيد والصحيح حفدة وحفداء، حسن الخصال والصحيح حسن الخصائل مفردها خصلة، أسياد والصحيح سادة أو سادات، باع الفلاحون أغلالهم والصحيح غلالهم أو غلاتهم محاصيلهم ثوار جمع تائر والصحيح تائرون، نواياه والصحيح نياته³.

- على دارس اللهجة أن يذكر الكلمات التي دخلها التحريف، ويدل على ما يقوم مقامها من الألفاظ العربية الفصيحة، ومن الأمثلة على ذلك: الألفاظ التي بدلت العامة بعض حروفها، نحو كلمة: التصنت وفصيحتها التتصت، والكلمات: بايع وصايم وقايم وجايح ... وفصيحتها أن نقول: صائم وبائع وقائم وجائع، وكذلك جَعَّان وجِيعان وجِيعانة والفصح فيها جوعان وجوعى⁴.

- التعرض للكلمة المستعملة في غير معانيها المعروفة في كلام العرب، أو معجمات اللغة، وإذا لم يوجد بين هذه المعاني والمعاني التي وضعت لها الكلمة مناسبة، نبّه إلى أن هذه الكلمة استعملت في غير مواضعها، وأرشد إلى الألفاظ التي يصح أن تستعمل مكانها⁵.

¹/ شوقي ضيف: تيسيرات لغوية، دار المعارف، مصر، دت، ص18.

²/ محمد الخضر حسين، دراسات في اللغة، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص 25.

³/ ناصر لوحيشي: صحح لغتك، دار الطليعة، ط03، الجزائر، 2004، ص56، 55.

⁴/ مسعود طواهرية، مرجع سابق، ص53.

⁵/ محمد الخضر حسين، دراسات في اللغة، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص 25.

ومن أمثلة ذلك رضح: ومعناها قطع وكسر وأعطى، والأصل في معانيها كسر النوى والعظم ومنها رضح رأس اللحية ورضخ له من ماله كأنه كسره واقتطع منه قطعة وأعطاه إياها، والناس يستعملونها بمعنى خضع، وليس ذلك من معانيها عند العرب ولا وجه له. والصحيح أن نستعمل بدلها: خضع أو أذعن¹.

وإذا كان من أهم أغراض المجمع خدمة اللغة وترقيتها، فهو جدير - في رأي الشيخ - أن يدرس لهجات الأقطار العربية من ناحية ما دخل في ألفاظها وأساليبها من أغلاط، ويدل على وجهها الصحيح، وقد وضع محمد الخضر آلية لعمل المجمع، وذلك باتصاله بعلماء الأقطار العربية وأدبائها لمساعدته على درس هذه اللهجات واستكشاف ما دخلها من ضروب الفساد، ثم التنبه إلى وجوه صحتها في مجلته أو في مؤلفات خاصة، هذا العمل يراه من أقرب الوسائل إلى إصلاح هذه اللهجات، وإعادتها إلى وجهها الصحيح².

ويكون هؤلاء العلماء والأدباء هم الذين يتلقون ما يقرره من إصلاح، ويأخذون به النشء ما أمكنهم، ويذيعونهم في دروسهم ومجالسهم، ويدعون إليه في صحفهم، وإذا جرى المجمع في انتخاب أعضاء فخريين وأعضاء مراسلين على أن يكون له في كل قطر عضو أو أكثر انفتح أمامه - كما يؤكد الخضر - الطريق لدراسة هذه اللهجات دراسة وافية³.

فمحمد الخضر مقتنع بأن دراسة اللهجات، بعرض مفرداتها وأساليبها على قوانين العلوم العربية قد يحتاج إلى مجهود كبير، وزمن غير قصير؛ ولكن العمل الجماعي في إطار المجمع اللغوية هو الكفيل بتحقيق هذا المسعى، نظرا للوسائل والإمكانات التي تتوفر لديه⁴.

¹ / مسعود طواهرية، مرجع سابق، ص 79.

² / محمد الخضر حسين، دراسات في اللغة، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص 27.

³ / المصدر السابق، ص 28.

⁴ / كمال مجيدي، مرجع سابق، ص 98.

وقد لقي منهج الشيخ الخضر في إصلاح العامية وتقريبها قبولا واستحسانا لدى الكثير من الدارسين في مختلف البلاد العربية، ففي سوريا يؤكد الدكتور محمود أحمد السيد على ذلك بقوله: "لعل أفضل خدمة نقدمها لأمتنا العربية في هذا المجال هو أن نعلم إلى دراسة اللهجات العامية في أقطارنا العربية دراسة تتبعية استقصائية، تكشف لنا عن المفردات العربية الصحيحة التي تستخدم في هذه اللهجات، والمفردات التي اعتراها التصحيف والتحوير، وتلك التي تغيرت دلالتها من حيث المعنى، كما تكشف عن الألفاظ الدخيلة من المجتمعات الأخرى، تركية كانت أو فارسية أو إنجليزية أو فرنسية"¹.

وقد نظمت ملتقيات محلية وعربية ودولية بغرض إصلاح العامية وتقريبها من الفصحى منها الندوة الدولية التي نظمت بالجزائر بعنوان: "الفصحى وعامياتها لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب"، وقد كان الهدف من هذه الندوة هو الرقي بالعامية لتعود إلى وضعها الطبيعي قبل أن تتزاح عن مستواها الفصحى إلى مستوى أدنى، وهو مستوى خطاب العامة، والسعي لتطبيق استراتيجية في هذا المجال بالعمل على الرفع بمستوى الدارجة لتقترب من مستوى اللغة الوسطى التي لا تحمل في خطابها التقعر وتستجيب لمتطلبات الحياة المعاصرة"².

المطلب الثاني: القياس عند محمد الخضر حسين

لجأ النحاة إلى القياس منذ أن وضعوا أسس علم النحو، أما في العصر الحديث فقد سار الدارسون بالبحث اللغوي في اتجاهات مختلفة متأثرين بالمنهج اللغوية الحديثة، فظهرت في المكتبة العربية كتب وبحوث كثيرة، ومنها ما توقف على موضوع القياس رسداً وتجميعاً وتقييماً وتأليفاً، ومن الذين أسهموا في هذا الموضوع مبكراً محمد الخضر حسين في كتابه القياس في اللغة العربية، حيث شرح فيه حقيقة القياس، وفصل شروطه،

¹ / محمود أحمد السيد: شؤون لغوية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت-دمشق، 1989، ص 76.

² / المجلس الأعلى للغة العربية: الفصحى وعامياتها لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب، دار الخلدونية، الجزائر، 2008، ص 05.

وجمع أصوله، وضم أشتاتها، وذكر أقسامه، وخصّ منها بالبحث والتطبيق القياس الأصلي وقياس التمثيل.

أولاً: فائدة القياس وأنواعه عند محمد الخضر حسين

1/ مفهوم القياس وفائدته

القياس في اللغة: من قاس الشيء يقيسه قَيْسًا وقِيَّاسًا وأقْتَأَسَه وقَيَّسَه إذا قدره على مثاله، والمقايسة تجري مجرى المقاساة التي هي معالجة الأمر الشديد ومكابדתه¹.

وعرّف ابن الأنباري القياس في اللغة والاصطلاح قائلاً: "اعلم أن القياس في وضع اللسان بمعنى التقدير، وهو مصدر قايست الشيء بالشيء مقايسة وقياساً: قدرته، ومنه المقياس أي المقدار، وقيس رمح أي قدر رمح"²، أما تعريفه في الاصطلاح فقد قدم لنا عدة تعريفات، نذكر منها: "هو في عرف العلماء عبارة عن تقدير الفرع بحكم الأصل"، "هو إلحاق الفرع بالأصل بجامع"³ وأما القياس فهو حمل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه، كرفع الفاعل ونصب المفعول في كل مكان...⁴

ويمكن تعريفه إجمالاً بأنه عملية عقلية فطرية، يقوم بها أفراد الجماعة اللغوية كبيرهم وصغيرهم، بل إن البحوث الحديثة أكدت أن اكتساب اللغة يقوم على أساسها، والقياس في جوهره عملية إبداعية فهو يضيف إلى اللغة صيغاً وتراكيب لم تعرفها من قبل، كما أنه عملية محافظة، لأن هذه الصيغ والتراكيب في الغالب على مثال معروف⁵.

¹ / أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب، دار الكتب العلمية، الجزء 06، لبنان، 1993، ص187.

² / أبو البركات بن الأنباري: لمع الأدلة في أصول النحو تحقيق سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، 1985، ص 93.

³ / المرجع السابق، ص93.

⁴ / المرجع نفسه، ص43.

⁵ / محمد حسن عبد العزيز: القياس في اللغة العربية، دار الفكر العربي، مصر، 1995، ص23.

فالقياس هو بمثابة شهادة ضمان للغة والدرع الواقى لقواعدها من اللحن والتحريف والزيغ، وبه أغلقت الأبواب أمام عبث العابثين ولغو اللاغين¹.

وقد أصبحت الحاجة ماسة إليه في العصر الحاضر لتلبية مستجدات الحياة وأغراضها الثقافية والحضارية والعلمية، وهذا ما أدركه محمد الخضر حسين حيث يقول: "وضعت اللغة ليعبر بها الإنسان عما يبدو له من المآرب، ويتردد في نفسه من المعاني، ومن البين جليا أن المعاني تبلغ في الكثرة أن تضيق عليها دائرة الحصر، وتنتهي دونها أرقام الحاسبين، فلم يكن من حكمة الواضع سوى أن وضع لجانب كبير من المعاني ألفاظا عينها؛ كالسماء والمطر، والنبات، والعلم، والعقل، وتوسل للدلالة على يقينها بمقاييس قدرها، والكلم التي تصاغ على مثال هذه المقاييس معدودة في جملة ما هو عربي فصيح"².

ويرى أن القياس وسيلة تمكّن الإنسان من النطق بآلاف من الكلم والجمل، دون أن تفرغ سمعه من قبل، أو يحتاج في الوثوق من صحة عربيتها إلى مطالعة كتب اللغة أو دواوين جامعة لمنثور العرب ومنظومها، فالقياس يوفر الألفاظ والجمل وتتعدد به المعاني، وهو يختلف عن الترادف الذي يكون فيه للمعنى الواحد مئات الأسماء، فيود السامع لو يصرفها إلى حكم القياس، هذه المترادفات نشأت من تعدد اللغات وهي من مفاخر اللغة ودلائل سعة بيانها، وهي تسد وجوها من الحاجة غير الوجوه التي يسدها القياس³.

¹/ زغودة نيا ب مروش: "القياس وقضاياه عند محمد الخضر حسين الجزائري من خلال كتابه القياس في اللغة العربية"، في مجلة الأثر، العدد 29، سبتمبر 2016، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، ص 181.

²/ محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، المكتب الإسلامي، مصدر سابق، ص 29

³/ محمد الخضر حسين: القياس في اللغة العربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 28.

2/ أنواع القياس عند محمد الخضر حسين

قسّم محمد الخضر حسين القياس إلى أربعة أقسام:¹

الأول: حمل العرب أنفسهم لبعض الكلمات على أخرى وإعطاؤها حكمها لوجه يجمع بينهما كما يقال: أعرب المضارع قياساً على الاسم.

الثاني: أن نعد إلى اسم وضع لمعنى يشتمل على وصف يدور معه الاسم وجوداً وعدمًا فنعدى هذا الاسم إلى معنى آخر يحقق فيه ذلك الوصف، ونجعل هذا المعنى من مدلولات ذلك الاسم لغة.

الثالث: إلحاق اللفظ بأمثاله في حكم ثبت له باستقراء كلام العرب حتى انتظمت منه قاعدة عامة، كصيغ التصغير والنسب والجمع، وأصل هذا أن الكلمات الواردة في كلام العرب على حالة خاصة، يستنبط منها علماء العربية قاعدة، تخول المتكلم الحق أن يقتبس على تلك الكلمات الواردة ما ينطق به من أمثالها.

الرابع: إعطاء الكلم حكم ما ثبت لغيرها من الكلم المخالفة لها في نوعها، ولكن توجد بينهما مشابهة في بعض الوجوه كما أجاز الجمهور ترخيم المركب المزجي قياساً على الأسماء المنتهية بتاء التانيث، فيقال فيمن سمى "معد ي كرب" " يا معدي كما يقال في فاطمة " يا فاطم".

لم يسلك محمد الخضر طريق القدماء في درس القياس القائم على التفصيل والتشعيب والتعقيد والالتواء، بل ركز على الضربين الأخيرين من القياس بدراسة نظرية وتطبيقية مستفيضة، مبينا مفهوم كل منهما وشروطه وموقعه وفروعه وأشكاله في الدرس اللغوي والنحوي، وقد أطلق عليهما: القياس الأصلي وقياس التمثيل.

¹ / محمد الخضر حسين: القياس في اللغة العربية، مصدر سابق، ص: 31، 33.

أ - القياس الأصلي: هو إلحاق اللفظ بأمثاله في حكم يثبت لها باستقراء كلام العرب حتى انتظمت منه قاعدة عامة، كصيغ التصغير والنسب والجمع¹، ويسمى عند علماء أصول اللغة بالقياس اللغوي، والقياس بهذا المعنى محاكاة العرب في طرائقهم اللغوية، وحمل كلامنا على كلامهم، في صوغ الكلمة وما يعرض لها من أحكام كالإبدال والإعلال والحذف والزيادة، وفي نظام الكلام وما يعرض له من أحكام كالترتيب والتأخير والاتصال والانفصال، والحذف والذكر، والإعراب والبناء².

وبناء على الحالة الخاصة للكلمات العربية تستنبط لها قواعد، حيث يمكن لكلمات أخرى أن تقاس عليها وتطبق عليها القواعد نفسها .

ويعتبر محمد الخضر اللهجات العربية، والتي يسميها لغة جميعها مما يصح القياس عليه، ويستند في ذلك إلى قول ابن جني: "اللغات على اختلافها كلها حجة والناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ" ويستشهد بقول أبي حيان التوحيدي " كل ما كان لغة لقبيلة صح القياس عليه"³.

وفي كلامه على ما يقاس عليه، يضع محمد الخضر القرآن الكريم في أول مرتبة وأفضلها يحتج بها في تقرير أصول اللغة، باعتباره نزل بلسان عربي مبين [بِلِسَانٍ مَّرَبِّيٍّ مُبِينٍ] (الشعراء/195)، ثم يضع الحديث النبوي الشريف في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم للاحتجاج به في تقرير الأحكام العربية، ويبرر ذلك بقوله: "إن الرسول p كان أفصح من نطق بالضاد من العرب، أوتي جوامع الكلم"⁴ وهو بذلك يركز على حديث يروي بقصد الاستدلال على كمال فصاحته، وبلوغه أعلى ما يمكن أن يبلغه من حكمة البيان، فهذا الحديث لم تتغير ألفاظه، وهي نفسها ألفاظ الرسول p مثل "حمى الوطيس" و"مات حتف

¹ / محمد الخضر حسين: القياس في اللغة العربية، مصدر سابق، ص 31، 33.

² / مسعود طواهرية، مرجع سابق، ص 199.

³ / زغدودة زياب مروش، مرجع سابق، ص 183.

⁴ / محمد الخضر حسين: القياس في اللغة العربية، مصدر سابق، ص 41.

أنفه" وغيرها، وهذا النوع من الحديث لم يختلف فيه اثنان لأنه مروي بألفاظه، وهو حديث تتعدد طرقه ويتحد لفظه لم يتصرف في ألفاظه خاصة إذا كانت تلك الطرق المتعددة متصلة برا ويحتج بعبارته في الأحكام اللغوية. خلافا للنحاة المتقدمين الذين لم يعتدوا بالحديث بل تركوا الاستشهاد به دون أن يقدموا تبريراً لذلك¹.

ولم يفرق محمد الخضر بين ما وافق الاستعمال الجاري، فيما وصل إليه من شعر العرب ومنثورهم، وما جاء على وجه انفراد به، فقال: "ولا نتبع سبيل من يحددون عن ظاهره"، ويذهبون به مذهب التأويل ليوافق آراءهم النحوية"²

ويعتمد محمد الخضر في تقرير أحكام اللفظ على أشعار الجاهلية (امرؤ القيس، زهير بن أبي سلمى) وعلى أشعار المخضرمين (حسان، لبيد)، والشعراء الإسلاميين (الفرزدق، ذي الرمة)، أما أشعار المحدثين فلا يحتج بها في أحكام اللسان³، وهكذا كان الفاصل في الأخذ بكلام العرب عند أغلب النحاة هو ما سلم من الاختلاط بالأعاجم واللحن.

ب - قياس التمثيل: هو إلحاق نوع من الكلم بنوع آخر في حكم، ويأخذ النحاة بقياس التمثيل لإثبات أصل الحكم، وكثيراً ما يرجعون إليه في تأييد المذهب بعد بنائه على السماع⁴، ويعرف عند النحويين باسم القياس النحوي، وهذا النوع يُدرك من التعريف القائل بأن القياس هو: حمل فرع على أصل بعلته وإجراء حكم الأصل على الفرع⁵.

والقياس بهذا المعنى المحدد يبتدعه النحوي تنبيهاً إلى علة الحكم الثابت عن العرب

¹/ زغدودة ذياب مروش، مرجع سابق، ص 183.

²/ محمد الخضر حسين: القياس في اللغة العربية، مصدر سابق، ص 36.

³/ المصدر السابق، ص 44.

⁴/ زغدودة ذياب مروش، مرجع سابق، ص 183.

⁵/ أبو البركات بن الأنباري، مرجع سابق، ص 93.

بالنقل الصحيح، وهذا ما يعنيه النحاة حين يقولون: النحو كله قياس.

ويطلق على هذا القياس في النحو اسم قياس الظواهر، وفيه تقاس الأحكام على الأحكام، بمعنى أنه قياس على القواعد المصوغة وليس على النصوص، وهذا النوع من القياس لم تعرفه العرب، ولم تسمع عنه، وإنما هو من صنيع النحاة الذين استخدموا التعليل لاستخراج قواعد لم ترد عن أصحاب اللغة، الأمر الذي به قد تشعبت اللغة، وفسد النحو¹.

ويرى محمد الخضر حسين أن قياس التمثيل يكون صحيحا إذا كان وجه الشبه بين الأصل والفرع واضحا، أو ظهر أن ما نكره المستدل على وجه التعليل هو العلة التي تربط بها حكم الأصل، وأنه لا يوجد بين الأصل والفرع فارق، يؤثر في عدم تعدية حكم الأصل إلى الفرع؛ مثل ما أجازه بعض النحاة في تقديم معمول الفعل المنفي ب "لن": كقولنا: (زيدا لن أضرب) كما جاز قولهم: (زيدا سأضرب)، وأن لا يكون حكم الأصل مخالفا للأصول، خارجا عن حد القياس².

أما المنكرون لهذا القياس فقد فرقوا بين "السين" و"لن"؛ إذ أن حرف النفي يقتضي الصدارة في الجملة التي يدخلها، ولا يقتضي ذلك حرف التنفيس. ثم يرجع محمد الخضر الأمر إلى قوة نظر المجتهد في العربية؛ فإن الأصول التي يجيء حكم الأصل على خلافها تتفاوت في اقتضاء حكمة الوضع لها وخروج العرب عن حدودها، فالأصل الذي يمنع من زيادة الكلمات مثلا أقوى من الأصل الذي يمنع تقديم معمول على العامل، لذلك كانت مخالفة العرب لقانون تقديم معمول على العامل أكثر من مخالفتهم قانون المنع من الزيادة، بشرط أن لا يكون حكم الأصل موضع اختلاف. مثال ذلك: أن الكوفيين ألحقوا فعل التعجب بأفعل التفضيل في جواز بنائه من البياض والسواد، ورد البصريون هذا القياس، على أنه مختلف فيه لأنهم لا يوافقون على حكم الأصل، وهو

¹ / مسعود طواهرية، مرجع سابق، ص 100.

² / زغدودة نيا ب مروش، مرجع سابق، ص 183.

صوغ اسم التفضيل من أسماء الألوان¹.

ويرى محمد الخضر أن القياس المختلف فيه لا يكون حجة على المخالف في حكم الأصل، أما من تقرر عنده حكم الأصل بدليل راجح فله أن يتعلق بمثل هذا القياس في تعديته إلى الفرع².

وقد ذكر محمد الخضر أنواعا أخرى للقياس في كتابه منها:

● **قياس الشبه:** يقيس النحاة بعض أنواع الكلم على بعض، إذا انعقد بينهما شبه من جهة المعنى أو من جهة اللفظ³.

● **القياس في ترتيب الكلمات:** أكد محمد الخضر حسين على التناسب الطبيعي الذي "يقتضي أن تذكر الكلمة التابعة عقب الكلمة المتبوعة (المعطوف عليه يتقدم على المعطوف، الموكد على التوكيد، المبدل منه على البدل...)" والذي يجيز تقديم كلمة تابعة على متبوعها، تقبل دعواه متى ما كانت مصحوبة بدليل⁴.

● **القياس في الفصل:** المتمثل في الألفاظ المربوطة ببعضها من جهة المعنى فالأصل أن لا يفصل بينها فاصل، غير أنهم خالفوا هذا الأصل، فركزوا على قوة الارتباط وضعفه؛ إذ فصلوا بين ما ضعف ارتباطهما، ولا يمكن ذلك بين ما كان الارتباط بينهما قويا، مثل: الموصول العامل (أن) المصدرية فقد منعوا الفصل بينه وبين صلته، وأجازوا الفصل بين الموصول غير العامل ووصلته (ما) المصدرية لأن الموصول العامل اشد اتصالا بصلته، فهو طالب للصلة من جهة المعنى والعمل⁵.

¹ / المرجع السابق، ص184.

² / زغودة نياح مروش، مرجع سابق، ص184.

³ / المرجع السابق، ص184.

⁴ / محمد الخضر حسين: **القياس في اللغة العربية**، مصدر سابق، ص105.

⁵ / المصدر السابق، ص107، 108.

ثانيا: رأي محمد الخضر في المصادر اللغوية للقياس

1/ القرآن الكريم وقراءاته

يقول محمد الخضر في تقرير حجية هذا النص اللغوية: "وأفضل ما يحتج به في تقرير أصول اللغة: القرآن الكريم، فإنه نزل بلسان عربي مبين، ولا يمتري أحد في أنه بالغ في الفصاحة وحسن البيان الذروة التي ليس بعدها مرتقى"¹.

يرى محمد الخضر أن مكانة القرآن الكريم اللامتناهية في الفصاحة والبلاغة تقضي بالاحتجاج به في كل حال، فيقرر قائلاً: "فأخذ بالقياس على ما وردت عليه كلمه وآياته من أحكام لفظية، ولا فرق عندنا بين ما وافق الاستعمال الجاري فيما وصل إلينا من شعر العرب ومنثورهم، وما جاء على وجه انفرد به، ولا نتبع سبيل من يحدون عن ظاهره، ويذهبون به مذهب التأويل، ليوافق آراءهم النحوية"².

ويدعم الخضر موقفه هذا بأقوال بعض العلماء كالفخر الرازي في تفسيره، وابن حزم الظاهري في كتابه الفصل، واللذين انتقدا مسلك النحاة الذين تعصبوا لمنهجهم وآرائهم النحوية على حساب كلام الله خالق اللغات، بتفضيل غيره من كلام العرب ومحاولة صرفه عن وجهه وتأويله عن سبيله³.

ويرتكز في ذلك على قول الرازي: "إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول، فجاز إثباتها بالقرآن العظيم أولى"، لذلك فإن مكانة القرآن الكريم تقضي بالاحتجاج به في كل حال، بعيدا عن التأويل والتعسف في التقدير⁴.

¹/ محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص 34، 35.

²/ المصدر السابق، ص 34، 35.

³/ المصدر نفسه، ص 36.

⁴/ زغدودة نيا ب مروش، مرجع سابق، ص 183.

وإذا انتقلنا مع محمد الخضر من الجانب النظري إلى الحيز التطبيقي وجدناه يحتج بأحكام لفظية وردت في القرآن الكريم وقراءته منعها أو ضعفها الكثير من النحاة فمن ذلك:

أ- تجويزه حذف أن المصدرية في نحو: (تسمع بالمُعَيِّدِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ) واعتراضه على النحاة لما اعتبروه من قبيل ما يحفظ ولا يقاس عليه، وقد استند في تخريج مذهبه على قوله تعالى: [وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ حَوَافًا ظَمَعًا...] (الروم/24)، فيرى الأخذ بأحسن طرق البيان أن يجري حذف أن المصدرية كما ورد في الآية مجرى ما يصح القياس عليه، ولا يرى وجها مسوغا لصرف الآية إلى مسالك التأويل الذي يسيء إلى البلاغة القرآنية¹، وهو بهذا المسلك يتيح للعربية مزيدا من السعة في التعبير غير مكترث بآراء النحاة التي هي صناعة تقوم على الرأي والنظر العقلي.

ب- الاحتجاج لمن قدّم معمول المصدر على المصدر متى كان المعمول ظرفا أوجارا ومجرورا، وإن منعه جماعة من النحاة، فلو قال أحد: رزق فلان على خصمه الفوز، أو قال: يعجبني أمام السلطان تكلمك بالحق بما جاء في القرآن، لحكم له بالفصاحة ذلك لمجيء كلامه على قوله تعالى: [...وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ...] (النور/02) وقوله تعالى: [فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ...] (الصافات/102) الشاهد في الآية الأولى (بهما) تقدم على رأفة، وفي الثانية (معه) تقدم على السعي².

ت- قبول محمد الخضر كلمة معائش الواردة في قراءة الإمام نافع بهمز (معائش) في قوله تعالى: [وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ] (الأعراف/10)، فقد قرئت بالياء من غير همز لكل القراء، وهو القياس، لأن الياء في المفرد هي أصل لا زائدة فتهمز نحو: صحائف صحيفة.

يرى محمد الخضر أن هذه الكلمة- وإن خرجت عما نسميه قياسا- قد وردت في

¹ / محمد الخضر حسين، دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص 34، 35.

² / المصدر السابق، ص 34-35.

قراءة صحيحة، يصح لنا أن نعطيها حكم استحوذ واستصوب، فنتكلم بها ثقة بأنها كلمة لا شبهة في فصاحتها، ولكننا نرجع بأمثالها إلى حكم القياس، وهو أن مفاعل لا تقلب الياء فيه همزا متى ما كانت الياء عينا في بناء مفردة¹.

ث- تجويز محمد الخضر الفصل بين المضاف والمضاف إليه بمعمول المضاف، نحو: ضربُ عمرا زيد، استنادا لقراءة ابن عامر في قوله تعالى: [وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْذُوهُمْ وَيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ] (الأنعام/137)، وقد قرأها بضم زاي زين وبفتح أولادهم وكسر شركائهم، فأنكر بعضهم هذه القراءة، وذهب بها آخرون مذهب التأويل والتقدير، ومحمد الخضر حين يعترض على النحاة في مسألة الفصل بين المتضايين وعلى احتجاجهم بأنه من القليل الذي لا يطرد ووصفه بالشذوذ، وردهم لمثل هذه القراءة الصحيحة بحجة أنها غير مقيسة وموقوفة على السماع، يرى أن منهجهم في هذا أوهى من بيت العنكبوت، إذ الأولى بهم تسديد القياس على ما جاء به القرآن الكريم، لأن فيه تقويما لمنهج التقعيد وزيادة في أساليب القول وفتح طرق يزداد بها بيان العربية سعة عن سعة².

هذا وقد يعترض أحد على محمد الخضر فيقول: إن الذوق ينفر من صورة المعنى الذي يفصل فيه بين المضاف والمضاف إليه بأحد معمولات المضاف، فيرد عليه قائلا: "الحق أن نتلقى القراءة المتواترة بالقبول، ولا نحمل الآية ما لا تطيقه بلاغتها من التعسف والتقدير، بل نبقئها على ظاهرها، ولا نسلم أن الفصل في مثل هذا مخالف للفصاحة، بالأحرى بعد أن أورد له ابن جني في الخصائص شواهد متعددة، ولا أخال يعول أحد في مثل هذا على ذوقه، فإن مثل هذا لا يرجع إلى ملاءمة الأذواق الخاصة، بل مداره على ما يجري به الاستعمال ويثبت في الرواية³.

¹ / محمد الخضر حسين، دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد 6، المصدر السابق، ص 48 - 49.

² / مسعود طواهرية، مرجع سابق، ص 176.

³ / محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد 6، المصدر السابق، ص 34.

وحتى يثبت محمد الخضر أن حكم الفصل بين الكلم لا يرجع فيه إلى الذوق الخاص، وأنه عائد إلى الاستعمال الفصيح لجأ إلى علم اللغة المقارن، فوجد أن اللغات تختلف فيه اختلافا كبيرا، ففي اللسان الألماني - مثلا- يفصلون بين أداة التعريف والمعرف بجمل كثيرة، وربما كان الفعل مركبا من قطعتين، فيضعون القطعة الأولى في صدر الكلام، ويلقون الأخرى في نهايته... ولا شبهة أن ارتباط أداة التعريف بالمعرف أو بعض أجزاء الكلمة ببعض لا يقل في شدته عن ارتباط المضاف بالمضاف إليه، ولا ننسى أن للمصدر المضاف صلة بمعموله تشبه صلته بالمضاف إليه.¹

02/ الحديث الشريف

أماط محمد الخضر اللثام عن كل جوانب الاحتجاج بالحديث، فاستعرض موقف المانعين والمجوزين له، وانتقد حجج كل فريق، ورد على شبهاتهما، ويمكن أن نجمل انتقادات الخضر لحجج الفريقين والنتائج التي توصل إليها.

أ/ نقد حجج المجوزين:

إن أكبر حجة استند عليها هذا الفريق هي أن تدوين الحديث وقع في الصدر الأول قبل فساد اللغة العربية، وحين كان كلام الرواة يسوغ الاحتجاج به، وغايته يومئذ تبديل لفظ يحتج به بآخر كذلك. وقد أكد هذا الادعاء ابن خلدون، ورد عليه بعض المحققين، فقال: إن تدوين الأحاديث وقع بعد فساد اللغة وأمام هذه الشبهة عاد محمد الخضر إلى تاريخ تدوين الحديث وطبقاته، وإلى بداية فساد اللغة، لينظر بعد هذا إلى حال اللغة من جهة ما دخلها من الفساد، وينظر ما يكون لهذا الفساد من أثر في رواية الحديث.²

وبعد البحث والتحقيق يصل محمد الخضر إلى نتيجة، تؤكد أن دعوى أن الأحاديث

¹ / محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد6، المصدر السابق، ص37-38.

² / المصدر السابق، ص175.

دونت قبل فساد اللغة، وأن كلام المدونين لها يسوغ الاحتجاج به في اللغة، غير مطابق للتاريخ من كل وجه، ولو تمّ تدوينها على نحو ما قرره ابن خلدون، لقامت لها الحجة الفاصلة على الاستشهاد بالحديث في اللغة من غير أن تحتاج إلى دليل آخر يعضدها، والذي نستفيدة من حقائق التاريخ: أن قسما كبيرا من الأحاديث دونه رجال يحتج بأقوالهم في العربية¹.

ب/ نقد حجج المانعين:

وفي شبهة رواية الحديث بالمعنى يرى محمد الخضر: أن كثيرا من الرواة كانوا يكتبون الأحاديث عند سماعها، وذلك ما ساعد على روايتها بألفاظها، فيضاف هذا إلى ما وقع من التشديد في رواية الحديث بالمعنى، وما عرف من احتياط أئمة الحديث، وتحريمهم في الرواية، فيحصل الظن الكافي لرجحان أن تكون الأحاديث المدونة في الصدر الأول مروية بألفاظها ممن يحتج بكلامه².

وأما وقوع اللحن في كثير من الأحاديث، فيجيب عنه الخضر بأن كثيرا مما يرى أنه لحن قد ظهر له وجه من الصحة، وقد ألف في هذا الباب ابن مالك كتابه "التوضيح في مشكلات الجامع الصحيح" وذكر لأحاديث التي أشكل إعرابها وجوها يستبين بها أنها من قبيل العربي الصحيح، وكثيرا ما نرى ألفاظا من الحديث ينكرها بعض اللغويين، فيأتي لغوي آخر فيذكر لها وجها مقبولا أو يسوق عليها شاهدا صحيحا³.

ثم إن وجود ألفاظ غير موافقة للقواعد المتفق عليها - في رأي الخضر - لا يقتضي ترك الاحتجاج بالحديث جملة، وإنما يحمل أمرها على قلة ضبط أحد الرواة في هذه الألفاظ خاصة، وإذا وقع في رواية بعض الأحاديث غلط، أو تصحيف، فإن الأشعار يقع

¹ / محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص 178 - 179.

² / المصدر السابق، ص، 179.

³ / المصدر نفسه، ص 175.

فيها الكثير، وهي حجة من غير خلاف¹.

يخلص محمد الخضر إلى نتائج البحث في الاحتجاج بالحديث، فيقسم الأحاديث إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي:²

• من الأحاديث ما يجب الاحتجاج به في اللغة، وهو على ستة أنواع :

كقوله: حمي الوطيس، وقوله: مات، ما يُروى بقصد الاستدلال على كمال فصاحته حتف أنفه، وكقوله: ارجعن مأزورات غير مأجورات... كألفاظ القنوت والتحيات والأنكار، ما يُروى من الأقوال التي كان يتعبّد بها.

- ما يُروى شاهدًا على أنه كان يُخاطب به كلّ قوم من العرب بلغتهم.

- الأحاديث التي وردت من طرق مُتعدّدة، واتحدت ألفاظها.

- الأحاديث التي دُونها من نشأ في بيئة عربية خالصة، كمالك بن أنس والشافعي وغيره.

- الأحاديث التي رواها من لا يُجيزون الرواية بالمعنى، كابن سيرين والقاسم بن محمد وغيره.

* أحاديث لا يُحتجّ بها، وهي التي لم تدوّن في الصّدر الأوّل، وإنما تروى في بعض كتب المتأخرين.

* الأحاديث التي هي محلّ خلاف في الاحتجاج بها والتي دُوّنت في الصّدر الأوّل، وليست من الأنواع الستة السالفة الذكر، وهي نوعان:

- الحديث الوارد على وجه واحد فالظاهر صحّة الاحتجاج به، لأنّ الأصل الرواية باللفظ .

¹/ المصدر نفسه، ص 179.

²/ محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص 181 - 183.

-الأحاديث التي اختلفت فيها الرواية ... فنجز الاستشهاد بما جاء في رواية مشهورة،
وأما ما يجيء في رواية شاذة، أو رواية طعن فيها المحدث، فلا يحتجّ به.

03/ الاحتجاج بكلام العرب

إن كلام العرب هو المصدر الثالث من مصادر المادة اللغوية المسموعة عن العرب، والمقصود به، ما أثر عنهم من شعر ونثر قبل الإسلام وبعده إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين وشيوع اللحن.

ومن كلام العرب الذي خصه محمد الخضر بالدراسة والنظر الشعر، والذي هو ديوانهم وسجل أخبارهم وناقلة لغتهم ولسانهم، وقد أحله اللغويون محله من أدلة الصناعة اللغوية، فيقول محمداً طبقاته ومقياسه: " ويعتمد في تقرير أحكام اللفظ على أشعار الجاهلية كامرئ القيس وزهير، والمخضرمين وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام كحسان وليد، والإسلاميين وهم الذين نشأوا في صدر الإسلام كالفريزديق وذو الرمة، وأما المحدثون وهم المولدون، وتبتدئ طبقتهم ببشار بن برد، فلا يحتج بشيء من أشعارهم في أحكام اللسان"¹

وحين نتبين موقف الخضر نجده قد سلك مسلك النحاة القدماء في صرامة التزام الفصاحة العربية المرتبطة بالزمان والبعد عن اللحن معياراً علمياً ضرورياً لضمان صحة استقراء الشواهد وسلامة بناء القواعد عليها وقد اعتمد هذا المنهج نظرية وتطبيقاً.

اجملاً يمكن القول، إن كتاب "القياس في اللغة العربية" يعد مصدراً من مصادر اللغة العربية الذي يجب الاعتماد عليه في الدراسات اللغوية، فقد احتوى على آراء الشيخ التي أنارت الطريق وبسطت الوعر وجعلته في متناول الباحثين، وقد اعتمد محمد الخضر في حديثه عن القياس على آراء من سبقوه، فيذكر: الزمخشري، ابن جني، أبا حيان

¹ / محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص40.

التوحيدي، ابن حزم، الأخفش، السيوطي، سيبويه وغيرهم، وكان في كل مرة يبين موقفه من هذه الآراء، كما اعتمد في تبسيط افكاره على أمثلة واضحة، وشواهد تمكن الباحث من الفهم السريع.

المطلب الثالث: جهود محمد الخضر في بيان فضل اللغة العربية والدفاع عنها

عمل محمد الخضر حسين على الكشف عن فضل العربية، وأهم خصائصها ومظاهر التطور فيها، ووسائلها الزاخرة التي تحقق لها النمو، وتجعلها تواكب العلوم والفنون باستمرار، وتلبي مستجدات الحضارة ومتطلبات الحياة المعاصرة، وقد أورد أمثلة واضحة عن شرف منزلة اللغة العربية وفضلها وتميزها بخصائص عن باقي اللغات الأخرى وأهمها:

• فصاحة مفردات اللغة العربية

العرب من طبعهم انتقاء الأجود واختيار الأوضح، وأفصح لغات العرب لغة قريش، وفضلت على سائر اللغات - كما يرى محمد الخضر- بوجهين:¹

-أحدهما: بعد القرشيين عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ولهذا لم يحتج أهل الصناعة العربية إلا بلسانهم، أو ما كان قريبا منهم، ولم يعتمدوا لغات القبائل التي تجاور غيرها من الأمم.

-ثانيهما: أن العرب كانوا يفدون عليهم في موسم الحج، ويقيمون عندهم قرابة خمسين يوما، فيتخيرون من لغات تلك الوفود ما تعادلت حروفه، وخف وقعه على الأسماع، ويرفضون كل ما يثقل على الذوق، ولا يجد في السمع مساغا.

كما يشيد محمد الخضر في بناء العربية بقاعدة الاعتدال، فأكثر كلماتها وضعت على ثلاثة أحرف، فالثلاثي يبتدئ فيه المتكلم بحرف، ويعتمد على ثان، ثم ينتهي بحرف

¹ / محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص132.

آخر، فيكون في آلة النطق أمكن: ويساعده على أن ينحو في هيئة خطابه نحو المتانة والانسجام.¹

ومن المسلم به أن الخضر حسين واحد من أولئك الباحثين المهتمين باللغات الأجنبية، ومن المقاربين لمسائل اللغة العربية باستعمال هذه اللغات، والباحث في تراثه يجده معتمدا على اللغة الألمانية بالدرجة الأولى، ثم باقي اللغات بدرجة أقل، كالتركية والفارسية، والإنجليزية.²

وقد اعتمد محمد الخضر على المنهج التقابلي أثناء مقاربتة الظواهر اللغوية التي تشترك فيها اللغات البشرية، حيث أجري مقارنة بين العربية وغيرها في هذه القاعدة، فوجد الحرف الواحد يتكرر في بعض الألسنة في الكلمة الواحدة كثيرا، لضيق كلام غير العرب أو لخروجه عن الاعتدال نحو تكرر الطاء والسين في لسان اليونان، ونحو الحروف الكثيرة التي هي اسم لشيء واحد في لسان الترك، ولذلك لا يمكن أن ينظم من الشعر في تلك الألسنة على الأعاريز التي تكمن في العربية.³

ولكنه يؤكد من جهة أخرى، أن العربية تشارك غيرها من اللغات بعض الظواهر، فوجود ظاهرة لغوية في العربية مثلا لا ينفي وجودها في غيرها من اللغات، وبهذا الرأي ينفي الخضر ذلك التصور الشائع عن اللغة العربية في كونها تتفرد بخصائص لا توجد في غيرها من اللغات، وحينما أراد الدفاع مثلا عن قراءة ابن عامر للآية 37 بعد المائة الأولى من سورة الأنعام، والتي فصل فيها بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول به، أثبت أن ظاهرة الفصل بين عناصر الجملة تشترك فيها العربية والألمانية.⁴

• تأثير الإسلام في اللغة العربية:

¹ / المصدر السابق، ص134.

² / كمال مجيدي، مرجع سابق، ص141.

³ / مسعود طواهرية، مرجع سابق، ص118.

⁴ / كمال مجيدي، مرجع سابق، ص93.

يرى محمد الخضر أن اللغة العربية كانت في عهد الجاهلية تعبر عن حاجات القوم، وما تجود به قرائحهم، أو يجري في مخيلاتهم من صور المعاني، فما كانوا ليحسوا نقصا في لغتهم، وإنك لترى المذاهب التي كانوا يطلقون فيها أعنتهم، كالفخر والنسب، فسيحة الأرجاء إلى أقصى ما يبلغه الناشئ في مثل بيئتهم، الآخذ من المعاني المحسوسة أو المعقولة، ومن نظر في أشعارهم وخطبهم ومحاوراتهم، وجد من جودة تصرفهم في المعاني، وحسن سبكهم للألفاظ ما دله على أنهم كانوا يرسلون الفكر والخيال، ويصوغون ما شأؤوا من المعاني، فيجدون في ألفاظ لغتهم وأساليبها ثروة تساعدهم على أن يقولوا فيبدعوا ولما طلع الإسلام على العرب جاء في هدايته من المعاني ما لم يكونوا يعلمون، إذ عبر عن هذه المعاني بألفاظ ازدادت بها اللغة نماء¹.

أما الأسباب التي ارتقت بها اللغة في صدر الإسلام حتى بلغت أشدها، وأخذت زخرفها، فيرجعها الخضر إلى ثلاثة عوامل وهي²:

■ ما جاء به القرآن الحكيم من صورة النظم البديع، والتصريف في لسان العرب على وجه يملك العقول، فإنه جرى في أسلوبه على منهاج يخالف الأساليب المعتادة للفصحاء، وإن لم يخرج عن قوانين اللغة.

■ ما تفجر في أقوال الرسول عن ينابيع الفصاحة، وما جاء في حديثه من الرقة والمتانة والإبانة من الغرض دون تكلف.

■ ما أفاضه الإسلام على العقول بواسطة القرآن والحديث من العلوم السامية، وبما نتج عن تعارف الشعوب والقبائل، والتثام بعضها ببعض من الأفكار ومطارحة الآراء، فانتساع العقول وامتلاؤها بالمعارف يرقى مداركها، ويزيد في تهذيب ألمعيتها، فتقذف بالمعاني المبتكرة، وتبرزها في أساليب مستحدثة.

¹ / محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص 09.

² / المصدر السابق، ص 126 - 127.

• اتساع وضع اللغة العربية:

قسم محمد الخضر اللغات إلى قسمين: راقية وغير راقية، فغير الراقية ما كانت موادها قليلة: لا يسع التعبير بها لأكثر مما تمس الحاجة إليه، مثل اللغات الزنجية ولغة بعض سكان أستراليا، وهذه الأخيرة ناقصة جدا لا يمكن التفاهم بها إلا مع إشارات حسية، والراقية ما غزرت مبانيتها، واتسعت طرق دلالتها، فكانت موفية بتأدية المراد مع الاستغناء عن الإشارة، وعدم الاعتماد على قرائن الأحوال في الأكثر مثل اللاتينية والفارسية والعربية¹.

ومن أبرز مظاهر رقي العربية واتساعها في رأي الخضر الترادف الذي يقوم بسداد الحاجة من أبنية الكلم وبزيادة في حسن التعبير، فتعدد ألفاظ المعنى الواحد فيه سعة في وسائل التفاهم، حتى لا تأخذ المتكلم حبسة أثناء الخطاب، فإذا غاب عنه لفظ وسعه أن يأتي بمرادفه، وإذا تعسر عليه النطق بكلمة كالألتغ عدل عنها إلى غيرها، وقد يضطر المتكلم إلى إعادة المعنى، فلا يعجزه أن يعيده بغير اللفظ الذي عبر به أولا، فيخلص كلامه من كراهة التكرار.²

ومن مزايا العربية التفريق في النوع، فقد وجد محمد الخضر بعض اللغات خالية من علامات التمييز بين المذكر والمؤنث، كاللغة الفارسية والتركية والإنجليزية، وميّزت العربية المؤنث عن المذكر بوضع الألف في اسم أو التاء في اسم وفعل، كما فرقوا بينهما في الضمائر والموصولات وأسماء الإشارة.³

يرى الخضر أن من أبرز خصائص العربية جمع التكسير، وجمع الاسم الواحد على

¹ / محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص 149.

² / المصدر السابق، ص 149 - 150.

³ / المصدر نفسه، ص 150.

عدة أمثلة، وهذا لا يشاركها فيه غيرها، حتى اللغتان اللتان يجتمعان معها في أصل واحد "العبرانية والسريانية"، ويوجد جمع التكسير في اللغة الجيزية من لغات بلاد الحبشة، لأنها تفرعت في الأصل عن العربية¹.

• طرق اختصار اللغة العربية:

يقول محمد الخضر عن دوافع الاختصار والأساس الذي بنيت عليه لغة العرب: "... أن الإنسان قد تدعوه الحاجة إلى الحديث في شأن، ويضيق به الوقت في التوسع في البيان، أو يجد في نفسه ضجرا يثقل الكلام على لسانه، فوضعوا في الأساس الذي بنيت عليه لغتهم قاعدة الاختصار، ويجري في كلامهم على وجوه يرجع الفضل في بعضها إلى حكمة الواضع، ومنها ما تعود المزية فيه إلى اقتدار المتكلم ولطف تصرفه"².

ومن أبرز مظاهر الاختصار التي روعيت في كثير من المفردات العربية حال وضعها: "وضع الضمائر لتتوب عن الأسماء الظاهرة، وإقامة التثنية والجمع مقام العاطف والمعطوف، واستغنوا بتغيير الكلمة في التصغير عن وصف المسمى بالصغر بعد ذكر اسمه، وهو ما لا نجده في لغات كالإنجليزية والفرنسية، وفي وضع أدوات الشرط زيادة على التعليق الدلالة على جنس المعلق عليه من عاقل وغيره، أو مكان أو زمان أو حال، فاكتفوا بالأداة نفسها عن التصريح به من بعد، وكذلك صنعوا في أدوات الاستفهام حين أدخلوا في مفهوماتها فضلا عن طلب الإعلام الدلالة على جنس المسؤول عنه، فإذا علمت أن أحدا عند المخاطب، وقصدت لاستكشاف حاله لتعرفه بعينه، فهنا لا تفيدك الهمزة في طلب تعيينه مثلما تفيدك كلمة من، كما يذكر محمد الخضر حروف العطف لإغنائها عن إعادة العامل، ودلالاتها فوق ذلك على معان أخرى، كمعنى التعقيب والترتيب المستفاد من الفاء، والترتيب والمهلة المستفاد من ثم"³.

¹ / محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص 150.

² / المصدر السابق، ص 144.

³ / المصدر نفسه، ص 145.

ومن مظاهر الاختصار تصريف الكلمة، ومن اللغات الراقية مالا ينصرف، مثل اللغة التركية، وبدخول الصرف في العربية تيسر في اللفظة الواحدة أن تدل على معان، مثل قولنا: تحاربوا يدل بواسطة صيغته الخاصة على وقوع الحرب بين جماعة، وطبيعة المعنى تقتضي أن لا يعبر بأقل من أربع كلمات.¹

وتعتبر ظاهرة الحذف من أبرز خصائص العربية، وهي ظاهرة تشيع في كلام العرب، وتهدف في كل مواقعها إلى التخفيف والإيجاز، ويوجز محمد الخضر هذه الخاصية بقوله: "شرع العرب سنة الحذف، فيضمرون الكلمة، والجملة فما فوقها، وينبهون على المحذوف بقريئة المقال أو المقام".²

• ميزة الإعراب:

يعد محمد الخضر الإعراب من مزايا اللغة العربية، فبالإعراب استشعر العرب حاجتهم إلى التفرقة بين معان ينبنى على تمايزها فهم المراد من الجملة، كتمييز الفاعل والمفعول والمضاف إليه، والمسند والمسند إليه، والإعراب يؤدي ما لا تؤديه اللغات المبنية في دقة التعبير والإيجاز وتنوع المعاني بأقل قدر من الكلمات، وقد ثبت أن حكم الإعراب مما يوجد له أثر في اللغتين اليونانية والألمانية، وإن كانت العبرة في لسان العرب به أزيد، وعنايتهم به أقوى.³

• ارتقاء اللغة مع المدنية:

يرى محمد الخضر أن العربية واكبت التطور بعد الإسلام، فكثير من ألفاظها وقع التصرف فيه، فنقلت إلى معان جديدة مثل: الصلاة والصوم والحج، والمنافق والفاسق والمخضرم، ولما دونت العلوم على اختلاف فنونها، وحدثت معان لم تكن اشتقوا لها

¹ / محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص146.

² / المصدر السابق، ص147.

³ / المصدر نفسه، ص145.

أسماء من اللغة، وأجروها مجرى العربي الصحيح في الاستعمال، ولم يقتصروا على الاشتقاق من العربية وسلخوا طريقة العرب في الاقتباس من غير لغتهم، فنقلوا جملة من الكلمات الأعجمية واستعملوها بحالها¹.

ويرد الخضر على الذين يتهمون العربية بأنها ضيقة النطاق، ولا يمكن أن تستوعب أسماء المخترعات الجديدة، بأن هذه القضية تردّها شهادة التاريخ والعلم، فالتاريخ يثبت أن علوم الطب والهندسة والحساب والفلك والمنطق وغيرها قد ترجمت في عهد الدولة العباسية، ودونت بالقلم العربي، وأصبحت تدرس بلسان عربي مبين.

أما شهادة العلم، فإننا يمكننا أن نضع لهذه المعارف الحديثة أسماء عربية، وهو أحسن الطرق وأفضلها، ولما كانت العربية من اللغات المتصرفة يشتق منها اسم الفاعل واسم المفعول، والمكان والآلة، فقد سهل ذلك الطريق إلى وضع أسماء مفردة لهذه المستحدثات، فإن أكثرها من قبيل المكان أو الآلة، أو الموصوف بالفعل، وهناك وسيلة أخرى هي طريق المجاز، فإذا عرض لنا معنى جديد نظرنا إلى لفظ يتناوله على وجه عام أو مستعمل في معنى يقرب منه، وعلقناه عليه، مثل قطار، بريد، منطاد، عربة، وبعد هذه الوسائل فإن العربية تتلقى ما يرد عليها من الألسنة الأخرى، فلا مانع من أن نقبس أسماءها الموضوعة لها في اصطلاح مخترعيها عند استحسانها وتهذيبها².

وقد دعا محمد الخضر إلى الاستفادة من صور الاشتقاق والمجاز والتعريب وغيرها من الآليات التي تستخدمها اللغة العربية، لتجدد خلاياها حتى تتناسب العصر ومحدثاته، وفي ظل مؤسسة علمية جامعة تسير العلوم والمدنية، ومع احتفاظها بأصولها وألفاظها وقواعدها، فهي لغة الأدب والعلم والحضارة، لغة مفعمة بالحياة، تستوعب متطلبات الفنون والعلوم، وتواكب مستجدات العصر وحاجاته.

¹ / محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص 149.

² / المصدر السابق، ص 161، 162.

كما أشار إلى هذه الوسائل التي تزخر بها اللغة العربية والتي تكفل لها استيعاب حاجات العلوم والحضارة الوافدة والمتجددة بقوله: "وسعت هذه اللغة العلم والسياسة والصناعة وضروب المعاملات ... وساعدها على ذلك كله غزارة مادتها، وما تفتح فيها من أبواب الاشتقاق والتصريف في الكلمة على وجوه المجاز أو النقل، ثم تهيؤها لقبول الكلمات الأعجمية بعد تهذيب حروفها، وحيث تدعو الحاجة إلى تعريبها"¹.

أما موقفه حيال التعريب، فيرى أن أحسن الطرق وأفضلها أن نضع لهذه المعارف الحديثة أسماء عربية، لئلا تكثر الألفاظ الدخيلة، وتتغلب على ما هو عربي، فتقول بكثرتها إلى انحراف الكلام عن صبغته العربية، فإن اللغات تتمايز بالأساليب، وبالمفردات إلا ما كان قليلاً².

وهذا المطلوب يبدو صعب المنال حسب مسعود طواهرية، بل يكاد يكون مستحيلاً بسبب التدفق الهائل للألفاظ الأجنبية في شتى المعارف والفنون، وما يقابلها من بطء وصعوبة في وضع ما يقابلها من ألفاظ ومصطلحات عربية³.

وعلى الرغم من هذا الموقف المتشدد والمتحفظ إلا أن الخضر يجيز الاستعانة بالتعريب في سد حاجة العربية من المفردات والمصطلحات، وذلك بعد استياء الطرق الأخرى المتاحة كالترجمة والاشتقاق والنقل والنحت، ويشترط ضوابط، فيقول: "وبعد هذه الوسائل، فإن العربية تتلقى - كما علمنا - ما يرد عليها من الألسنة الأخرى، وتقبله بقبول حسن، بعد تنقيحه وسبكه في قالب عربي، فلا مانع من أن نقتبس أسماءها الموضوعية لها في اصطلاح مخترعيها عند استحسانها، وتهذيبها ثم نحشرها في زمرة ما هو عربي فصيح"⁴.

وقد تبنى هذا الموقف مجمع القاهرة، وقيده بالضرورة خشية أن تغمر لغتنا العربية

¹ / محمد الخضر حسين، دراسات في اللغة، الموسوعة، مجلد6، مصدر سابق، ص 4، 5.

² / محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص 161.

³ / مسعود طواهرية، مرجع سابق، ص 155.

⁴ / محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد6، مصدر سابق، ص 162.

بطوفان من الألفاظ الأجنبية التي قد تفقدها طابعها وخصائصها، وقد أشاد محمد الخضر بموقف مجمع القاهرة في مواجهة مشكلة التعريب قائلاً: "ومع ما أحرزته اللغة من الثروة الواسعة، والمقاييس التي يمكننا أن نتصيد بها من الأسماء مانشاء، لم يقف المجمع وقفة الرفض لكل مصطلح علمي أجنبي، بل أبقى باب التعريب أمامه مفتوحاً، حتى إذا دعت ضرورة إلى قبول اسم غير عربي، والحاقه بالمصطلحات العربية الصميمة، أجاب داعي الضرورة، وله بالعرب قديماً أسوة، إذ قالوا: الترياق، والقولنج، والنقرس، والكيروس، والكلمات الأربع يونانية، وقالوا البرسام لذلك المرض الصدري، والكلمة فارسية"¹.

كما فكّر محمد الخضر في مسألة المصطلحات، وتفكيره هذا يشير إلى اهتمامه بخدمة اللغة العربية من حيث وضعها الداخلي، وذلك بإنتاج أدوات تساهم في نموها، كوضع المصطلحات مثلاً، وهذا لاقتناعه بأن العربية لغة علمية قادرة على مسايرة عصرها، وإنتاج ما لا حصر له من الألفاظ واستيعاب كل المفاهيم التي تنتجها المدنية².

ودعا محمد الخضر إلى الاستفادة من منهج العرب القدماء في وضع مصطلحاتهم خاصة في العصر العباسي، ولهذا الغرض بحث الخضر طرق وضع المصطلحات الطبية، واستقرأ جهود العلماء العرب القدماء أمثال ابن سينا وأبي القاسم الزهراوي وغيرهم، ودعا إلى الاستفادة من منهجهم ومصطلحاتهم، وقد كشف عن خطتهم في وضع مصطلحات هذا العلم، فقال: "التفت علماء الطب إلى الألفاظ العربية التي وضعت لمعان تدخل في علمهم، أو تتصل به نحو: أسماء العلل، وأسبابها، وأعراضها، وأطوارها، وآثارها، وأسماء الأعضاء والأجزاء منها، ظاهرة كانت أو باطنة، وأسماء ما يركب منه الأدوية من نحو: النبات، والمعادن، وأسماء الأدوات التي يستعان بها على مداواة التفتوا إلى هذه الكلمات واستعملوا كثيراً منها في معانيها المعروفة في اللغة"³.

¹ / محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص 259.

² / كمال مجيدي، مرجع سابق، ص 116.

³ / محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص 238 - 239.

ثم يقف عند الأسباب التي جعلت الطب في هذه المرحلة من تاريخ الأمة العربية الإسلامية، يخرج في لغة عربية فصيحة، وهي أن الطب وقع بين أيدي أطباء درسوا اللغة العربية، وصاروا أئمة فيها، وهذه النظرة تشير إلى مسألة تميز العلماء القدماء بالفكر الموسوعي، وإذا بحثنا عن قيمة هذه الآراء في ضوء آراء المهتمين بوضع المصطلحات وخاصة ما يتعلق بمجال الطب، ألفينا تقاطعها مع هذه البحوث، بل سجلنا سبقا زمنيا في تناول مثل هذه المواضيع¹.

وقد أدت التجربة الطويلة التي مارسها الخضر في اختيار المصطلح، وتقسيه أساليب النقلة الأوائل التي نهجوها في التعريب إلى تأصيل قواعد ومبادئ في وضع المصطلح العلمي أهمها:

-وضع أسماء عربية للمعارف الحديثة:

يقول محمد الخضر: "يمكننا أن نضع لهذه المعارف الحديثة أسماء عربية، وهو أحسن الطرق وأفضلها، لئلا تكثر الألفاظ الدخيلة، وتتغلب على ما هو عربي فتؤول بكثرتها إلى خروج الكلام وانسلاخه عن صيغته العربية، فإن اللغات تتمايز بالأساليب وبالمفردات إلا ما كان قليلا"².

-اختيار الألفاظ المستأنسة والمستساغة:

وعلة ذلك في رأي محمد الخضر أن الألفاظ العربية تختلف من حيث أنس السمع بها، وإساغة الذوق لها، وقد لاحظ المجمع هذا فيما يضعه من المصطلحات، فإذا وجد في المعجمات مثلا توحش فلان أي أخلى معدته من الطعام لشرب الدواء، أثر عليها كلمة تحامى للدواء، لأن الذوق يستسيغها أكثر من كلمة توحش³.

-المحافظة على المصطلحات القديمة:

¹ / كمال مجيدي، مرجع سابق، ص122.

² / محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص161.

³ / المصدر السابق، ص 249.

لما درس محمد الخضر مؤلفات الأطباء القدامى، وجد فيها مصطلحات محكمة الوضع، فدعا إلى المحافظة عليها ما وجد لها وجهها تدخل به في حدود العربية، ويؤكد سير هؤلاء الأطباء بهذا العلم تحت ظلال اللغة ومقاييسها.¹

-تفضيل المصطلح المفرد على المصطلح المركب:

يقول محمد الخضر في مزايا المصطلح المفرد على المركب: "ومن المعروف في وضع المصطلحات تفضيل المفرد على المركب والمجمع يحافظ على هذا القصد، فيؤثر المفرد على المركب إلا أن يكون في المركب مزية تدعو إلى اختياره، فلو أراد المجمع أن يضع لفظاً للموضع الذي يتداوى فيه بحرارة الشمس، لا أحسبه يعدل عن كلمة المَشْرِقة إلى لفظ آخر، فإن المشرقة موضع القعود في الشمس للتمتع بدفئتها، وهذا المعنى متحقق فيما يقال له: الحمام الشمسي"².

ومن أجل ذلك كان يفضل التعريب أحيانا على الترجمة، فمثلا ترمومتر المعربة أخف جدا من ترجمتها بقولك مقياس الحرارة، ومثلها كلمة زوم للعدسة ذات البعد البؤري المتغير.³

-تجنب الترادف والمشارك اللفظي في وضع مصطلحات العلوم:

دعا محمد الخضر إلى تجنب الترادف في وضع المصطلحات قائلا: "لواضعي المصطلحات وجه من الحق في تخصيص كل اسم بنوع من أنواع ذلك المعنى متى تعددت أنواعه، وقد سلك المجمع هذا المسلك في طائفة من مصطلحات العلوم"⁴.

كما نبّه الإمام إلى المشارك اللفظي، ففي مجال الطب-مثلا-لاحظ أن بعض

¹ / محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص 246.

² / المصدر السابق، ص 249.

³ / شوقي ضيف: مجمع اللغة العربية في خمسين عاما، مطبعة المجمع، مصر، 1984، ص 134.

⁴ / محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مج 6، مصدر سابق، ص 246.

المعاجم القديمة قد تذكر للكلمة الواحدة معاني طيبة متعددة مثل لفظ الذرب: فساد الجرح، وفساد المعدة، والمرض الذي لا يبرأ، ولهذا نراه يؤكد تجنب اللفظ المشترك في وضع مصطلحات العلوم، مع ضرورة المحافظة على أن يكون للاسم الواحد في العلم الواحد معنى واحد¹.

-ترتيب وسائل وضع المصطلح

أعطى محمد الخضر في ترتيب هذه الوسائل الأولوية لإيجاد لفظ عربي مناسب للمصطلح الجديد، وهذا ما يعبر عنه بالترجمة، ثم ينتقل إلى الاشتقاق، ثم إلى المجاز والنقل، وأخيراً نلجأ إلى التعريب،² وقد عبّر عن ذلك بقوله: "وساعدها على ذلك كله غزارة مادتها، وما تفتح فيها من أبواب الاشتقاق، والتصرف في الكلمة على وجوه المجاز أو النقل، ثم تهيؤها لقبول الكلمات الأعجمية بعد تهذيب حروفها، وحيث تدعو الحاجة إلى تعريبها."³

ويرى مسعود طواهرية أن الخضر قد وفق في اختيار وسائل وضع المصطلحات وترتيبها، ففي البداية بالترجمة استغلال حكيم لثروة العربية الهائلة، وبعث لآلاف الألفاظ المهجورة إلى الحياة من جديد، ثم في الاشتقاق والمجاز فرصة متاحة لاستثمار طاقات العربية المتفجرة في التصريف والتوليد، أما اللجوء إلى التعريب عند الحاجة، ففي هذا حفص لها من غزو الألفاظ الدخيلة، لأن في تغلبها على ما هو عربي خطراً يؤول بكثرتها إلى انحراف الكلام⁴.

¹ / محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص 246.

² / مسعود طواهرية، مرجع سابق، ص 168.

³ / محمد الخضر حسين، دراسات في اللغة، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص 4- 5.

⁴ / مسعود طواهرية، مرجع سابق، ص 168.

المطلب الرابع: نقض الخضر لكتاب " في الشعر الجاهلي "

أثار كتاب "في الشعر الجاهلي" للدكتور طه حسين الذي صدر عام 1926، ضجة كبيرة جعلت أعلامًا كثيرة تنبري للرد عليه ونقد منهجه ونقض ما فيه؛ ذلك أن موضوع الكتاب في ظاهره موجه للشك في الشعر الجاهلي، لكنّه في حقيقته معول لهدم الدين.

وقد كان كتاب "نقض كتاب في الشعر الجاهلي" من بين الكتب العديدة التي انبرت للرد على الدكتور طه حسين، حيث فنّد الشيخ محمد الخضر حسين ما فيه بالحجة القوية، كما كشف عن مجافاة الدكتور طه حسين للحق، وفيما يلي تفصيل هذا:

• تقديم مدخل الكتاب وحوصلته:

بدأ الخضر كتابه بتمهيد تحدث فيه عن نهضة الأمة وحكمتها العربية قديمًا والتي استغلها المصلحون في أن يخطوا بهذه الأمم حديثًا إلى العلم والحرية والاستقلال، فنظر إليها من لا يرغبون في خلاص هؤلاء، وأكبوا على النيل من هداية الإسلام باسم حرية الفكر، ووصف الدكتور طه حسين بأنه عينهم الناظرة وسهمهم الذي يرمون به في مقاتل هذه الأمة، حيث يقول: "تلهج هذه الطائفة باسم حرية الفكر وهي لا تقصد إلا هذا الفن الذي أكبّت عليه صباحها ومساءها وهو النيل من هداية الإسلام والغض من رجال جاهدوا في سبيله بحجة وعزم وإقدام، ويكفي شاهدًا على رياء هؤلاء الرهط أنهم يقيمون مآثم يندبون فيها حرية الفكر، ثم ينصرفون ويقولون فيما يكتبون: للحكومة أن ترهق الشعب وترغمه على ما تراه أمرًا لائقًا، ولو سبق ظنك إلى أن مؤلف كتاب في الشعر الجاهلي هو عينهم الناظرة وسهمهم الذي يرمون به في مقاتل أمتهم الغافلة؛ لخليت بينك وبين هذا الظن؛ إذ ليس لي على هذه الظنون الغالبة من سبيل"¹.

وقد تتبع الخضر أبواب الكتاب وفصوله بالترتيب بادئًا بتلخيص الباب مبيّنًا غرض

¹/ محمد الخضر حسين: نقض كتاب " في الشعر الجاهلي "، مؤسسة هنداوي، مصر، 2012، ص 10.

المؤلف وفكرته العامة، ثم موردًا الفقرة التي تعبر عن الفكرة موضوع النقد فيفتدّها، وبيان ذلك في قوله: "وقد ارتأيت ألا أنقد فقرة أو فقرات إلا بعد أن أنقلها بحروفها، وأحكيها كما صدرت من منشئها، وإن كان موضع البحث يتوقف على جمل سلفت ولم نتعرض لمناقشتها، أتينا بها في تلخيص ضابط للمعنى الذي لا يتهيأ فهم المناقشة إلا به، حتى يكون كتابنا هذا قائمًا بنفسه، ويستقيم للقارئ أن يدخل في البحث وهو على استبانة من أمره"¹.

جمع الخضر ما وسعه من المراجع للدلالة على ما أراد مما يدل على سعة اطلاعه، وقد كان القرآن الكريم أهم المصادر التي عاد إليها، كما عاد إلى كتب التفسير وكتب علوم القرآن خصوصًا في رده على مسألة القراءات، وكتب الحديث الشريف والسنن وأورد كثيرًا من الأحاديث التي أثبت بها القراءات، أو استشهد بها على بعض أحداث التاريخ، وقد عاد في ذلك إلى صحيح البخاري وفتح الباري، إضافة إلى كثير من كتب اللغة خاصة في رده على مسألة اختلاف اللهجات العربية، كالصاحبي لابن فارس، والخصائص لابن جني، وكتاب سيبويه، يضاهاه ذلك عودته إلى كتب التاريخ وكتب السير والرجال والطبقات، فعاد إلى المقدمة، وتاريخ الطبري وسيرة ابن هشام، والعواصم والقواصم لأبي بكر بن العربي، والكامل لابن الأثير، كما عاد إلى عيون التواريخ لابن شاكر².

• نقض منهج طه حسين في البحث

انتقد الخضر اتباع طه حسين هواه فيما يقول، فهو يحرف الكلام ليوافق أغراضه ويتخير الكلمات والأحداث التي تفيدته ويستشهد بروايات واهية ويرجع إلى مراجع ثبت عند القدماء فسادها كرجوعه المتكرر إلى الأغاني³.

¹ / محمد الخضر حسين: نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، ص11.

² / نجوى عبد العزيز عبد السلام بناني: أشهر الردود على كتاب "في الشعر الجاهلي" لظه حسين، رسالة ماجستير في اللغة العربية، كلية اللغة العربية، جامعة ام القرى، المملكة العربية السعودية، 2005، ص59.

³ / محمد الخضر حسين: نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، مصدر سابق، ص19.

كما بين الخضر أن طه حسين قد اعتمد في التاريخ على مجرد الفرض والظن والخيال والاجتهاد المطلق دون الاعتماد على المنقول باستدلال أو تمثيل، وهو مع هذا ينتظر من القارئ أن يصدق كلامه وأن يثق فيه، كأنه كان على مسمع ومرأى من تلك العصور القديمة، ثم بعث اليوم من مرقدته وعرف أن كل ما يروى عنها لا يوافق شيئاً مما كان يسمع ويرى.¹

من الأدوات البارزة لدى الخضر حسين التنبية على السرقة وعقدة الأولوية، ومن هنا كان يرجع أغلب أفكار المؤلف إلى مصادرها من كتب السابقين أو المعاصرين، فقد كان الخضر يسوق الشواهد على ما ساقه طه حسين من الكتب الأخرى، سواء كانت كتب القدماء أو كتب المحدثين؛ ليوضح سرقاته من جهة، وليثبت أن العلماء لم يتركوا العلم دون تنقيح من الجهة الأخرى.²

كما وضح الخضر تأثر طه حسين بالمستشرقين وأبرزهم المستشرق الانجليزي مارجليوت من خلال مقاله "نشأة الشعر العربي" الذي نشره عام 1925م في المجلة الآسيوية الملكية، يقول الخضر في هذا الصدد: "فالمؤلف أثار على نظرية الشك في الشعر الجاهلي، ولم يفترق عن مرغليوث إلا في تسليمه بأن هناك شعراً جاهلياً، فأخذ أصل النظرية وأقوى الشبه التي استند إليها وجعل يقول لك: هو أني شككت في الشعر الجاهلي، ويداعبك بقوله: ألححت في الشك، أو قل ألح عليّ الشك والحديث في صدق وأمانة خير من هذه المداعبة".³

وقد ذكر الخضر أن طه حسين أعجب بالمنهج التاريخي وبتنتأجه العلمية في الآداب الأوروبية فدعا إلى تطبيقه في دراسة الأدب العربي والتأريخ له، وحاول تطبيقه إلى حد ما في كتابه "في الشعر الجاهلي" وقد كانت حجته في هذا الطرح أن الشك هو السبيل

¹ نجوى عبد العزيز عبد السلام بناني، مرجع سابق، ص194.

² المرجع نفسه، ص63.

³ محمد الخضر حسين: نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، مصدر سابق، ص23.

الأنجع لدراسة علمية صحيحة وجديدة، فهو يرى أن على الباحث أن يتجرد من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يقبل على موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاماً¹.

ولكنه لم يلتزم بأسس المنهج ودقته العلمية، وعجز عن تطبيق القاعدة الديكارتية ولم يفهم أبعادها، فجاء بحثه خديجاً غير ناضج مما أعطى نقاده أقوى سلاح في تسفيه منهجه وآرائه وهدمها، يوضح الخضر ذلك في قوله: "إن منهج ديكارت كمثل منطق أرسطو لا يخرج العقل من غسق الجهالة أو الحيرة إلى وضح اليقين أو الرجحان، وإنما يرسم خطة التفكير والسير في هذه الخطة موكول إلى ذكاء الباحث وأمانته، فإذا كان عقل الباحث غير موزون، أو كان حظه من الإخلاص هضيمًا، لا يروع الناس إلا أن يقول ما يستعيز منه ديكارت ويتهافت منه الذين أوتوا الحكمة الجديدة، وحسبك شاهدًا على أن هذا المنهج لا تصلح له إلا البصيرة الخالصة النافذة أن أحد دعائه وهو سينيوزا قد ابتغاه وسيلة إلى نظرية الحلول وهي نظرية ذاهبة في السخافة إلى مكان سحيق، فمنهج ديكارت لا يحمي المؤلف من أن يناقشه الأحرار حقًا، فيوضحوا حقيقة أنكرها أو يفضحوا زورًا ادعى أنه حق لا غبار عليه"².

وقد ذكر الخضر أن المنهج ليس بغريب عند علماء الشرق، ومن هؤلاء الغزالي في (المنقذ من الضلال) وابن خلدون في مقدمته، حيث حث على العمل به في التاريخ بوجه خاص، وهو كذلك ما حث عليه القرآن، حيث بعث العقول من مراقد الخمول، وحررها من أسر التقليد، فتراه يدعو بالبرهان وبيان الحكمة ويطالب بالحجة، فإن كان يحق للدكتور طه حسين أن يتحدث عن ديكارت فلا بد أن لا يغلو في جحود ما كان للشرق من عبقرية³.

¹ / طه حسين: في الشعر الجاهلي، دار النهر، ط02، مصر، 1996، ص07.

² / محمد الخضر حسين: نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، مصدر سابق، ص 37-38.

³ / نجوى عبد العزيز عبد السلام بناني، مرجع سابق، ص129.

• الشعر الجاهلي واللغة

مما أشار إليه الخضر واستخدمه أداة للرد على الدكتور طه حسين التنبيه إلى تناقضه، فغالبًا ما كان الخضر يسوق عبارات طه حسين بتغيير بعض ألفاظها ليقابلها عليه ويطلق عليه أحكامه التي اتهم بها القدماء وينبئه إلى ما وقع فيه من أخطاء كان عاب عليهم مثلها، ولا شك أن في هذا ضربًا من السخرية التي يهدف بها إلى نقض طرائقه في التوصل إلى الاستنتاجات، ولتأخذ على هذا مثالًا في رده، فقد زعم طه حسين أنه لا بد أن تختلف لغات العرب العدنانية وتتباين لهجاتهم قبل ظهور الإسلام، ولا سيما إذا صحت نظرية العزلة العربية، وثبت أن العرب كانوا متتالين متقطعين، وأنه لم يكن بينهم من أسباب المواصلات المادية والمعنوية ما يمكن من توحيد اللهجات، في حين أنه قال قبل ذلك أن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم ولم يكونوا أمة منعزلة في صحرائها¹.

وقد وافقه الخضر في ذلك إذ رأى أن المؤلف أنكر نظرية العزلة حين رآها تعترض ما أراده من أن للجاهليين اتصالًا بالعالم الخارجي، وود في هذا الفصل لو تستقيم له لأنها تؤيد نظرية عدم التقارب بين لغات القبائل، يقول الخضر في هذا الصدد: "فليس بمستبعد على مثل المؤلف أن يقول لك في صراحة وعجل: إن تلك القبائل كانت على مدنية شائقة، وكانت تمتطي طيارات تمخر بها في الجو حتى تتصل بالأمم الأجنبية ولا تلقى في سبيلها شخصًا من قبيلة أخرى عربية، تفعل ذلك حذرًا من أن تتقارب لهجاتها ويتمثل شعرها"².

ففي هذه العبارة الساخرة أظهر لنا الخضر بجلاء كيف أدى التناقض بالمؤلف إلى أن يجعل عقله عرضة للسخرية والتهكم.

¹ / طه حسين، مرجع سابق، ص 33.

² / محمد الخضر حسين: نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، مصدر سابق، ص 88.

أما معلقة امرئ القيس فيرى طه حسين أن القدماء أنفسهم يشكون في بعض أبياتها، ويختلفون في ألفاظها وترتيبها، يقول في هذا الصدد: " وهذا البحث ينتهي بنا إلى أن أكثر هذا الشعر الذي يضاف لامرئ القيس ليس من امرئ القيس في شيء، وإنما هو محمول عليه حملاً ومختلق عليه اختلاقاً"¹

بينما اكتفى الخضر بتعليل سبب الاختلاف في الألفاظ أدبياً وفي اختصار شديد، فهو إما لتغيير الراوي إيّاها إلى كلمات توافق لغته، أو للنسيان، ويحتمل أن يكون الشاعر نفسه قد أنشد البيت على وجهين أو على وجوه في أوقات مختلفة، أما الاختلاف في ترتيب الأبيات فقد رده "تشارلس لايل" بأنه شيء طبيعي في أشعار لم تدون قط ونستطيع هنا ملاحظة تقوية.

الرد بالمراجع عند الخضر²

• نقد القضايا الدينية في كتاب طه حسين

كان أعظم ما أهاج ثائرة المتدينين على كتاب " في الشعر الجاهلي " خوضه في كثير من الأمور الدينية التي كان في غنى عنها عند حديثه عن الشعر الجاهلي، الأمر الذي جعل كثيراً من نقاده يحلمون بأن طه حسين ألف هذا الكتاب لأجل الطعن في الإسلام، والشعر الجاهلي والأدب العربي وسيلة إليه، فطه حسين -في رأي محمد الخضر- من الفئة التي فسقت عن أدب الإسلام، وأرهفت أقلامها لتعمل على فتنة القلوب وصرفها عن احترام كتاب المسلمين الأول القرآن الكريم.

يقول الخضر في هذا الصدد: " يتحدث المؤلف في مسائل دينية ليظهر للقراء أنه درس الشريعة حتى يطمئنون لما يقوله عن الإسلام في غير إخلاص، يقول المؤلف: القاعدة أنه لا يقبل من العربي إلا الإسلام أو السيف، يقف القارئ في هذه الفقرة وقفة

¹ / طه حسين، مرجع سابق، ص 144.

² / محمد الخضر حسين: نقض كتاب " في الشعر الجاهلي "، مصدر سابق، ص 259.

متردد ولا يدري هل هذا المؤلف يتكلم في الدين مجتهدًا لنفسه أو مقلدًا لذوي الاجتهاد أو كأجنبي يحكي قاعدة في الإسلام وليس له به صلة اجتهاد أو تقليد؟¹

فقد زعم طه حسين أن المسلمين أرادوا أن يثبتوا أن للإسلام أولية في بلاد العرب كانت قبل أن يبعث النبي ρ ، وأن خلاصة الدين الإسلامي وصفوته هي خلاصة الدين الحق الذي أوحاه الله إلى الأنبياء من قبل، فالقرآن يذكر صحف إبراهيم ويذكر دينًا آخر هو ملة إبراهيم عليه السلام، وهو هذه الحنيفية التي لم يستطع إلى الآن أن يتبين معناها الصحيح، فأخذ المسلمون يردون الإسلام في خلاصته إلى دين إبراهيم هذا الذي هو أقدم وأنقى من دين اليهود والنصارى².

وقد ذكر الخضر أن هذه الأولوية ثابتة بنص القرآن لا أن المسلمين يريدون إثباتها، والقرآن يعبر عن معنى الحنيفية بأفصح بيان، وأضاف شيئًا مهمًا وهو أن إنكار المؤلف لأن يبقى أثر لدين إبراهيم عليه السلام في بلاد العرب مبني على إنكاره وجود إبراهيم أو هجرته وهجرة إسماعيل إلى مكة، وقد تبين أن هذا الإنكار لم يقيم على بحث واستدلال وإنما هو وليد نزعة يعلمها القراء، أما الذين يريدون أن يكونوا على بينة فإنهم يضعون هذه الأشعار وأخبارها في موضع النقد، فإن وجدوا في روايتها أو ألفاظها أو معانيها ما يدل على وضع أو يجر ريبة طرَّحُوهُ، وما وجدوه سليمًا قبلوه³

يقول الخضر: "فدعوى المؤلف أن تجديد الإسلام لدين إبراهيم عليه السلام فكرة شاعت في العرب أثناء ظهور الإسلام، إنما هي نزعة من لا يراعي للتاريخ حقًا، ولا يرى للدين حرمة، وكذلك يفعل من يحس أن خلفه أو بين يديه طائفة تلذ هذه النعمة وإن كانوا من قوم لا يعلمون".⁴

¹ / محمد الخضر حسين، نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، مصدر سابق، ص 185.

² / نجوى عبد العزيز عبد السلام بناني، مرجع سابق، ص 156.

³ / المرجع السابق، ص 157، 158.

⁴ / محمد الخضر حسين، نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، مصدر سابق، ص 177.

كما ذكر الدكتور طه حسين أمر "كليمان هوار" الذي قارن بين القرآن وشعر أمية بن أبي الصلت ووجد بينهما تشابهًا، فاستنتج وجوب كون النبي ρ قد استعان به قليلا أو كثيرًا في نظم القرآن، مما حمل المسلمين على محاربة هذا الشعر ليستأثر القرآن بالجدة وليصح كونه وحيًا، ثم علق بأنه ليس يعنيه أن يكون القرآن قد تأثر بشعر أمية أو لا يكون فهو لا يؤرخ القرآن ولا يزود عنه ولا يتعرض للوحي وما يتصل به، وإنما يعنيه شعر أمية وأمثاله من الشعراء، فلم يصل شعرهم إلا عن طريق الرواية والحفظ وهذا يكفي للشك في صحته، ومحاربة المسلمين لشعر أمية تكفي ليضيع هذا الشعر كما ضاعت الكثرة المطلقة، وقد كان النبي ρ وأميه متعاصرين، فلم يكون النبي هو الذي أخذ عن أمية ولا يكون أمية هو الذي أخذ عن النبي؟ ثم هو يعتقد أن شعر أمية وغيره من المتحنفين انتحله المسلمون ليثبتوا أن للإسلام قدمة وسابقة¹

وقد راح الخضر ينفي بطريقة تاريخية عقلية ما زعمه طه حسين، فبين أن الحديث الصحيح جاء بسماع النبي ρ شعر أمية واستحسانه له واستزادته منه، ولو صح خبر النهي عن رواية شعره لكان مقصورًا على قصيدة رثاء قتلى قريش في بدر، وهنا اعتمد الرد على الاستدلال وربط القضية بالدين، وهي وإن كانت كذلك إلا أننا لا نجد فيها تلك الشحنة الانفعالية لأنه استخدم الدليل الديني علميًا. وفي لفظة نقدية اتجه إلى شعر أمية بن أبي الصلت ووجه المؤلف إلى الطريقة الصحيحة للتعامل معه، فليس من أدب البحث التسرع إلى الحكم بانتحال شعره لمجرد ما فيه من التحنف، وإنما ينظر فيه خاليًا من هذا المعنى فإن لم يوجد فيه ما يطعن في نسبته إليه عن طريق اللفظ أو المعنى أو الرواية أثبتناه في ديوانه².

كما زعم الدكتور طه حسين أن الهجاء الذي كان بين شعراء الأنصار وشعراء قريش

¹ / محمد الخضر حسين، نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، مصدر سابق، ص 180، 183.

² / نجوى عبد العزيز عبد السلام بناني، مرجع سابق، ص 160، - 161.

يجب أن يكون قد بلغ أقصى ما يمكن من الحدة والعنف؛ فإن النبي ρ كان يحرض عليه ويشيب أصحابه ويقدمهم ويعددهم، مثل ما كان يعد المقاتلين من الأجر والمثوبة عند الله، ويتحدث أن جبريل كان يؤيد حساناً¹.

وقد بيّن الخضر أن الهجاء ضرورة أملاها واقع العرب وعاداتهم لا مناص منها لدفع الخطر عن سمعة الإسلام بذات السلاح، لا حباً في الهجاء والإقذاع، فالمشركون لما جعلوا يسطون على مقام النبوة بالهجاء ويتخذونه سلاحاً لمحاربة الدين، كان من الحكمة البينة أن يكافح أولئك الهجاؤون بسلاحهم، فأذن النبي ρ لحسان بن ثابت وغيره أن يجازي السيئة بمثها، فليس من الصواب أن يخلي السبيل لتلك الأشعار الطاعنة فتطرق كل أذن وتحوم على كل قلب دون أن تقف أمامها قوة تعمل على مثالها فتكف بأسها².

وأشار الخضر إلى أن طه حسين يحمل لغته الكثير من الإيحاءات المضللة؛ فراح ينتقد هذه اللغة ويكشف النقاب عما تحمله من ألفاظ تتم عن سوء الطوية والتطاول على الإسلام والمسلمين، يقول في هذا الصدد: "شق المؤلف للقراء عن صدره وأراهم ما فيه من نية الخروج عن الأدب إلى الطعن في الإسلام، وقد عرف أن من الصراحة ما لا يجد في النفوس منفذاً، فجنح في كثير من المواضع إلى استعمال الجمل التاريخية أو الأدبية في قضاء مآرب الدعاية، ونشر فيها روح التكرار للحق، لكيما تسلك هذه الروح في قلوب المستضعفين من الناس وتُبقي بها أثراً، دون أن يشعروا بما ينويه المؤلف في نشرها"³.

ومن أمثلة ذلك قول طه حسين: "كان القدماء مخلصين في حب الإسلام، فأخضعوا كل شيء لهذا الإسلام وحبهم إياه، ولم يعرضوا لمبحث علمي ولا لفصل من فصول الأدب أو لون من ألوان الفن إلا من حيث إنه يؤيد الإسلام ويعزه ويعلي كلمته، فما لاءم

¹ / نجوى عبد العزيز عبد السلام بناني، مرجع سابق، ص 263.

² / المرجع السابق، ص 264.

³ / محمد الخضر حسين، نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، مصدر سابق، ص 29.

مذهبهم هذا أخذوه وما نافرته انصرفوا عنه انصرافاً¹.

فردّ عليه الخضر حسين قائلاً: "درس القدماء من المسلمين علومًا شتى ولم يتلقوها كما يتلقاها الإمّعة من الرجال بمتابعة وتقليد، فحاضوا غمارها وسابقوا واضعيها في الوقوف على أسرارها وأبصروا فيها حقًا وباطلاً، ولم يقتصروا في علمهم بالحق حقًا على دليل موافقته للدين، ولا في معرفتهم للباطل باطلاً على دليل مخالفته له، بل كانوا يترسمون في ذلك منهج المنطق الصادق ويقرعون الحجة النظرية بمثلها، وعدم ارتدادهم عن الإسلام لا يدل على أنهم أخضعوا له كل شيء وإنما هو الدين القيم يخضع له الحق بنفسه ولا يحوم الباطل في ناحيته"².

أنكر طه حسين أن يمثّل ذلك الشعر الذي يسمونه الشعر الجاهلي الحياة الجاهلية، وأقرّ بأنه إذا أراد أن يدرس الحياة الجاهلية لن يسلك إليها طريق امرئ القيس والنابغة والأعشى وزهير؛ لأنه لا يثق بما نسب إليهم وإنما يسلك إليها طريقاً أخرى ... يدرسها في القرآن، ويدرسها في شعر هؤلاء الشعراء الذين عاصروا النبي وجادلوه ... بل يدرسها في الشعر الأموي نفسه، ثم دخل في تفصيل ذلك عارضاً جملة من القضايا مقارناً فيها بين الشعر الجاهلي والقرآن³، يقول طه حسين: "فإذا أردت أن أدرس الحياة الجاهلية فليست أسلك إليها طريق امرئ القيس والنابغة والأعشى وزهير؛ لأنني لا أثق بما ينسب إليهم، وإنما أسلك إليها طريقاً أخرى، وأدرسها في نص لا سبيل إلى الشك في صحته، أدرسها في القرآن. فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي"⁴.

وقد رد عليه الخضر بقوله أن القرآن احتوى نبذة من أنباء الجاهلية جاءت على سبيل النعي على بعض ضلالاتهم، لأن القرآن لم ينزل لتمجيدهم أو ليكون مرآة لحياتهم، إنما

¹ / طه حسين، مرجع سابق، ص 12.

² / محمد الخضر حسين، نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، مصدر سابق، ص 34.

³ / المصدر السابق، ص 40.

⁴ / طه حسين، مرجع سابق، ص 15.

هو كتاب نزل لتقويم العقائد وتهذيب الأخلاق وتنظيم الصلة بين الخالق والمخلوق¹، وهذا يقتضي أن لا يخرج على ما يدل أو يشعر بشيء من محاسن العرب إلا قليلاً، فالمقتصر في تاريخ العرب قبل الإسلام على القرآن، إنما يأخذ صورة خالية من تلك المزايا التي لم يهملها القرآن إنكاراً، وإنما سكت عنها لأنه لم يكن مؤرخاً ولا مادحاً، فصورة الحياة في الجاهلية قد أتت من القرآن والشعر معاً دون أن يقصد أي منهما تصويرها، فهما لم ينفيا صلاحيتهما للتصوير قطعياً، وإلا فمن أين جاء تصورنا للحياة الجاهلية؟²

يكشف تتبع الردود التفصيلية لمحمد الخضر على كتاب "في الشعر الجاهلي" الصورة الحقيقية للكتاب ممثلة في أخطائه المتعمدة وأهوائه المتبعة، واعتدائه على النصوص بتحريفها وفي شناعة الاجترار على الحقائق الدينية والتاريخية واللغوية، مع التناقض المزري الذي يجعله ينفي الشيء في مجال ثم يثبتته في مجال آخر، وفي بعده عن المنهج العلمي القديم والحديث، ومن ثم فقد فضح الخضر ما نوى طه حسين من ورائه من إحداث الضجة وإحراز الشهرة، ولا شيء غير ذلك ...

¹ / محمد مواعدة، مرجع سابق، ص 177.

² / محمد الخضر حسين، نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، مصدر سابق، ص 40.

المبحث الرابع: الإصلاح السياسي

المطلب الأول: السياسة الشرعية ونظام الحكم في الإسلام عند محمد الخضر

شهد الإمام محمد الخضر حسين، أسوأ مرحلة في حياة العالم العربي والإسلامي وهي سقوط الخلافة الإسلامية المتمثلة في الدولة العثمانية سنة 1924م، وانتشار الاستعمار الأوربي في العالم الإسلامي والعربي، محاولاً تقسيمه وتمزيقه بشتى الطرق والوسائل، منها ضرب الهوية، وإحياء النزعات العرقية، والطائفية، والقومية، وتشجيع الحركات الدينية المنحرفة كالبهائية والقاديانية...

ومن بين الأفكار الدخيلة التي جاءت لتغيير البنية الإسلامية للمجتمعات، محاولة تغيير النظام السياسي للأمة بما يشمله من حكم وتجنيس وفصل للدين عن الدولة، وبث الحملات التبشيرية، ونشر الدراسات الاستشراقية... وغير ذلك.

وبهذا سنحاول تحديد مجموعة من العناصر من خلال الإرث العلمي الذي تركه الإمام محمد الخضر حسين، وما كان له علاقة بالجانب السياسي ومسألة الحكم في الإسلام، وهذه العناصر هي:

- الحث على التمسك بالخلافة الإسلامية ثم الوحدة الوطنية.
- مقاومة التجنيس بعد تعرض العالم العربي للاستعمار الأجنبي.
- الرد على الشيخ علي عبد الرزاق في مسألة الحكم في الإسلام.
- دفع ربح الحملات التبشيرية، والتثبت عند تناول الدراسات الاستشراقية.

الحث على التمسك بالخلافة الإسلامية ثم الوحدة الوطنية:

كانت الفترة التي عاشها الإمام محمد الخضر حسين بعد انتقاله من تونس إلى الشام سنة 1912 هي مرحلة وصول الخلافة إلى ما يسمى "بالرجل المريض"، حيث بدأت الحرب العالمية الأولى بسنتين بعد ذلك، إلى سنة 1918م، وانتهت بسقوط الأستانة

(تركيا) بيد الحلفاء، وقد كان الإمام ممن دافعوا من أجل إبقاء الخلافة العثمانية، بل إنه استدعي من مركز الخلافة بالأستانة وعمل بوزارة الحربية منشأً عربياً، ثم أرسل إلى ألمانيا حليفة الدولة العثمانية مدة تسعة أشهر أثناء الحرب العالمية الأولى.

وقد كتب الإمام الخضر في مقال عنوانه: "الخلافة الإسلامية" سنة 1921م يدعو إلى التمسك بالخلافة، بل يعتبر ذلك واجبا شرعياً، فقال: "فقيام سلطان يحمل راية الخلافة حقيقة شرعية وأمر لا غنى للمسلمين عنه، ما داموا يطمحون إلى عزهم المكين، ...، ويتعين عليهم أن يبذلوا في تأييد الخلافة جهد استطاعتهم، إذ متى تزلزل عرشها، وجمدت القلوب والأيدي عن مؤازرتها، تعدى ما يمسه من سخر وشقاء إلى سائر الشعوب، ...، فيصبح العالم الإسلامي كعقد تناثر على سطح محدب، فتفرقت جواهره بحيث لا تلتقي حبة بأخرى"¹

ومع أنه استشراف المستقبل، وحذر من سقوط الخلافة بصرخة المصلح، إلا أن الواقع كان أسوأ مما قد تتقضه النداءات والصرخات، ووقع ما كان في حساب الإمام وسقطت آخر خلافة إسلامية والممثلة في الدولة العثمانية سنة 1924م.

ومع هذا، لم يفقد الإمام أمله في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية لما تمتلكه من أسس تعين على وحدتها منها: وحدة الدين، واللغة، والقوة البشرية، والثروات الطبيعية، والكفاءات الفكرية، وإمكانية اتخاذ عاصمة مركزية (مصر)، يقول الإمام الخضر في هذا: "ومن فائدة الشرق: أن تكون له عاصمة تلتقي فيها آراء المصلحين، ويتدفق منها الشعور السامي إلى سائر الأقطار. وموقع مصر في البلاد يستدعي أن تكون مصر هي ملتقى تلك الآراء، ومصدر ذلك الشعور"².

¹ / محمد الخضر حسين: **هدى ونور**، الموسوعة، المجلد 12، مصدر سابق، ص 62

² / محمد الخضر حسين: **الدعوة إلى الإصلاح**، الموسوعة، مجلد 5، مصدر سابق، ص 96-97

مقاومة التجنيس بعد تعرض العالم العربي للاستعمار الأجنبي:

وقعت الجزائر تحت وطأة الاستعمار الفرنسي سنة 1830م، وتونس سنة 1881م، وباقي الدول العربية والإسلامية الأخرى إما كانت في حالة استعمار أو انتداب من طرف دول الحلفاء وخاصة فرنسا وبريطانيا.

مارس الاحتلال مختلف الوسائل والأساليب لطمس الهوية الإسلامية والعربية، ومنها "التجنيس"، وشدد الإمام الخضر على محاولة تجنيس المجتمع الإسلامي لأنه قد يؤدي إلى القوع في المعصية وذلك بمقاتلة المسلمين تحت راية الجيش الفرنسي، وهو ما يعده الإسلام ارتدادًا عن الدين.¹

يقول الإمام الخضر في هذا: "فإذا عمي على فرنسا سوء طالع هذا القانون، وأصرت على نفاذه، بالرغم من احتجاجات الأمة، ومظاهر استيائها الأليم، فقد بقي في يد زعمائها سبل لعلاج هذا الداء الفاتك، لا تستطيع أية قوة أن تسدها في وجوههم، ومن بين هذه السبل: تلقين الشعب واجباته الإسلامية الاجتماعية، وجعله على بصيرة من أن مقتضى التجنس بالقومية الفرنسية أن يقاتل تحت راية فرنسا، وإن كانت هاجمة على جماعة من إخوانه لغة ودينا، وهم في عقر دارهم آمنين."²

الرد على الشيخ علي عبد الرزاق في مسألة الحكم في الإسلام:

في ظل الوضع السائد في البلاد الإسلامية وبعد سقوط الخلافة العثمانية، دبَّ الخلاف في قضية الحكم والخلافة، وقد صرح الإمام محمد الخضر حسين بضرورة قيام الخلافة فقال: "الخلافة حقيقة شرعية، وأمر لا غنى للمسلمين عنه ما داموا يطمحون إلى عز مكين، وحياة مستقلة"³

¹ / أنظر الطاهر بن سالم، مرجع سابق، ص 272.

² / محمد الخضر حسين: الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، الموسوعة، مج 13، مصدر سابق، ص 60.

³ / محمد الخضر حسين: نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، الموسوعة، مج 9، مصدر سابق، ص 117.

ولقد نشر الشيخ علي عبد الرزاق كتابه المسمى: (الإسلام وأصول الحكم)، سنة 1343هـ، وكان موضوع الكتاب الخلافة في الإسلام وعلاقة الحكم بالدين في العالم الإسلامي، وما يجب أن يكون عليه في العصر الحديث.

ورأى أن نظام الخلافة ليس له علاقة بالدين الإسلامي، وادعى أن القرآن والسنة لم ينصا على ذلك، وأن عصره لا يستدعي نظام الخلافة الإسلامية، وأن رسالة النبي ρ لا علاقة لها بالحكم¹.

ولما قرأه الإمام محمد الخضر حسين، تبين له خطره، فما كان منه إلا أن قام بدوره الإصلاحية، وألف كتاباً سماه "نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم"، وعبر بكلمة نقض بدل نقد، لأن الأخيرة تعني التمييز بين المحاسن والعيوب، أما النقض فيعني الهدم والإبطال.

وقد قال عنه " وقع في يدي كتاب "الإسلام وأصول الحكم" للشيخ علي عبد الرزاق، فأخذت أقرؤه قراءة من يتغاضى عن صغائر الهفوات، ويدراً تزييف الأقوال بالشبهات. وكنت أمر في صحائفه الأولى على كلمات ترمز إلى غير هدى، فأقول: إن في اللغة كناية ومجازاً، ...، وما نشبت أن جعلت المعاني الجامعة عن سواء السبيل تبرح عن خفاء وكنت - بالرغم من كثرة بوارحها - أصبر نفسي على حسن الظن بمصنفها"²

ولخص الإمام بعد ذلك فكرة الكتاب وما جاء فيه فقال أنه جحد الخلافة، وزعم أن النبي ρ لم يدعو إلى دولة سياسية، وأن القضاء وغيره من وظائف الحكم ليس لها علاقة بالدين³.

والأمر الذي أزعج الإمام الخضر هو أن المؤلف من شيوخ الأزهر الشريف، ويتقلد منصباً في المحاكم الشرعية، وذكر ذلك بقوله: "كنا نسمع هذه المزاعم، فلا نزيد أن

¹/ أنظر محمد مواعدة، مرجع سابق، ص 163 الى 173.

²/ محمد الخضر حسين: نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، الموسوعة، مجلد 9، مصدر سابق، ص 8.

³/ المصدر السابق، ص 9.

نعرض عمّن يغطون بها حتى يخوضوا في حديث غيره. أما اليوم، وقد سرت عداها إلى قلم رجل ينتمي للأزهر الشريف، ويتبوأ في المحاكم الشرعية مقعداً، فلا جرم أن نسوقها إلى مشهد الأنظار المستقلة، ونضعها بين يدي الحجة¹.

ذكر الإمام طريقة رده على المؤلف، وبين أنه يناقش ما يراه دعوى أو شبهة تستحق المناقشة. واخترنا جملة من العناصر التي تمت معالجتها من طرف الإمام نذكرها باختصار، دون ذكر ما كتب الشيخ علي عبد الرزاق، بل نكتفي برأي الإمام الخضر في المسائل المطروحة، ولمن أراد أن يستزيد فعليه بالرجوع إلى المجلد التاسع من موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين.

نظام الحكم وطبيعته:

يرى الإمام أن قضية الخلافة مفصول فيها بالكتاب والسنة والإجماع، فقد قال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا] (النساء الآية 59)، وقال الإمام أن المؤلف نقل الاستدلال بهذه الآية عن ابن حزم، وبالعودة إلى الإمام ابن حزم الظاهري نجده يقول: "اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع المعتزلة وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الإمامة، وأن الأمة فرض واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيهم أحكام الله، ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله ﷺ حاشا النجدات من الخوارج فإنهم قالوا: لا يلزم الناس فرض الإمامة وإنما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم (...). وقول هذه الفرقة ساقط يكفي من الرد عليه وإبطاله اجماع كل من ذكرنا على بطلانه والقرآن والسنة قد وردا بإيجاب الإمام."²

¹ / محمد الخضر حسين: نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، الموسوعة، مجلد 9، مصدر سابق، ص 9.

² / ابن حزم الظاهري: الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار الجيل، بيروت، الجزء 4، ط 2 (1416هـ-1996م)، ص 149.

وأما عن طبيعة الحكم فبيّن الإمام أن أفضل نوع هو من يترأسه فرد ثابت، على أن يمثل السلطة التنفيذية فقط، أما السلطة التشريعية فيمثلها أهل الحل والعقد ممن يخضعون لنظام الشورى، يقول في هذا "وقد يبلغ العدل والحرية أشدهما لعهد الحكومة التي يرأسها فرد ثابت إذا لم تكن بيدها السلطة التشريعية، وتكون مقيدة في تنفيذها بنظام الشورى، ولا تتصرف إلا تحت مراقبة الأمة"¹

وأقرب أنواع الحكم للحكم الإسلامي هو "شكل بعض الحكومات القائمة على خليفة ووزراء ومجلس نيابي يجري انتخابه تحت ظلال الحرية التامة، لا يخالف الشكل الملائم للخلافة الحقيقية بحال".²

شروط الخليفة وكيفية توليه الحكم:

يرى الإمام محمد الخضر حسين أن هناك شروطاً لا بد من توفرها في الخليفة بقوله: "يقرر جمهور أهل العلم في شروط الخليفة: أن يكون بالغاً في العلم رتبة الاجتهاد، وأن يكون ذا رأي وخبرة بتدبير الحرب والسلم، وأن يكون شجاعاً لا يرهب الموت الزؤام فما دونه، وأن يكون عادلاً لا تأخذه في الحق لومة لائم. وتُعرف مزية العدل باختبار سيرته، فيما كان يتولاه من أعمال قبل منصب الخلافة، أو بما تدل عليه التجارب والمشاهدة الطويلة من استقامته، وشرف همته، وإنكاره ما يفعل الظالمون بغير وحماسة."³

أما عن كيفية توليه الحكم فقد ذكر الإمام أن الطريقة المثلى هي ببيعة أهل الحل والعقد له، بقوله: "يتكلم ابن خلدون، والسيد محمد رشيد رضا، عن الطريق الذي تتعقد به الخلافة شرعاً، وهو اختيار أهل الحل والعقد"⁴

¹ / محمد الخضر حسين: نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، الموسوعة، مجلد9، مصدر سابق، ص 115.

² / المصدر السابق، ص 114

³ / المصدر نفسه، ص 112.

⁴ / المصدر نفسه، ص 77.

وشهد عهد الخلافة الراشدة الطريقة المثلى لتولية الحكم، فتمت مبايعة الصديق أبي بكر من قبل الخاصة ولحق بهم العامة، وعهد أبو بكر إلى عمر بن الخطاب من بعده، وعزز أهل الحل والعقد البيعة، واختار عمر بن الخطاب من الصحابة ستة شهد لهم الصحابة أن رسول الله ﷺ مات وهو راضٍ عنهم، وهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، على أن يشهد معهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ولا يكون له من الأمر شيء، وخلصت المشورة إلى تعيين عثمان بن عفان خليفة للمسلمين.

أما علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه، "فمبايعته لم تكن تحت رهبة أبداً، ولا قامت تحت ظلال السيوف كما يزعم المؤلف -علي عبد الرزاق -¹

ويذكر الإمام الخضر مبايعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه نقلاً عن تاريخ ابن جرير الطبري، فيقول: "اجتمع المهاجرون والأنصار، فيهم طلحة والزبير، فأتوا علياً فقالوا: يا أبا حسن، هلمّ نبايعك، فقال: لا حاجة لي في أمركم، أنا معكم فمن اخترتم فقد رضيت به، فاختروا والله فقالوا: ما نختار غيرك، قال: فاختلفوا إليه بعد ما قتل عثمان رضي الله عنه مراراً، ثم أتوه في آخر ذلك، فقالوا له: إنه لا يصلح الناس إلا بإمرة، وقد طال الأمر"². ولم يحدد الإمام الخضر مدة للخلافة، بل ربطها بتطبيق الشريعة، وإقامة الشورى ورضا الأمة بالخليفة.

سلطة الخليفة:

يرى الإمام الخضر أن الخليفة يتصرف وفق قانون الشريعة وهو مكلف بتنفيذ الأحكام الشرعية التي يبينها ويضبطها الكتاب والسنة، وما أخذ منهما.

¹ / محمد الخضر حسين: نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، الموسوعة، مجلد 9، مصدر سابق، ص 81.

² / ابن جرير الطبري: تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة، الجزء الرابع، ص 427/428.

ويشبهه الإمام الخليفة بالملك الدستوري فيقول: " فالخليفة كملك دستوري، ولكنه يُعين باختيار أهل الحل والعقد"¹

و سلطته بعد تولي الحكم هي عبارة عن تدبير شؤون الدولة، يقول الإمام الخضر في هذا: " الأمير ليس عنده في الواقع سوى سلطة واحدة هي: تدبير شؤون الأمة على مقتضى القوانين الشرعية"²، ولهذا يجب أن يكون هناك أعوان للخليفة يتحملون معه أعباء الأمة ويمارسون مبدأ المشورة معه، كما سبق وأن بينا أنه بالمشورة والمساواة تقوم الحرية في الأمة.

وكما أن لأهل الحل والعقد والمشورة دوراً رئيسياً في تعيين الخليفة، ومبايعته على الحكم، فإن لهم سلطة خلعه من منصبه إذا لم يلتزم بما أمره الدين به من مشورة ومساواة، أو إذا مارس التسلط والتجبر، أو استبد بالحكم.

و خلاصة القول أن الشورى تحقق العدالة والحرية للأمة الإسلامية، وعلى الرعية الطاعة والنصح لولي الأمر ومن دونه، ما أطاعوا الله ورسوله p.

دفع ريح الحملات التبشيرية، والتثبت عند تناول الدراسات الاستشراقية:

من الأمور التي شهدها الخضر حسين مع محاولة المساس بنظام الحكم الإسلامي وتغييره بنظام وضعي غربي، محاولة الاستعمار الذي شهدته العالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة الإسلامية بث ريح الحملات التبشيرية، لإعتباره طريقة أخرى لتغيير البنية الإسلامية للمجتمعات العربية، ونشر بعض المستشرقين لدراسات حول الإسلام والفكر الإسلامي وكل ما له علاقة بالشرق، مع رصد الكثير منهم للتحريف والتغيير على حسب ما يتماشى مع أهداف الاستعمار.

¹ / محمد الخضر حسين: نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، الموسوعة، مجلد9، مصدر سابق، ص 116.

² / محمد الخضر حسين: رسائل الإصلاح، الموسوعة، مج 5، مصدر سابق، ص 195.

وكان الخضر حسين واعيا ومدركا لخطورة الحملات التبشيرية التي يقوم بها النصارى لتمهيد طريق الاستعمار الغربي بكل أشكاله، وقال في هذا الصدد: " أن إدخال بعض المعروفين بأنهم دعاة التبشير القائمين عليه صباحا ومساء في لجنة يوكل إليها وضع السياسة العامة للتعليم، قد جرح إحساس المسلمين، وأبعد آمالهم من أن يكون لمدارسنا صبغة إسلامية.

فجمعية الهداية الإسلامية ترحو معاليكم إبعاد ذوي الآراء المحاربة للدين من النظر في سياسة التعليم العامة، واعتبار الدين الإسلامي الكفيل بسعادة البشر أساسا لتلك السياسة، وإدخاله في مناهج التعليم بجميع أدواره تحقيقا للإصلاح المنشود، والتهديب المرغوب فيه"¹

وكذلك كان حال الإمام في مجابهة الاستشراق وكل من تأثر به، وخير دليل نوره على ذلك رده على طه حسين بعد ما كتب كتابه " في الشعر الجاهلي " حيث قال من تكلم عن دور الإمام الخضر في هذا الباب: " وحين طلع على العرب طه حسين بآراء في الشعر الجاهلي، استنقأها من مدرسة الاستشراق، من (مرجليوث، وسانتيلانا) على وجه الخصوص، وفيها ما فيها من نيل يمس الإسلام في كتابه الكريم، هبّ علامتنا الكبير للرد على ذلك بعنف، وصدق لهجة"².

وقيل عن دور الإمام الخضر: " نعم، كان المخلصون من حماة الفكرة الإسلامية في غير الدوائر الدينية الرسمية كثيرين، ولكن وجود أمثال العالم المحقق الأديب المبين محمد الخضر حسين أمر ضروري، يحتم أن يقوم أحد أصحاب العمائم المستتيرة بالجهر بكلمة الإسلام فيما ران من شكوك، وما أذاعه أذئاب الاستشراق من مفتريات!"³

¹ / محمد الخضر حسين: الهداية الإسلامية، الموسوعة، مج 10، مصدر سابق، ص 209.

² / سعيد أبو جيب، مقال: " مع العلامة محمد الخضر حسين في جهاده"، الموسوعة، " الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر"، مج 14 ص 198.

³ / محمد رجب البيومي، مقال: " محمد الخضر حسين عالم مجاهد"، المصدر السابق، ص 170.

المطلب الثاني: أهمية القضاء العادل عند محمد الخضر حسين

للقضاء أهمية بالغة في قيام المجتمعات، فهو جوهر العدل، وَلِهَذَا قِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدُّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً؛ وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً.

وقد اهتم الإمام الخضر حسين رحمه الله بطرح هذه القضية، إذ بدأت في وقته بوادى المطالبة باستقلال القضاء عن الدين، أو نستطيع القول بداية ظهور القضاء الوضعي مكان القضاء الديني، لذا حث الإمام على وجوب قيام القضاء وفق الشريعة الإسلامية، ورفض فصله عن الدين، فكتب عدة مقالات في هذا الموضوع منها: "القضاء العادل" و"مكانة القضاء" و"صفات القاضي في الإسلام" وغير هذا.

دور القضاء هو: حماية الحقوق، وإقامة العدل، وتحقيق الأمن، ومنع الظلم، ويتحقق هذا كله باستقلاله، وعدم المماطلة في فك النزاعات، فإذا كان هذا حاله عمّ الأمن في المجتمع، وهرع إليه الناس في فك نزاعاتهم، ونجد هذا جلياً في القضاء الإسلامي، بما مارسه النبي p ، والخلفاء الراشدون من بعده، ومن سار على نهجهم واتبع هداهم.

وإذا حدثت وتهاونت الحكومة في دور القضاء، ولم يحكم هذا الأخير بالقسطاس المستقيم فإن سقوط المجتمع من كل النواحي لا بد حاصل، بانتشار الفساد، وأكل القوي لحق الضعيف، وقد يصل الحد إلى الاقتتال.

وعليه نريد التطرق لموضوع القضاء في الإسلام من وجهة نظر الإمام محمد الخضر حسين وطرحه، من خلال تناول ما يلي:

- تعريف القضاء وبيان مشروعيته.
- بيان مكانة القضاء عند الإمام محمد الخضر حسين.
- عرض الإمام لصفات القاضي في الإسلام.
- القضاء العادل في الإسلام.

أولاً: تعريف القضاء وبيان مشروعيته:

القضاء مصدرٌ قَضَى يَقْضِي قضاءً بمعنى حَكَمَ، وَيُجْمَعُ القضاء على أقضية (1)، قال الراغب الأصفهاني (توفي 502هـ): « القضاء فصلُ الأمر قولاً كان ذلك أو فعلاً، وكلُّ واحدٍ منهما على وجهين: إلهي وبشري، فمن القول الإلهي قوله: [وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ مِنْكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا] (الإسراء/23)، أي: أمر بذلك، وقال: [وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ مُلُوكًا كَبِيرًا] (الإسراء/4)

فهذا قضاءٌ بالإعلام والفصل في الحكم أي أعلمناهم وأوحينا إليهم وحياً جزماً... ومن الفعل الإلهي قوله: [وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ] (غافر/20).... (2)

ثانياً: تعريف القضاء في الاصطلاح الفقهي:

"القضاء هو: الإخبار عن حكم شرعي على سبيل الإلزام"³

"القضاء في الاصطلاح هو الحكم بين الخصوم بالقانون الإسلامي بكيفية مخصوصة". وأريد بالكيفية المخصوصة: كيفية رفع الدعوى إلى القاضي، والأساليب والضوابط التي يلتزم بها القاضي والخصوم في إجراء التقاضي والترافع أمام القاضي،...⁴

¹ / ينظر: ابن منظور، لسان العرب (46/5) مادة: «ق ض ي»./ ابن منظور: "لسان العرب"، د. ط، بيروت: دار الجيل ودار لسان العرب، 1408هـ/1988م.

² / الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن ص: 406-407 مادة: «ق ض ي». الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط: محمد خليل عيتاني، ط: 1؛ بيروت: دار المعرفة، 1418هـ/1998م.

³ / محمد الخضر حسين، الهداية الإسلامية، الموسوعة، مجلد 10، مصدر سابق، ص 72.

⁴ / عبد الكريم زيدان: "نظام القضاء في الشريعة الإسلامية"، مؤسسة الرسالة، مكتبة البشائر، عمان الأردن، الطبعة الثانية (1409هـ-1989م)، ص 13.

فالقضاء سلطة إلزامية يفصل فيها بين الخصوم، ويستعان به في تطبيق أحكام الشريعة.

بيان مشروعية القضاء :

القضاء مشروع بالكتاب والسنة والإجماع، ومن الأدلة:

من الكتاب: قوله تعالى: [إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْكَافِرِينَ حَكِيمًا] (النساء/105).

من السنة: 1- حديث عمرو بن العاص τ أنه سمع رسول الله ρ يقول: « إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ ». (1)

من الإجماع: أجمع علماء الأمة على مشروعية القضاء.

وإن شئت قل إن العقل يستدعي وجود القضاء لأن الناس يختلفون لمختلف الأسباب، ولا بد من سلطة تضبطهم.

بيان مكانة القضاء عند الإمام محمد الخضر حسين:

يرى الإمام الخضر أن القضاء من الوظائف الداخلة في مهمات الخلافة، وأنه وظيفة الأنبياء والرسل، وذكر الإمام حديث رسول الله ρ : « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَآخَرٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا »²، ويبين الإمام أن المراد هنا بالحسد: الغبطة، وهي محمودة في كل خير.³

^{1/} متفق عليه: البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (2676/6)؛ ومسلم، الجامع الصحيح، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (1342/3).

^{2/} أخرجه الشيخان: البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الزكاة، باب إنفاق المال في حقه (510/2)؛ ومسلم، الجامع الصحيح، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن... (559/1).

^{3/} انظر: محمد الخضر حسين، الهداية الإسلامية، الموسوعة، مجلد 10، مصدر سابق، ص 70.

ويرى الإمام أنه لا أدل على سمو القضاء مكانة، من أن القاضي بمقدوره استدعاء الخليفة لمحاكمته، بل إنه بإمكانه الحكم عليه في حال كان هو المذنب.

ويضرب الأستاذ الخضر مثالا على ذلك: بأبي يوسف قاضي الخليفة هارون الرشيد، حيث حكم ليهودي في قضية رفعها على الخليفة هارون الرشيد، وقاضي قرطبة: ابن بشير، إذ حكم على الخليفة عبد الرحمان الناصر، وهدده بالاستقالة في حال لم ينفذ حكمه.¹ ويضيف الإمام في بيان فضله قائلاً: "وإذا كانت الأعمال تتفاوت في الفضل على قدر تفاوت غاياتها، فإن للقضاء غاية تعد من أجل الغايات، هي: نصر المظلوم، وكف يد الظالم، وقطع المنازعات، والإصلاح بين الناس، وأداء الحق لمستحقه، ومن ذلك يستتب الأمن في البلاد، وإذا استتب الأمن، فهناك طمأنينة النفوس، وسعادة الحياة".²

عرض الإمام لصفات القاضي في الإسلام:

يرى الإمام محمد الخضر حسين أنه لا بد من شروط في القاضي حتى تصح ولايته، وهي: الإسلام، والعقل، والذكورة، والعلم، والعدالة.

فلا شك في وجوب أن يكون القاضي مسلماً حتى يتسنى له تولي القضاء بين المسلمين فالقصد منه تطبيق الأحكام الشرعية، والكافر جاهل بها لعدم إسلامه.

ولا بد من نباهة القاضي وفطنته، ولا بد من أن يكون ذكراً، لحديث رسول الله ρ : "لن يفلح قومٌ ولّوا أمرهم امرأة"³

وقد ذهب جمهور من علماء المالكية، والشافعية، والحنابلة إلى اشتراط الذكورة في القاضي.

¹ / محمد الخضر حسين، الهداية الإسلامية، الموسوعة، مجلد 10، مصدر سابق، ص 70-71.

² / المصدر السابق، ص 71.

³ / أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي/ باب: كتاب النبي ρ إلى كسرى وقيصر/الجزء رقم:6، الصفحة رقم:8-4425.

ويبين الإمام في هذا الصدد أن ما نسب لأبي حنيفة من أنه يجيز قضاء المرأة، فهو محمول في واقعة على وجه التحكيم، لا أن تتولى منصب القضاء.

وكذا ما نسب لابن جرير الطبري من إجازته لقضاء المرأة فقال الإمام أنه لم يصح ثبوته وهو مخالف للإجماع.¹

أما بالنسبة للعلم فيقول الإمام الخضر أن الشرع يستوجب في الأصل أن يكون القاضي قد بلغ مرحلة الاجتهاد في العلم الشرعي، وبما أن هذا نادر التحقيق، جاز أن يتبع القاضي مذهب إمام من أئمة الاجتهاد، كالأئمة الأربعة: مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة.

وأما العدالة فقد بين الإمام أن القاضي العدل تُحمل أحكامه على أنها موافقة للحق، خلاف غير العدل، إلا إذا تبين عكس ذلك، وذكر الإمام أن كثير من أهل العلم عدّوا العدالة شرطاً في صحة القضاء، وقالوا: "من لا تجوز شهادته لا تصح ولايته"² والعدالة هي الاستقامة، بحيث يكون القاضي مجتنباً الكبائر، تاركا الصغائر، أميناً، غير مغفل. وهذا الشرط معتبر عند جمهور الفقهاء.

القضاء العادل في الإسلام:

لا يمكن للقاضي أن يكون عادلاً في القضاء إلا إذا استمع لكلا الطرفين المعنيين بالدعوى، ولا بد للقاضي أن يلتزم بأمر منها ما ذكره عمر بن الخطاب رضي الله عنه في رسالته لأبي موسى الأشعري، حيث قال فيها: "أس-سو بينهم- بين الناس في مجلسك، وفي وجهك، وقضائك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا يبئس ضعيف من عدلك"³

¹ / انظر: محمد الخضر حسين، الهداية الإسلامية، الموسوعة، مجلد 10، مصدر سابق، ص 73.

² / المصدر السابق، ص 74.

³ / محمد الخضر حسين: "رسائل الإصلاح"، الموسوعة، مجلد 5، مصدر سابق، ص 96.

وذكر الإمام الخضر جملة من العوامل التي لا بد للقاضي أن يتصف بها، حتى يحقق الاستقلال في القضاء، وهي:¹

أولاً: أن لا يبالي بإرضاء الرئيس الأعلى عند الفصل في القضية.

ثانياً: أن لا يجعل للعاطفة سلطاناً، سواءً كانت عاطفة محبة أو عاطفة عداوة.

ثالثاً: أن لا يجعل للجمهور وزناً، فلا يسعى لنيل رضاه.

رابعاً: أن يكون نقي القلب والفكر غير غضبان، طاهر اليد من متاع الدنيا كالرشوة.

والقاضي العادل لا يصر على حكم قضاه، إذا تبين له أنه على خطأ، كما ذكر ذلك الإمام الخضر بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لا يمنعك قضاء قضيته اليوم، فراجعت فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل"²

ولقد ضرب الإمام الخضر حسين في حديثه عن القضاء العادل في الإسلام، جملة من النماذج من سيرة الرسول μ ، والخلفاء الراشدين، والصالحين من قضاة التاريخ الإسلامي، بعدما ذكر بعض الآيات والأحاديث في هذا الموضوع.

فمن الآيات قوله تعالى: [وَإِنْ حَكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ] (المائدة/42) ومن الأحاديث قوله μ : "أَنَّ النَّبِيَّ μ قَالَ: "الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ، رَجُلٌ قَضَى بِغَيْرِ الْحَقِّ فَعَلِمَ ذَلِكَ فَذَكَرَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ لَا يَعْلَمُ فَأَهْلَكَ حَقُّوقَ النَّاسِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَى بِالْحَقِّ فَذَكَرَ فِي الْجَنَّةِ" ³

¹ / أنظر انظر محمد الخضر حسين: "الهداية الإسلامية"، الموسوعة، مجلد10، مصدر سابق، ص 68-69.

² / المصدر السابق، ص 69.

³ / محمد الخضر حسين: "رسائل الإصلاح"، الموسوعة، مجلد5، مصدر سابق، ص 95. والحديث هذا لفظه في سنن الترمذي / أبواب الأحكام عن رسول الله μ . / باب: ما جاء عن رسول الله μ في القاضي/ الجزء رقم:3، الصفحة رقم: 6-1322.

وذكر الإمام الخضر شواهد من التاريخ الإسلامي نذكر منها قوله: " أخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فرساً من رجل على سوم، فحمل عليه، فعطب، فخاصمه الرجل، فقال عمر: اجعل بيني وبينك رجلاً، فقال الرجل: إني أرضى بشريح العراقي. فقال شريح: أخذته صحيحاً سليماً، فأنت ضامن له حتى ترده صحيحاً سليماً، قال الشعبي - وهو راوي القصة - : فكأنه أعجبه، فبعثه قاضياً"¹

وذكر الإمام الخضر من قضاة الإسلام من لا تأخذه في الله لومة لائم، حتى ولو كان السلطان، فقال: "شهد السلطان بايزيد عند شمس الدين محمد بن حمزة الفناري قاضي الأستانة في خصومة رفعت إليه، فرد القاضي الشهادة، ولما سأله السلطان عن وجه ردها، قال له: إنك تارك للجماعة. فبنى السلطان أمام قصره جامعاً، وعين لنفسه فيه موضعاً، ولم يترك الجماعة بعد ذلك"²

وذكر الإمام العديد من الشواهد على تاريخ القضاء في الأندلس، والتي تبين رقيه وبلوغه درجة عالية من تحقيق العدل والمساواة بين الناس، وأن القاضي بإمكانه استدعاء أيّاً كان للمحاكمة حتى ولو كان الخليفة نفسه، يقول في هذا: " حكم ابن بشير قاضي قرطبة على الخليفة عبد الرحمن الناصر في قضية رفعها عليه أحد المستضعفين من الرعية، وأبلغ الخليفة الحكم مقروناً بالتهديد بالاستقالة من القضاء إذا لم يسلم الحكم، ويبادر إلى تنفيذه"³

وبيّن الإمام أن من صلاحية الحاكم أن يكره على تولية القضاء من هو أهل له إن رغب عن المنصب، ونقل قول الإمام مالك رحمه الله حيث قال لما سئل: " هل يجبر الرجل على ولاية القضاء؟ قال: لا، إلا أن لا يوجد منه عوض، فيجبر عليه، قيل له:

¹ / محمد الخضر حسين: "رسائل الإصلاح"، الموسوعة، مجلد5، مصدر سابق، ص 100.

² / المصدر السابق، ص 98.

³ / المصدر نفسه، ص 99.

أيجبر بالضرب والسجن؟ قال: نعم".¹

ومما سبق، ندرك مكانة القضاء وأهميته، ومقصد الاسلام من إقامته على الأساس السليم الذي يضمن حماية الحقوق، والحفاظ على الأنفس والأموال، وكذا منع الظلم والعدوان.⁽²⁾

وفي الأخير نذكر قول الإمام محمد الخضر حسين وهو يختتم هذا المقال بقوله: "حقيقة إن الإسلام بنى القضاء على أسس محكمة، ونظم صالحة، وأخرج للناس قضاة سلكوا إلى العدل في الحكم، والحزم في التنفيذ، مسلكاً هو أقصى ما يستطيعه البشر، وأرقى ما يجده الباحث في القديم والجديد، فإذا توفقت الدول الإسلامية لأن تربي رجالاً مثل من وصفنا علماً وجلالة، أمكنها أن تحتفظ بروح العدل الذي لا يجري إلا على يد من تفقه في كتاب الله، وسنة رسوله، واهتدى بحكمتها إلى أن الدنيا متاع، وأن الآخرة هي دار القرار"³.

المطلب الثالث: منهج محمد الخضر حسين في طرح الحرية

كانت محاضرة "الحرية في الإسلام" باكورة أعمال الإمام الخضر في تونس بنادي "جمعية قداماء تلامذة الصادقية" مساء السبت 17 ربيع الثاني من عام 1324هـ⁴، في زمن تشهد فيه تونس الاحتلال الفرنسي تحت ما يسمى بـ"الحماية الفرنسية على تونس"!.

وهي بمثابة رد على المستدمر في تحديد مفهوم الحرية.

¹ / محمد الخضر حسين: "رسائل الإصلاح"، الموسوعة، مجلد5، مصدر سابق، ص 101.
²/ انظر: محمد الزحيلي، التنظيم القضائي في الفقه الإسلامي وتطبيقه في المملكة العربية السعودية، دار الفكر، دمشق، ط1، 1400هـ-1980م، ص:24.

³ / محمد الخضر حسين: "رسائل الإصلاح"، الموسوعة، مجلد5، مصدر سابق، ص 103.
⁴ / انظر: محمد الخضر حسين: "محاضرات اسلامية"، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 3.

وبسبب هذه المحاضرة وما كان لها من وقع في النفوس، أصبح الشيخ مطلوباً من السلطة ومراقباً من عيون الاستعمار الفرنسي، بالإضافة إلى منعه من تولي مرتبة الطبقة الأولى للمدرسين في جامع الزيتونة.

وقد بين أن سبب إلقاءه هذه المحاضرة هو السيد "خير الله" رئيس "جمعية قدماء الصادقية"، وذلك من خلال صحيفة أرسلها له صديقه النحرير الشيخ السيد محمد الطاهر بن عاشور¹، يطلب منه وضع مسامرة تنطبق وخطة الجمعية وبعد التفاهم مع رئيس هذه الحفلة الجامعة محمد الطاهر بن عاشور وقع الاختيار على عنوان: الحرية في الإسلام.

"وقد بدا الخضر حسين في هذه المحاضرة جامعا لأهم مقومات الداعي وشروط المصلح وهي الوعي الكامل بالواقع إلى جانب امتلاك القدرة العلمية"².

قدّم الإمام لحال الأمة العربية قبل الإسلام مبينا ما اعتراها من عدل وظلم بأسلوب رائع ومعانٍ بليغة³، إلى أن وصل إلى التعريض بظلم الاستعمار الفرنسي قائلاً: "قائمة التي بليت بأفراد متوحشة تجوس خلالها أو حكومية جائرة تسوقها بسوط الاستبداد، وهي الأمة التي نصفها بصفة الاستعباد، وننفي عنها لقب الحرية"⁴.

ليدخل بعد ذلك في صلب الموضوع مبينا حقيقة الحرية والمشورة والمساواة، ثم يذكر أقسام الحرية، مبتدئاً بالحرية في الأموال تليها الحرية في الأعراض، فالدماء ومن ثم الدين، مختتماً بالحرية في خطاب الأمراء.

ذكر الإمام تعريفاً للفظ الحرية قائلاً: "تنبئ هذه الكلمة بسائر تصاريفها في اللسان العربي على معانٍ فاضلة ترجع إلى معنى الخلوص، يقال: حرَّ يَحْرُ، كظَلَّ يظُلُّ، حَرَاراً -بافتح- بمعنى : عتق، والاسم: الحرية، والحرّ: خلاف العبد، والخيار من كل شيء،

¹ / أنظر: محمد الخضر حسين: "محاضرات إسلامية"، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 5.

² / طاهر بن سالم، مرجع سابق، ص 324.

³ / أنظر: محمد الخضر حسين: "محاضرات إسلامية"، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 5-11.

⁴ / المصدر السابق، ص 11.

والفرس العتيق، والفعل الحسن، والحر من الطين والرمل: الطيب، والحرّة ضد الأمة، والحرّة من السحاب: الكثيرة المطر، وتطلق على الكريمة من النساء، ووردت صفة للنفس في كثير من أشعارهم¹

وقال عنها: "ينصرف هذا اللقب الشريف في مجاري خطابنا اليوم إلى معنى يقارب معنى استقلال الإرادة، ويشابه معنى العتق الذي هو فكُّ الرقبة من الاسترقاق، وهو أن تعيش الأمة عيشة راضية تحت ظل ثابت من الأمن، وعلى قرار مكين من الاطمئنان، ومن لوازم ذلك: أن يعين لكل واحد من أفرادها حد لا يتجاوزه، وتقرر له حقوق لا تعوقه عن استيفائها يد غالبية"².

ثم بيّن الإمام الخضر أن الأساس الذي ترفع عليه قواعد الحرية هو التربية والتعليم، ولا بد للحكومة أن تهذب أخلاق الأمة وتطورها بالتعليمات الصحيحة وتتنظر إلى فضيلة الحرية بعين الاحترام.³

كما أكد الإمام أن أساس وجود الحرية يكون بوجود قاعدتين اثنتين هما: المشورة والمساواة.

المشورة: يعتبرها الإمام الخضر حسين أساساً من أسس قيام الحرية، ولإبراز العلاقة بين الراعي والرعية أو بين الحاكم والمحكومين استشهد الإمام الخضر بمجموعة من الآيات والأحاديث.

وجاء ذكر المشورة في القرآن في موضعين اثنين أولهما في سورة آل عمران الآية 159 في قوله تعالى: [وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ]، ثانيهما في سورة الشورى الآية 38 في قوله تعالى: [وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ].

¹ / محمد الخضر حسين: "محاضرات إسلامية"، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 11.

² / المصدر السابق، ص 12.

³ / المصدر نفسه، ص 13.

أمر المولى عز وجل نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام بالمشورة وهو المؤيد بالوحي، قال الإمام الخضر: "أذن له p بالاستشارة، وهو غني عنها بما يأتيه من وحي السماء، تطيبها لنفوس أصحابه، وتقريراً لسنة المشاورة للأمة من بعده. أخرج البيهقي في "الشعب" بسند حسن عن ابن عباس قال قال رسول الله p: "أما إن الله ورسوله لغنيان عنها - أي: المشورة-، ولكن جعلها الله رحمة لأمتي، فمن استشار منهم، لم يعدم رشداً، ومن تركها، لم يعدم غياً".¹

وهكذا اتبع الصحابة رضوان الله عليهم منهج القرآن والسنة في هذه المسألة، ومن ذكر مشورة أبي بكر الصديق للصحابة الكرام في مسألة الخلافة بأن يوصي بخلافة عمر بن الخطاب بعده، وبدوره أوصى عمر بن الخطاب باختيار واحد من الستة أهل المشورة.

وقيام السلطة بالشورى دليل على الحرية والتفاعل، يقول الخضر في هذا: "فالإسلام أُرشد إلى الشورى بقوله تعالى: [وَأْمُرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ] [الشورى:38] وقصد إلى إقامتها على وجه ينفي الاستبداد، ويجعل الحكام لا يقطعون أمراً حتى تتناوله آراء أهل الحل والعقد، وأبقى النظر في وسائل استطلاع الآراء إلى اجتهاد أولي الأمر وإلى ألمعيتهم، فهم الذين يدبرون النظم التي يرونها أقرب وأكمل، فيستطلعون الآراء باقتراع سري أو علني بالكتابة أو برفع الأيدي أو بالقيام، ولهم النظر في تعيين من يستفاد من آرائهم وكيفية انتخابهم"².

وخلاصة القول أن الخضر حسين يرى المشورة القاعدة الأولى التي تقوم عليها الحرية. **المساواة:** وهي القاعدة الثانية لقيام الحرية كما يقول الإمام الخضر حسين، وباعتبار أن الناس ولدتهم أمهاتهم أحراراً فإنهم بالضرورة سواسية أمام أحكام الشريعة، قال تعالى:

¹ / محمد الخضر حسين: "محاضرات إسلامية"، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص17. حسنه السيوطي: "الدرر

المنثور لمؤلفه في التفسير بالمأثور"، ج2، مكتبة المثني، بغداد، ص90 .

² / محمد الخضر حسين: "نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم"، الموسوعة، مجلد 9، مصدر سابق، ص 197.

[يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَلِيمٌ خَبِيرٌ] (الحجرات/13)

فطبق النبي p هذا المبدأ في حياته، وقال في القصة المشهورة - قصة المرأة المخزومية التي سرقت - : " لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"¹.

ومضى الصحابة رضوان الله عليهم على نهجه، فهذا الخليفة أبو بكر الصديق يقول في خلافته: "أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له الحق - إن شاء الله تعالى -"²، وكذا قول عمر بن الخطاب في رسالته التي بعثها إلى أبي موسى الأشعري: " وآس بين الناس في مجلسك ووجهك وعدلك، حتى لا ييأس الضعيف من عدلك، ولا يطمع الشريف في حيفك"³.

وبعد ذلك قسم الخضر حسين الحرية إلى خمسة أصناف أولها:

الحرية في الأموال: وشمل هذا العنصر التحدث عن طرق اكتساب الأموال، وطريقها الوسط - الأمتل -، والتمتع بها، والاعتداء عليها.

فمن ناحية اكتسابها: وضع الإمام الخضر حسين أن الدين أباح كل عمل يستترزق منه الانسان بشرط أن لا يلحق بصاحبه أذى، ولا بغيره ضرر، ويكون الرزق مباحاً - حلالاً - ولا يشغل صاحبه عن العبادة، قال الإمام الخضر: "فلا حرج في جمع الدنيا من الوجوه المباحة، ما لم يكن صاحبها عن الواجبات في شغل شاغل"⁴، وبين الإمام أن كل ما يقوم به المعاش من حرف وصنائع هو في حكم فرض الكفاية ما دامت هناك طائفة قائمة بذلك، فإن عدمت الطائفة أئمت الأمة.

¹ / أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب: من شهد الفتح/ رقم الحديث:4304، ص 890.

² / محمد الخضر حسين: "محاضرات إسلامية"، الموسوعة، مجلد 04، مصدر سابق، ص 23

³ / المصدر السابق، ص 24.

⁴ / المصدر نفسه، ص 25.

ومن ناحية الطريق الوسط: بين أن الشريعة لم تترك صغيرة ولا كبيرة من وجوه التصرف في الأموال إلا أحصتها، وذكر أحكام هذه الوجوه مرتبة على أبواب، يدرك القارئ لها مكانة الشريعة الإسلامية وقال في آخرها: " فإذا أنت تدبرت هذه الأبواب المدونة، ودققت النظر في أحكامها المفصلة، لتعلم أين مكانها من الإصلاح والنظام، ظفرت فيها بنظومات محكمة، وأصول عمرانية، لا تصل الناس إلى السعادة الاجتماعية، والمعاملة بشرف وفضيلة إلا من طريقها الوسطى"¹

التمتع بالأموال: أذن الإسلام بالتمتع بالأموال شرط أن يقتصد المسلم في ذلك، ويحقق التوازن ويرجو بذلك رضا الله، قال تعالى: [وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ] (القصص/77)، ولما كان السرف في صرف الأموال، وبسط الراحة بإنفاقها، يفضي إلى نفاذها، والتشوف إلى ما في أيدي الناس، أو يؤدي - في الأقل - إلى قتلها، وعيش صاحبها كاسفاً على ما فاته من السعة ورفاهية الحال، أمر الشارع بالاعتدال في الاستمتاع بها، ولم يرسم لذلك حداً فاصلاً، بل أوكله إلى اجتهاد المكلف، وما يعلم من وسعه، فقال تعالى [لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ] [الطلاق 7]²

الاعتداء على الأموال: بما أن المال إحد الضروريات الخمسة التي جاء الإسلام لحفظها، فقد راعى الإسلام الحفاظ عليه من ناحية الوجود ومن ناحية العدم.

فمن ناحية الوجود سبق وذكرنا أن الإسلام شرع أسباب إيجاد العمل وطرق كسبه، ومن ناحية العدم، شدد على كل من يعتدي على أموال الناس بغير حق أو يسعى لكسبه بوجه غير مشروع.

¹ / محمد الخضر حسين: "محاضرات إسلامية"، الموسوعة، مجلد 04، مصدر سابق، ص 28.

² / المصدر السابق، ص 30.

ويرى الإمام أن حب المال هو الذي يجعل من المرء قاسياً فظاً، متسلطاً، وقد يطغى إلى درجة القتل حتى يحصل عليه، لهذا نهى الإسلام وشدد عن اغتصاب الأموال، أو التصرف فيها بغير إذن صاحبها، قال ρ: "مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شِبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ"¹

" قال تعالى: [وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْخِلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِيَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ] [البقرة 188].

وقد تضمنت هذه الآية الإشارة إلى حكم الارتشاء، وقال في شأنه: النبي ρ (لعن الله الراشي)، وهو دافع الرشوة، (والمرتشي)، وهو قابضها، (والرائش)، وهو المتوسط بينهما. الرشوة أخت السرقة، وابنة عم الاغتصاب، وإن شئت فقل: تزوج الاغتصاب بالسرقة، فتولدت بينهما الرشوة"².

"ولما كانت الرشوة عقبة كؤوداً في سبيل الحرية، أخذت الشريعة في تحريمها بالتالي هي أحوط. فلا يسوغ للقاضي قبول الهدية إلا من خواص قرابته، كيلا تنزل به مدرجتها إلى أكل الرشوة، أو يتخذ اسم الهدية غطاء للرشوة يسترها به عن أعين المراقبين لأحواله السرية، وردّ عمر بن عبد العزيز τ الهدية، فقليل له: كان النبي ρ يقبلها، فقال: كانت له هدية، ولنا رشوة، لأنه كان يتقرب إليه لنبوته، لا لولايته، ونحن يتقرب بها إلينا لولايتنا"³.

وذكر الإمام صورة أخرى تبين الاعتداء على الأموال، وهي الربا، ثم بيّن أن العقوبات المتعلقة بالجناية على الأموال أربعة أنواع وهي:

أحدها: عقوبة السارق، قال تعالى [وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا

¹ / محمد الخضر حسين: "محاضرات اسلامية، الموسوعة، مجلد 04، مصدر سابق، ص 34. والحديث في صحيح البخاري/ كتاب المظالم/ باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض/ رقم الحديث: 2453 ص 507.

² / المصدر السابق، ص 34 .

³ / المصدر نفسه، ص 35

نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَزِيْرٌ حَكِيْمٌ] (المائدة/38)، وعقوبة الشارع الحكيم قطع اليد فيما بلغ الربع دينار ذهبي وفي هذا عصمة لأموال الناس، وزجر وردع لمن تخول له نفسه السرقة.

ثانيها: عقوبة الحرابة، وهي قطع السبيل وترويع الناس وأخذ المال باطلا، قال تعالى: [إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفِهِ أَوْ يُنْفَذُوا مِنْ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ] (المائدة/33) فتخيير العقوبة هنا لكون المحاربين ليسوا سواء، فمن كان ذا دهاء وفتنة ومكر وتدبير يجب قتله، ومن لم تتوفر فيه جميع الصفات تغيرت العقوبة حسب حجم الضرر والخطر.

ثالثها: "عقوبة المتعدي بغير السرقة والحرابة، كالغاصب، وأمر تشخيصها وتحديدتها موكل إلى ذكاء القاضي وعدالته، يجتهد فيها برأيه، ويقدرها على حسب الجناية.

رابعها: عقوبة المتلف لمال غيره، وهي تغريمه المثل أو القيمة، والعقوبة بالمال في غير هذه الجناية وقع النزاع في حكمها".¹

الحرية في الأعراض:

بيّن الخضر حسين أن صيانة الأعراض من أهم وأعلى ما يمتله الإنسان، بل قد يضحي بماله أو بنفسه من أجل الحفاظ عليها، كم جاء في قول الشاعر:

أصون عرضي بمالي لا أدنسه لا بآرك الله بعد العرض في المال²

وقول أبي الطيب المتتبي:

يهون علينا أن تصاب جـسـومنا وتسلم أعراض لنا وعقول³

وجاء في الأحاديث الصحيحة أن قذف المحصنات من الكبائر، قال رسول الله:p

¹ / محمد الخضر حسين: "محاضرات إسلامية، الموسوعة، مجلد 04، مصدر سابق، ص 40.

² / المصدر السابق، ص 40

³ / المصدر نفسه، ص 41

اجتنبوا السبع الموبقات- يعني: المهلكات- قلنا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.¹

وذكر الإمام جملةً من الآيات بيّن فيها الإسلام إلزامية صون الأعراس وحذر وشنع منتهكها، منها قوله تعالى [...وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم مِّمَّا بَعْضًا أُكْرِهْتُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ...] الحجرات:12].

وكثير من أحكام الشريعة مبني على مبدأ صيانة الأعراس.

الحرية في الدماء:

الدماء أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة كما جاء في الحديث: "أول ما يُقضى بين الناس بالدماء"² وبما أن هدم البنية الإنسانية من أعظم المفاسد، فإن الذنوب تعظم بحسب عظم المفسدة الواقعة بها، ولا يوجد بعد الكفر أعظم من سفك الدماء.

يقول الإمام الخضر في هذا: "ولمكان العناية بحفظ الدماء بنيت أحكامها على أساس الاحتياط، حتى لا يجد الأشياء ذريعة إلى إهدارها، ومن هذا اتفق الصحابة p على قتل الجماعة الكثيرة بالواحد، وإن كان القصاص يقتضي المساواة، وقتل عمر ابن الخطاب سبعة من أهل صنعاء، وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء، لقتلتهم به، ويقتص ممن قتل في حال سكر، وإن لم يكن متعمداً، لئلا يتخذ السكر وسيلة إلى أنهار الدماء في سبيل الأعراس"³.

وبين الإمام أن المولى عز وجل شرع الدية في حال عفا أهل القتل، ورضوا بها دون

¹/ رواه الشيخان واللفظ للبخاري /كتاب: الوصايا/ باب قول الله تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا] الجزء رقم:4، الصفحة رقم:10-2766.

²/ رواه البخاري رقم 6533

³/ محمد الخضر حسين: "محاضرات اسلامية"، الموسوعة، المجلد 04، مصدر سابق، ص 46-47.

القصاص، هذا في حال القتل العمد، أما الخطأ ففيه الدية فقط وشرعت للأخذ بخاطر المصابين والتخفيف عنهم.

ويوضح الإمام أنه لا يحل دم مسلم إلا لأسباب تكون الفتنة فيها أشد من القتل: كالزاني المحصن.

الحرية في الدين: ضرب الإسلام أفضل مثل للحرية في الدين، منذ العهد المكي إذ أنزل المولى عز وجل ما يدل على أن اعتناق الإسلام ليس فيه إكراه أو جبر، كقوله تعالى في سورة الكافرون [لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ] (الآية 6)، وكذلك في العهد المدني إذ قال في سورة البقرة: [لَا إِكْرَاهَ فِي دِينِ] (الآية 256).

واتبع الخلفاء الراشدون من بعد رسول الله ρ ذلك المنهج القويم في التعامل مع أهل الذمة، والعهد العمرية خير مثال على ذلك.

وذكر الإمام الخضر حسين أن الإسلام ضمن حقوق الأمم التي تعيش تحت لواء الإسلام وحريتها، وذلك بإقامة شعائرهم، ومنح المسلم حق تأمين غير المسلم، والسماح له بالزواج من الذمية من أهل الكتاب.

كما أوضح الإمام أن الإسلام شدد على المرتد بالعقوبة وهي القتل بقوله: "وفي جعل عقوبة المرتد إباحة دمه زاجراً للأمم الأخرى عن الدخول في الدين مشايعة للدولة، ونفاقاً لأهله، وباعث لهم على التثبث في أمرهم، فلا يتقلدونه إلا على بصيرة وسلطان مبين، إذ الداخل في الدين مداجاة ومشايعة يتعسر عليه الاستمرار على الإسلام وإقامة شعائر"¹

الحرية في خطاب الأمراء: عبر الإمام الخضر عنها بالعلاقة بين الدين والمُلك، ونحن نعلم أنها طبقت في العهود الأولى، وانقضت بالخلافة الراشدة، ولم يمثلها أحد بعد ذلك إلا الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز كما هو معروف عند المسلمين من خلال ما نقل إلينا من سيرته العطرة.

¹ / محمد الخضر حسين: "محاضرات اسلامية"، الموسوعة، مجلد 04، مصدر سابق، ص 51.

وقال الإمام الخضر أنه من الواجب أن تقوم العلاقة بين الدين والملك على أساس من الاتحاد والوفاق، مبينا ذلك بقوله: " لا يخفى على متشرع بصير أن الملك والدين أخوان يشد كل منهما بعضد الآخر، بل الدين رائد للملك، والملك تابع للدين، خادم له، وإن شئت فقل: هما كمثل إنسان، الدين عقله المدبر، والملك جسمه المسخر له، وذلك الإنسان هو ما نسميه الآن بالإسلام، فبمقدار ما ترتبط الإدارة السياسية بالإدارة الدينية، يكمل شبابه، وتجري روح الاستقامة في أعضائه، فتصدر أعماله قرينة الحكمة، سالمة من العيوب، ومتى انفكت أولاهما عن أخراهما، انحلت حياته، وتناثرت أجزاءه...¹"

ولكن الواقع في زمان الخضر وزماننا يختلف عن تعاليم الإسلام، لأن من ملك زمام أمور الحكم علم أن شهواته لا تحتمل تعاليم الدين، فشمّر عن يد الاستبداد، وأرعب الناس، وجعل كلمته هي الفاصلة بسلطة السيف، وهذا حال معظمهم لأسف.

ولكن الحرية إذا خالطت نفسا زكية قد تتغير حال الأمة بسببها، يقول الإمام الخضر في هذا: "وإذا أضاعت على الأمة شמוש الحرية، وضربت بأشعتها في كل وارد، اتسعت آمالهم، وكبرت همهم، (...)، والحرية تؤسس في النفوس مبادئ العزة والشهامة، فإذا نظمت الحكومة منهم جندا، استماتوا تحت رايتها مدافعة، ولا يرون القتل سبّة إذا ما رآه الناكسون رؤوسهم تحت راية الاستبداد"².

وخلاصة القول هو: أن الحرية أساس انتظام العلاقة بين الحاكم والمحكومين، وانتظام المجتمع، طالما سادته المشورة والمساواة.

المبحث الخامس: الإصلاح الاقتصادي

¹ / محمد الخضر حسين: "محاضرات اسلامية، الموسوعة، مجلد 04، مصدر سابق، ص 52.

² / المصدر السابق، ص 56.

المطلب الأول: الاقتصاد عند الإمام محمد الخضر حسين

تعريف الاقتصاد التقليدي والاقتصاد الإسلامي

الاقتصاد لغة: مشتق من القصد وهو استقامة الطريق، والقصد هو العدل، والقصد في الشيء خلاف الإفراط، وهو منزلة بين الإسراف والتقتير، والقصد في المعيشة أن لا يُسرف ولا يُقتَر¹، وعليه فإن الاقتصاد هو التوسط والاعتدال والاستقامة، قال الله تعالى: [وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا] (سورة الفرقان: الآية: 67) وبذلك يُعدُّ رتبة بين رتبتين، أو منزلة بين منزلتين، وهما الإفراط والتقريط، وفي ذلك يقول الله تعالى أيضا: [وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ مَنُوكَ وَلَا تَبْسُطْ كُلَّ النَبْطِ فَتَقْعَدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا] (الإسراء: 29).

الاقتصاد اصطلاحًا: مصطلح الاقتصاد ظهر على لسان أرسطو، حيث قصد به: "علم قوانين الذمة المالية المنزلية"، أي "العلم الذي يشتغل بالشؤون المالية للمنزل".

على أيامنا هذه يصعب تحديد معنى أو مفهوم للاقتصاد تتفق عليه كل المدارس الاقتصادية التي ظهرت في القرون الأخيرة، فكل مدرسة قدمت تعريفا للاقتصاد من زاوية نظرها وتبعا لأيدولوجيتها وأفكارها، وفيما يلي بعض من هذه النماذج:

تعريف آدم سميث²: "هو العلم الذي يدرس الكيفية التي تمكن الأمة من أن تغتني"³، وهذا التعريف يركز على كيفية تحصيل الثروة، وفي تعريف مشابه: يُعرف الاقتصاد بأنه

¹ ابن منظور: "لسان العرب"، دار صادر، 2000، بيروت، ج: 12، ص 113.

² آدم سميث (1723-1790): فيلسوف وعالم اقتصاد اسكتلندي، اشتهر بكتابه بحث في طبيعة ثروة الأمم وأسبابها، وهو أول عمل يتناول الاقتصاد الحديث، دعا إلى تعزيز المبادرة الفردية، والمنافسة وحرية التجارة بوصفها الوسيلة الفضلى لتحقيق أكبر قدر من الثروة.

³ أسامة محمد المرضي سليمان خيال: "كتاب التحليل الاقتصادي الهندي"، دن، 2018، السودان، ص 1.

"علمٌ يبحث في ثروة الشعوب والأسباب التي تجعل مرتبة أمة فوق مرتبة أمة أخرى"¹.
تعريف ألفريد مارشال²: عرّفه "بأنه العلم الذي يدرس نشاط الإنسان في المجتمع، وسعيه للحصول على دخله، وكيفية استعماله لهذا الدخل"³.
تعريف بول سامويلسون⁴: "دراسة اختيار الفرد والمجتمع توظيف الموارد النادرة ذات الاستخدامات البديلة لإنتاج السلع المختلفة، وكيفية توزيع هذه السلع للاستهلاك الحاضر والمستقبل، بين مختلف الأفراد والجماعات"⁵.
إنّ عرض هذه النماذج من التعريفات ليس لأجل المفاضلة بينها، وإنما ليطلع القارئ على صعوبة الإحاطة الدقيقة بموضوعات هذا العلم وطبيعة في كلمات محدودة بسبب اتساع هذا العلم وتطوره الفائق السرعة.

تعريف الاقتصاد الإسلامي:

تعريف الاقتصاد الإسلامي يختلف من عالمٍ لآخر، فكل يعرفه حسب زاوية نظره، وحسب ما يراى أنه الجانب الأبرز والأكثر أهمية، ومن التعريفات المختارة ما يلي:
أولاً: هو العلم الذي يبحث في أحسن الطرق للكسب الحلال، وإنفاقه وتوزيعه وتنميته، بهدف تحقيق مصالح الأمة الإسلامية وزيادة قوتها.⁶

¹ / أسامة محمد المرضي سليمان خيال، مرجع سابق، ص 06.

² / ألفريد مارشال (1842-1924) اقتصادي بريطاني، كان من أكثر الاقتصاديين تأثيراً في عصره، اشتهر بكتابه مبادئ الاقتصاد، حيث هيمن كتابه هذا على دراسة الاقتصاد في بريطانيا تلك الفترة، شرح من خلاله الأفكار الأساسية للاقتصاد: العرض والطلب والمنفعة الحدية وكلفة الإنتاج.

³ / أحمد جمال الدين موسى: "ميادين الاقتصاد السياسي"، دار النهضة العربية، دط، مصر، 2003، ص 02.

⁴ / بول سامويلسون (1915-2009) اقتصادي أمريكي، اشتهر بكتابه: الاقتصاد-تحليل تمهيدي-

⁵ / أسامة محمد المرضي سليمان خيال، مرجع سابق، ص 06.

⁶ / عبد الرحمن يسري أحمد: "الاقتصاد الإسلامي بين منهجية البحث وإمكانية التطبيق"، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، البنك الإسلامي للتنمية، جدة، 1999، ص 18.

ثانياً: " ذلك الفرع من المعرفة الذي يساعد على تحقيق رفاهية الإنسان من خلال تخصيص الموارد النادرة وتوزيعها بما ينسجم مع التعاليم الإسلامية، وبدون أن يؤدي ذلك بالضرورة إلى تكبير حرية الفرد أو خلق اختلالات مستمرة في الاقتصاد الكلي أو البيئة.¹

ثالثاً: "إنه يعنى بإنتاج الثروات، -مع ما يتضمنه هذا الإنتاج من تخصيص للموارد- واستهلاكها وتوزيعها وتبادلها، بالاستناد إلى مقاصد الإسلام وتعاليمه.²

آراء الشيخ في الإصلاح الاقتصادي:

لم يخصص الشيخ محمد الخضر حسين مؤلفاً خاصاً في حدود بحثنا - للاقتصاد الإسلامي أو المعاملات المالية، وإنما نجد له كتابات كثيرة متفرقة وموزعة على المجالات التي كتب فيها مقالات هدف من خلالها إلى إصلاح حال الجانب الاقتصادي في حياة المسلم، وكذا نجد آراءه الاقتصادية مبثوثة في فتاواه التي رد فيها على أسئلة المسلمين التي تعلقت بالجانب المالي في حياة المسلم.

وسنعرض أهم أفكار الشيخ الاقتصادية من خلال ما يلي:

الدعوة إلى العدل والإحسان في المعاملات المالية:

تناول الشيخ هذه الفكرة من خلال رده على سؤال ورده: " ما هي وسائل التي نقضي من خلالها على الغش والجشع في المعاملات المالية؟".

وقبل ذكر رد الشيخ على هذه السؤال، نتناول أولاً تعريف المعاملات المالية فيما يلي:

¹ / محمد عمر شابرا: " ما هو الاقتصاد الإسلامي؟"، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، ط2، البنك الإسلامي للتنمية، جدة، 2000، ص40.

² / رفيق يونس المصري: " بحوث في الاقتصاد الإسلامي"، دار المكتبي، دط، 2001، ص222.

مفهوم المعاملات المالية:

المعنى اللغوي:

المعاملات في اللغة: جمع معاملة، وهي مأخوذة من عاملت الرجل أعامله معاملةً.¹
أما المالية: فهي نسبة إلى المال، والمال كل ما ملكته من جميع الأشياء.²

المعنى الاصطلاحي:

المعاملة: تطلق المعاملة في الاصطلاح على الأحكام الشرعية المنظمة لتعامل الناس في الدنيا.³ فالمعاملات هي: "الأحكام الشرعية المنظمة لتعامل الناس في الأموال، وهي تشمل المعاوضات: من بيع وإجارة، والتبرعات: من هبة ووقف، ووصية، والإسقاطات: كالإبراء من الدين، والمشاركات، والتوثيقات: من رهن، وكفالة وحوالة."⁴

المالية: نسبة إلى المال وهو في اللغة ما ملكته من جميع الأشياء.⁵

وقد عرّف الأحناف المال بأنه: "ما يميل إليه الطبع، ويمكن ادخاره لوقت الحاجة"، وعرّفه الحنابلة بأنه: "ما يباح نفعه مطلقاً، أو اقتناؤه بلا حاجة"، غير بعيد من تعريف الحنابلة تعريف المالكية والشافعية، وهو أولى من تعريف الحنفية لأنه يشمل الأعيان والمنافع والحقوق.⁶

والمال عند بعض المعاصرين "هو ما كان له قيمة بين الناس، وجاز شرعاً الانتفاع به في حال السعة والاختيار".⁷

¹ ابن منظور: "لسان العرب"، ج2، ص 887.

² المرجع السابق، ج3، ص 550.

³ محمد عثمان شبير نقلا عن معجم لغة الفقهاء لقلعجي: "المعاملات المالية المعاصرة في الفقه الإسلامي"، دار النفائس، الأردن، ط4، 2001، ص 10.

⁴ محمد صالح حمدي، فقه المعاملات المالية، دار التميز، الجزائر العاصمة، ط1، 2014، ص 10.

⁵ ابن منظور، "لسان العرب"، ج3، ص 550.

⁶ عثمان شبير، مرجع سابق، ص 11.

⁷ عبد السلام العبادي: "الملكية في الشريعة الإسلامية"، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الأردن، ط1، 1974، ج1، ص 179.

وعليه نستطيع القول أن تعريف المعاملات المالية هو تلك القضايا والمسائل التي تحدث بين الناس في تعاملاتهم بالمال والأعمال.

وقد بيّن الإمام الخضر أن المملوكات إما أعيان أو منافع، وهي على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: ويتعلق بجهة انتقالها، وتنتقل الأعيان بخمسة أقسام:

"أحدها: ما ينتقل من مال إلى مالك بعوض، والعقد في ذلك إما أن يكون على عين بعين، فهو البيع، أو على عين بشيء في الذمة، فإن تماثل العوضان، ففرض، وإلا فسَلَم، أو على ذمة بذمة، فإن كانت إحدى الذمتين من غير المتعاملين، فحوالة، وإلا، فمقاصة.

الثاني: ما ينتقل من مالك إلى مالك بغير عوض، وهي الهبات والوصايا والمواريث.

الثالث: ما ينتقل من مالك إلى غير مالك بعوض، وهي الكتابة.

الرابع: ما ينتقل من مالك إلى غير مالك بغير عوض، وهو العتق والتدبير.

الخامس: ما ينقل من مالك إلى غير مالك، وهو تملك المباح من الموات.

وأما المنافع، فالعقد فيها على ضربين: منه ما هو بغير عوض، كالوقف، ومنه ما هو بعوض، وهذا إما أن يكون العوض معلوماً، فينظر في العمل المقصود، فإن كان معلوماً، فهي الإجارة، وإن كان العمل مجهولاً، فهي الجعالة، وإما أن يكون العوض مجهولاً، ولكنه في حكم المعلوم، فهو القراض والمساقاة والمزارعة".¹

الوجه الثاني: يتعلق بالأموال من جهة وضع يد الغير عليها، وهو على نوعين:

الأول: ويكون برضا صاحبه وإذنه، فإما أن يكون رهناً أو عاريةً، أو وديعةً.

الثاني: ما لم يكن بإذن صاحبه ورضاه، فإما أن يكون اللقطة أو الغصب.²

الوجه الثالث: أن المال الواحد قد يدخل في ملك متعدد، فإن بقي كذلك فهي

¹ محمد الخضر حسين: "محاضرات إسلامية"، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 27.

² انظر: المصدر السابق، ص 28.

الشركة، وإن تعلق برفع ملكية كل واحد على حدة فهي القسمة، أو الشفعة وهي انفراد أحد الشريكين بالجملة.

" فإذا أنت تدبرت هذه الأبواب المدونة، ودققت النظر في أحكامها المفصلة، علمت أين مكانها من الإصلاح والنظام، ظفرت فيها بنظمات محكمة، وأصول عمرانية، لا تصل الناس إلى السعادة الاجتماعية، والمعاملة بشرف وفضيلة إلا من طريقها الوسطى".¹

وسائل مكافحة الغش والجشع في المعاملات المالية:

أشار الشيخ إلى "أن الأمة تحيا في سلامة أو سيادة متى حظيت بقوتين عظيمتين، هما: القوة النفسية والقوة العملية:

القوة النفسية: في استتارة عقولها وسمو أخلاقها.

والقوة العملية: في إتقان فنّ الزراعة، والبراعة في الصناعة، وإحكام أمر التجارة.

فالزراعة والصناعة والتجارة هي الأصول التي تقوم عليها المدنية الزاهرة، ويحدث عنها ما يجري بين الأفراد والجماعات من المعاملات المالية".²

ثم بيّن الشيخ الهدف من المعاملات المالية حيث حصرها في ثلاثة أسباب هي:³

1- القيام بالشؤون الخاصة للإنسان والاستغناء عن ما في أيدي الناس.

2- التيسير على الناس في أمور معيشتهم، إذ ليس بمقدور الجميع الزراعة والتجارة والصناعة.

3- تحقيق المنفعة لأهل البلاد فيتمكّنوا من صد أي هجوم مباغت.

ليخلص الشيخ بعدها إلى وسائل مكافحة الغش والجشع التي اعتمدها الشرع

¹ / محمد الخضر حسين: "محاضرات إسلامية"، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 28.

² / محمد عثمان شبير: "فتاوى الإمام محمد الخضر حسين"، دار القلم، دمشق، ط1، 2017، ص413.

³ / المرجع السابق، ص414.

الإسلامي، واستعرض لذلك أحاديث النبي ρ في هذا الباب، مبيناً أن الأصل في المعاملات أنها تقوم على العدل والإنصاف والسماحة لا على الظلم والغش والجشع، يقول الإمام:

"ولفظاعة الجشع والغش في المعاملات، وإخلالهما بنظام الأمن، وتشويههما لوجه المدنية الفاضلة، عنيت الشريعة الغراء بمكافحتها: قال رسول الله ρ : [رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى]¹. ويكون الغش بنقص كيل المبيع أو وزنه، وهو التطفيف المتوقع عليه في قوله تبارك وتعالى: [وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ] (سورة المطففين، الآيات رقم: 1-4)، ويضيف الشيخ قائلاً: وفي قوله: [أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ] إيماء إلى أن عدم إيفاء الكيل والوزن في المبيعات شأن من لا يصدق بأنه سيُبعث ويحاسب على ما قدمت يده من أمثال هذه الخيانة الدنيئة.²

وقد استعرض الشيخ وسائل الشريعة الإسلامية في مكافحة الغش الذي من صورته الاحتكار، من خلال بيان آثار الغش الوخيمة على الفرد والمجتمع، حيث بين أن من آثار الغش غياب البركة في مال الغشاش، وكذا إصابة المُحتكر بالجذام وتعرضه للإفلاس وغيرها من الجوارز التي إن تمعن فيها صاحب عقل أبي أن يقع فيها بسبب شهوة في مال أو طمع فيه بغير وجه حق، كما وجه الإمام نصحه للسلطات بأن تحسن التعامل مع حالات الغش والجشع تارة بالوعظ والإرشاد وتارة بتخصيص العقوبات العادلة النافذة.

حكم التأمين التجاري:

تعريفه: "هو عقد يلتزم بمقتضاه أن يؤدي إلى المؤمن له أو المستفيد الذي اشترط التأمين لصالحه مبلغاً من المال أو إيراد أي عوض مالي آخر في حالة وقوع حادث أو

¹ / صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، رقم (1970)

² / محمد عثمان شبير، مرجع سابق، ص 420.

تحقق الخطر المبين في العقد، وذلك مقابل قسط أو أية دفعة مالية أخرى يؤديها المؤمن له للمؤمن"¹

فتوى الشيخ في التأمين التجاري:

أقر الإمام الخضر ما ذكره مفتي بيروت من حرمة التأمين التجاري، ومما يؤيد ذلك ما ذكره الإمام في موضع آخر: "من الأمثلة الظاهرة الحرمة، لشدة ما فيها من الغرر - حتى لا يعلم أحد المتعاقدين ربحه من خسره - ما شاع من عقود التأمين"، ومن صورها: أن يتعاقد شخص وشركة على حياته، أو عقاره، أو سلعته، ملتزمًا أن يؤدي للشركة مبلغًا معينًا في مدة معينة على أقساط، فإذا مات قبل نهاية المدة، أو هدم العقار، أو هلكت السلعة، وجب على الشركة أن تؤدي إليه أو لورثته المبلغ المتعاقد عليه، ولو لم يدفع منه إلا قسطًا واحدًا، وحينئذ يأخذ مالاً بغير وجه شرعي، ومثل هذه العقود محرمة، لأنها مبنية على المخاطرة والضرر الذي من أجلها حرم الميسر"².

المطلب الثاني: الرفاهية في الإسلام:

الإسلام دين وسط واعتدال في كل الأمور، سواء ما تعلق منها بالعبادات أو المعاملات، فلا تجد فيه إفراطًا في جانب على غيره، ولا تفريطًا في أمر مهم. وقد جاءت مقاصد الشريعة الإسلامية لجلب المنافع للناس ودفع المضار عنهم، فحدد الإسلام أقسام المقاصد، وقسمها إلى ضرورية وحاجية وتحسينية. وتعتبر الرفاهية في الإسلام من المقاصد التحسينية التي تمد للإسلام لمسة جمالية إذا كانت وفق الضوابط الشرعية.

¹ / مستوري محمد: "التأمين التجاري"، حقيقته وحكمه وبديله في الفقه الإسلامي، مجلة الاجتهاد للدراسات القانونية، تمناست، ع:02، 2012، ص75.

² / محمد عثمان شبير، مرجع سابق، ص 223-224.

وقد بين الإمام الخضر حسين أن الناس يختلفون في انقيادهم لزينة الحياة الدنيا، فمنهم من ينكب عليها ويلهث وراء زخرفها، وهذا عقبة في سبيل الإسلام.

وصنف آخر ينصرف عنها جملة وتفصيلا، ولو جاءت على وجه النعمة، وهذا ناكر للنعمة غافل عن شكر المنعم.

والحقيقة أن الإسلام قد جعل لكل شيء قدرا، حتى الزينة، فأذن فيها بكل ما هو طيب، وزجر فيها عن كل ما هو خبيث، وبين الطيب والخبيث حدود معلومة، أمر بالاعتدال والتوسط فيها.¹

وبين الإمام أن المولى عز وجل نهى عن الاستكثار واتباع الشهوات، لأن أكثر الناس مسرف في اتباعها، وقليل منهم منصرف عنها.

أنواع الزينة والملذات في الإسلام:

وضح الإمام الخضر أن الإسلام يرى أن الزينة والملذات ثلاثة أنواع هي:

النوع الأول: ما يأتي بسببه فساد قليلا كان أم كثيرا، وهذا منهي عنه شرعا، إما بالتحريم كأكل الربا وشرب الخمر ولبس الذهب والحريير للرجال والاتصال بالأجنبيات من غير طريق مشروع، أو الكراهة كتناول طعام من يغلب على ماله الحرام، ولبس الرجل ثوبا يخالف المألوف من أثواب الرجال.²

النوع الثاني: ما كان منه مصلحة، وهذا دعا إليه الشرع وندب له، كابتغاء الولد الصالح من الزواج، أو صون النفس من الزلل، وكلبس المسلم الثياب الجديدة حتى لا يُحتقر.

النوع الثالث: ما لم يتعلق به مفسدة ولا مصلحة، كاتخاذ الملابس من غير إسراف، وتناول الطعام الطازج من غير تبذير، وهذا لا يلام فاعله ولا يمدح تاركه، إلا إذا ترك من

¹ / انظر: محمد الخضر حسين، محاضرات اسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 109.

² / المصدر السابق، ص 110.

أجل غاية محمودة فيثاب عليها.

وقد يختلف الفقهاء في الأمر تتلذذه الأنفس، فيلحقه بعضهم بالمكروه أو المحرم، كمنع طائفة من أهل العلم أكل ما يذبحه أهل الكتاب لكنائسهم أو أعيادهم، وقولهم أنه يدخل في قوله تعالى: [وَمَا أَهْلَ بِهِ لِيُغَيِّرِ اللَّهُ] سورة البقرة 173.

ويلحق طائفة من أهل العلم ذلك بالمأذون فيه، أخذا بعموم قوله تعالى: [وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلْلاً لَكُمْ] (المائدة: 5).¹

ويرجع اختلاف العلماء في القول بالحرمة أو الإباحة لاختلاف فهمهم ونظرهم في تحديد مقصد الشارع الحكيم من النهي أو غيره، وقد ذكر الإمام الخضر مثالا على ذلك وهو: استعمال آنية نفيسة من غير الذهب والفضة، فمن العلماء من أفتى بحرمة استعمالها ورأى أن علة التحريم هي الإسراف والتباهي، وهي محققة في كل ما يساوي أو يفضل عن الذهب والفضة، أما المجيزون فقد ذهبوا إلى أن علة تحريم آنية الذهب والفضة هي كونها أثمانا للأشياء واستعمالهما آنية يفضي إلى قتلتهما وإخلال نظام المعاملات.²

النهي عن الإفراط:

نهى الإسلام عن الإفراط في تعاطي الملذات، وأمر الشارع الحكيم القاضي بالاجتهاد في فرض تعزيز على من خرج عن الحدود في اتباع الشهوات، كمن أفطر في رمضان، أو منع الزكاة، لأن الصيام تدريب للنفس حتى تتحكم في كبت شهواتها، والزكاة تربية على إثارة الفضيلة على الشهوة، والتعود على العطف والرحمة.

¹ / أنظر: محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة مج4، مصدر سابق، ص 110.

² / أنظر: المصدر السابق، ص 111.

فالإسلام يدعو إلى تدريب النفس على التحكم في شهواتها وفق ميزان الوسطية، وقد روى الإمام مالك في موطنه عن يحيى بن سعيد قال: "أن عمر بن الخطاب أدرك جابر ابن عبد الله ومعه جَمَالٌ لحم، فقال: ما هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قَرِمْنَا إلى اللَّحْمِ فاشتريتُ بدرهمٍ لحمًا، فقال عمر: أما يُريد أحدكم أن يُطوى بطنه عن جاره أو ابن عمه؟ أين تذهبُ عنكم هذه الآية: [أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا] (الأحقاف / 20).¹

وقد بين الإمام الخضر أن من يطلق يده في شراء ما تتلذذه الأنفس، يقل نصيبه في التصدق في وجوه الخير²، فالمال في الحقيقة وسيلة يحقق بها المرء رغباته وفق ما تقتضيه الحاجة، ولا ضير في اقتناء الحاجيات والكماليات ما لم يكن في ذلك إسراف وتبذير.

وأدرج الإمام حديث رسول الله ﷺ في خوفه على أمته من أن تنغمس في الملمات فقال "قال ﷺ فيما رواه الإمام البخاري: "فو الله! ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا؛ كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألتهم³."

وفي رواية "تهلككم كما أهلكتهم".

لأن النفس إن ألفت الزينة والملاذج الجسيمة، لم تعد تبالي من أي السبل تنال ذلك، ولو كان من خلال ما يقلل من كرامتها أو يذهب بعض عزتها، وقد يلجم الشخص عن قول الحق بسبب رشوة نالها، أو خوفه من انقطاع رفاهية بات يتقلب فيها، وقد نقل الإمام ضرباً من هذا فقال: "قال ابن خزيمة: كنت عند الأمير إسماعيل بن أحمد، فحدث عن أبيه

¹ / مالك بن أنس، كتاب: صفة النبي، باب: ما جاء في أكل اللحم، الموطأ، الطبعة 1، 1324هـ-2003م، رقم الحديث: 1693، ص 576.

² / أنظر: محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 112.

³ / المصدر السابق، ص 112. صحيح البخاري- كتب: الرِّقَاقُ - بابُ ما يُحذَرُ من زهرة الدنيا والتنافس فيها. (الجزء رقم: 8، الصفحة رقم: 90-6425).

بحديث غلط في إسناده، فرددته عليه، فلما خرجت من عنده، قال لي فلان القاضي: قد كنا نعرف أن هذا الحديث خطأ منذ عشرين سنة فلم يقدر أحد منا أن يرده عليه، فقلت له: لا يحل لي أن أسمع حديثاً لرسول الله -p فيه خطأ أو تحريف فلا أردّه.¹

فعل ذلك القاضي غلبته الشهوة وخاف على مقامه فلم يصحح ذلك الحديث، ولكن ابن خزيمة لم يمنعه شيء من قول الحق.

والملامة قد تلحق الموسر إذا أسرف في الإنفاق، فما بالك إن لم يكن موسراً أو كان مقترضاً؟ فهذا أحق باللامة.

فالرجل الحق من تحكمت همته في شهوته، ولم يضع نفسه موضع الملامة أو المهانة. والحقيقة أن الإسلام دعا إلى الزينة وأكل الطيبات ولكن وفق ميزان الوسطية كما سبق وذكرنا، فقد قال تعالى: [قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ] (الأعراف: 32)، وقوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ] (المائدة: 87).

"ففي هاتين الآيتين نهي عن الإفراط في ترك الزينة والطيب من الرزق، لتركها زهداً في الدنيا، وفيهما بيان أن ذلك الترك في نفسه لا يقرب من الله قيد أنملة، فللمؤمن أن يأخذ من الزينة، ويتناول من الطيبات ما شاء، وقوله تعالى: (وَلَا تَعْتَدُوا) (المائدة: 87) [إما أن يكون نهياً عن تعدي حدود ما أحل لهم، أو نهياً عن الإسراف في الحلال، وفي الإسراف مفسدة أي مفسدة، قال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف، ومخيلة.²

وفي قصص الصحابة ما يبين لنا أن الإسلام لم يمنع الأخذ من الميزات بقدر

¹ / محمد الخضر حسين، محاضرات اسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 113/112.

² / المصدر السابق، ص 114.

معقول، فقد روي أن الصحابي الجليل أبا ذر الغفاري رضي الله عنه كان بالشام، فأخذ يدعو الناس إلى الزهد وينكر عليهم الاتساع في المراكب والملابس، فاشتد ذلك عليهم، فدعوا له معاوية τ وهو يومئذ واليهم، فوقع بينهما كلام، فخرج أبو ذر τ إلى المدينة المنورة، فخرج إلى المدينة، فاجتمع إليه الناس، وجعل يدعوهم بتلك الدعوة في شدة، فقال له عثمان τ : لو اعتزلت! قال أبو بكر بن العربي: معناه - أي: قول عثمان -: إنك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس، فإن للخلطة شروطاً، وللعزلة مثلها، ومن كان كأبي ذر، فحاله يقتضي أن ينفرد بنفسه، أو يخالط ويسلم لكل أحد حاله مما ليس بحرام في الشريعة، فخرج إلى الريدة زاهداً فاضلاً، وترك جلة فضلاء، وكل على خير وبركة وفضل¹.

ويضيف الخضر حسين أن أبا بكر بن العربي، أنكر ما يفعله بعض المتصوفة في زمانه من اتخاذهم ملابس ذات رقاع مختلفة، بل عدّ ذلك من البدع المكروهة في الإسلام.

"ومما ورد في الحث على التجمل: حديث جابر - رضي الله عنه -، وهو أن رسول الله ρ نظر إلى رجل عليه بُردان قد خلقا-بلياً-، فقال: "أما له ثوبان غير هذين؟" فقلت: بلى يا رسول الله، له ثوبان في العيبة كسوته إياهما. قال: "فادعُهُ، فَمَرَّةً فَلْيَلْبَسْهُمَا"².

وهذا دليل على أن الإسلام يحث على التجمل، والظهور بمظهر لائق ونظيف، وقد ذكر الإمام الخضر ما يدل على ذلك، مستشهداً بأثر لعمر بن الخطاب τ قال فيه: "إذا أوسع الله عليكم، فأوسعوا على أنفسكم. وحمل هذا الأثر بعض أهل العلم على معنى: أن الرجل إذا أوسع الله عليه في ماله، فليوسع على نفسه في ملبسه، فيحمل نفسه على عادة مثله. وسئل مالك عن قول الله تعالى: [وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَنْحَسْنَ كَمَا أَنْحَسَ اللَّهُ

¹ / محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 114.

² / المصدر السابق، ص 115. والحديث في موطأ مالك، كتاب: اللباس، باب: ما جاء في لبس الثياب للجمال بها، رقم الحديث: 1638، ص 563.

إِلَيْكَ] [القصص: 77]، فقال: أن يعيش ويأكل ويشرب غير مضيق عليه"¹

وذكر الإمام الخضر أن صاحب "نفع الطيب" قال إن أشد الناس نظافة هم أهل الأندلس، فقد كانوا حريصين على نظافة أجسامهم، وملابسهم، وأماكن تواجدهم، والعجيب أن أحدهم قد لا يملك قوت يومه فيتمه صائما ويشترى بما في يده صابونا يغتسل به، أو يغسل به ثيابه حتى لا يظهر عليه حال ق تزدييه الأعين به.

وذكر الإمام أن الناس قد يحتجون بكون الصحابة رضوان الله عليهم، لم يهتموا بأمر الملابس والمطعم، بل أن سيرة الفاروق مثلا تبين أنه عاش عيشة الفقراء، فقد كان يلبس الثوب المرقع، ويأكل خبز الشعير، أفليس من حق الولاة والعلماء أن يتبعوا نهجه.

وعقب الإمام الخضر على هذا قائلا: "قلنا: لا لوم ولا إنكار، فسماحة الدين تسع المسلم أن يتبسط في ملبسه ومأكله، ومسكنه ومركبه، من غير إسراف، والأمر في هذا يختلف باختلاف البيئات والأزمنة، يدلكم على هذا: أن عمر بن الخطاب قدم الشام، فوجد معاوية بن أبي سفيان قد اتخذ الحجاب، والمراكب النفسية، والثياب الفاخرة، فسأله عن ذلك، فقال: إنا بأرض نحتاج فيها لمثل هذا، فقال: لا أقرك ولا أنهاك ... ومعناه: أن الأمر في هذا يرجع إليك، فإن كانت الحاجة تدعو إليه، فهو حسن، وإن لم تدع إليه حاجة، فهو إنفاق لأموال الأمة في غير حق، وعمر بن الخطاب الذي كان يأكل خبز الشعير بالملح كان يفرض لعامله نصف شاة كل يوم، قال شهاب الدين القرافي: يفعل عمر هذا؛ لعلمه أن الحالة التي هو عليها لو سلكها غيره، لهان في نفوس الناس، ولم يحترموا، وتجاسروا عليه بالمخالفة، فاحتاج عمر إلى أن يضع غيره في مظهر آخر أدعى للاحترام، وأحفظ للنظام."²

¹ / محمد الخضر حسين، محاضرات اسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 115.

² / المصدر السابق، ص 116.

هل يدخل الورع في ترك المباح؟

أجاب الإمام عن السؤال مبينا اختلاف العلماء في المباحات، وقدم رأيه قائلاً: "والحق أن ترك المباح في نفسه ليس من الورع في شيء، فمن ترك طعاماً لذيقاً، أو ثوباً نفيساً، وهو يستطيعه، قاصداً التقرب إلى الله تعالى بهذا الترك، فقد أخطأ طريق التقوى، أما إذا ترك نوعاً من الزينة أو اللذة لغرض محمود في لسان الشارع؛ كأن يتركه في بعض الأوقات حذراً أن تجر مداومة عليه أو الإكثار منه إلى اعتياده، وصعوبة الصبر عليه عند فقده، فذلك مما يصح أن يدخل في باب الورع، وعلى مثل هذا يحمل ما يروى عن بعض السلف من تركهم الزينة أو بعض الملاذ وهم يقدرون عليها."¹

ثم بين الإمام اختلاف الفقهاء في قبول عطايا الأمراء الظالمين، وقال أن المجيزين استدلو بمنهج جماعة من أهل السلف قبلوا العطايا والهدايا ممن أدركوا من الأمراء الظالمين، كقبول أبي هريرة وسعيد الخدري رضي الله عنهما عطايا يزيد بن عبد الملك، وأخذ ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما عطايا الحجاج، وأخذ الإمام مالك بن أنس من الخلفاء أموالاً جمّة، وأخذ الشافعي من هارون الرشيد ألف دينار دفعة واحدة، ولما سئل أسد بن الفرات عن سبب قبوله عطايا السلطان قال: هذا بعض حقنا والله حسيبهم في الباقي.²

وحمل بعض أهل العلم قبول الأئمة عطايا الأمراء، على أنهم كانوا يأخذونها ثم ينفقونها على ذوي الحاجة، "روي عن جابر بن زيد: أنه جاءه مال من السلطان، فتصدق به، وقال: رأيت أن آخذه منه، وأتصدق به أحب إليّ من أن أدعه في أيديهم.

وروي أن ابن عمر كان يفرق ما يأخذه من الجوائز، حتى إنه استقرض مرة في

المجلس الذي فرق فيه ستين ألفاً"³.

¹ / محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 117.

² / انظر: المصدر السابق، ص 118/117.

³ / المصدر نفسه، ص 118

وفي الوقت نفسه ذكر الإمام الخضر أن كثيرا من الصالحين كانوا يتورعون عن قبول الهدايا والعطايا من الظالمين، وذكر منهم: سعيد بن المسيب، والذي كان يتاجر بالزيت ليكفي نفسه من كسب يده.

ثم ختم الإمام هذا بحكم بيّن فيه أن كل شخص يحس في نفسه الضعف، فالأولى به أن لا يقبل الهدايا من الظلمة حتى يضمن جانب التقوى في نفسه، وإن كانت نفسه شديدة في الحق ولا تأخذه في الله لومة لائم فله أن يقبل هداياهم، وذكر قول الأحنف بن قيس: "خذوا العطاء ما كان نحلة، فإذا كان أثمان دينكم، فدعوه".

والخلاصة: أن الإسلام جرى بالنفوس في الاستمتاع بالزينة والملاذ في طريق وسط، فدلّ على أنه الدين الذي يهدي إلى السعادة في الأخرى، ويرضى لأوليائه أن يعيشوا عيشاً طيباً في الحياة الدنيا"¹

المطلب الثالث: مضار الإسراف:

تطرق الإمام محمد الخضر حسين لموضوع الإسراف على أساس أن له أثرا كبيرا في استقرار اقتصاد الأمة، ولأن الإسلام جعل عاقبة الترف والمترفين وخيمة، ليس عليهم فقط بل على الأمة جمعاء، ولذا وجب على الأئمة الدعاة والمصلحين-والإمام منهم- تحذير الناس ممن أوسع الله عليهم في الرزق من مضار الإسراف.

وبيّن الإمام أن من أسباب حصول العزة والمنعة للأمة، حسن الاقتصاد في الإنفاق، ويكون ذلك بالتوسط في الحال بين البخل والإسراف.

ويختلف معنى الاقتصاد في الإنفاق من شخص لآخر، فكلّ حسب دخله من الرزق، فالأمر له علاقة نسبية بمال الشخص، ولا بد للإنسان أن يقدر نفقته وما تمثله من مكتسباته، حتى لا يقع في مساوئ الإسراف.

¹ / محمد الخضر حسين، محاضرات اسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 118.

عاقبة الاسراف:

من خلال ما كتبه الإمام نجد أنه بدأ كلامه عن الاسراف قائلاً: "الإسراف يفضي إلى الفاقة، ذلك أن المسرف يطلق يده في الإنفاق إرضاء لشهواته حتى يفقده ما عنده، وينزل إلى طبقة المقلّين أو المعدمين، وكم من بيوت أسسها آباء مقتدرون، وعمّروها بما يليق بها من المرافق والأمتعة، وأقاموا حولها وسائل للثروة؛ من نحو: المزارع أو المصانع أو المتاجر، ثم صارت إلى أبنائهم من بعدهم، وقد غلب عليهم حب الترف، فأطلقوا شهواتهم العنان حتى أتلّفوا وسائل الثروة، وتقرّضوا بناء تلك البيوت، والتحق أولئك الخلف بطبقة الذين لا يجدون ما ينفقون."¹

ويبين الإمام أن حالة الفقر إذا جاءت بعد يسر كانت أشد حسرة وهواناً، وذلك راجع إلى تراجع بيت مالها، وأستشهد بقول الخليفة أبي جعفر المنصور في وصيته لابنه المهدي قائلاً: "فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً."²

ومن سيرة الصالحين ذكر الإمام القاضي منذر بن سعيد البلوطي ومواجهته للخليفة عبد الرحمان الناصر عند بنائه الزهراء زاجراً إياه بالكف عن الإسراف في الزخرفة والبناء قائلاً:

"يا باني الزهراء مستغرقاً ... أوقاته فيها أما تمهلُ

لله ما أحسنها رونقاً ... لو لم تكن زهرتها تذبل

ثم قال: اللهم اشهد فقد بلّغت."³

ووضح الإمام الخضر أن الإسراف يجر إلى رذائل الأخلاق، كالجبين، والجور، وقلة الأمانة، والإمساك عن البذل في وجوه الخير، ثم إنه شرح كيف يكون ذلك.

¹ / محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 134/135

² / المصدر السابق، ص 135.

³ / المصدر نفسه، ص 135.

فأما قوله أن الإسراف يدعو إلى الجبن، فذلك لأن النفس التي تتعلق بالزينة والعيش الرغيد يزيد حرصها على الحياة الدنيا، فلا تُقدّم في حرب، ولا تزود عن عرض ومال. ولهذا وجبت محاربة الأمة الإسراف حتى تقوى شوكتها، كما يجب عليها صرف ما زاد عن حاجة الناس في سبل البر والإصلاح.

وأما قوله أن الإسراف يزيد في الجور فهذا راجع إلى أن المسرف المنغمس في اللذات لا يبالي من أي الطرق يحصل على المال، فحبه للتملك يدفعه إلى تقديم الرشوة، أو الأخذ بالقوة والغصب.

وذكر الإمام مثلاً لعباد الله الصالحين، العلامة محمد بن بشير الذي تم استدعاؤه لولاية القضاء في قرطبة فقال: "دعي العلامة محمد بن بشير إلى ولاية القضاء بقرطبة، فاستشار بعض أصحابه في قبول الولاية، فسأله صاحبه عن أشياء؛ ليعلم مقدار قوته في العدل، ومما قاله له: كيف حبك للأكل الطيب، واللباس اللين، والمركوب الفاره؟ قال: والله! لا أبالي ما رددت به جوعي، وسترت به بدني، وحملت به رحلي، قال: اقبل الولاية، فلا بأس عليك".¹

وأما قول الإمام أن الإسراف في الترف يذهب بالأمانة، فلأن المترف همه الحصول على شهواته، وهذا قد يدفعه إلى خون الأمانة بأكل المال الذي أوّتمن عليه.

وأما قوله أن الإسراف يمنع فعل الخير، فذلك راجع إلى كون المنغمس في الإسراف قد شغل قلبه بجمع المال لا إنفاقه، فلا يفكر بالعطاء بل يكون همه الوحيد كيف يأخذه وينفقه على رغباته.

ولذلك نجد أن معظم المترفين المسرفين لا يمدون أيديهم لفعل الخير، بل محدودو الدخل هم من يبسطون أيديهم لإسعاد الفقراء والمنكوبين.

¹ / محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 136.

وأضرب لكم مثالا من وقعنا وزماننا، ذلك أن الداعية عبد الرحمان السميطة رحمه الله ذكر في عدة مرات وهو يروي قصصه في مجاهدته لنشر الدعوة في إفريقيا، أنه لما أراد تأسيس جمعية العون المباشر في الكويت، ذهب إلى الأغنياء في بلده فلم يجد منهم أية استجابة لمد يد العون، ثم أنه اتصل بمجموعة من الموظفين من الطبقة الوسطى من معلمين وممرضين ونحو ذلك، فكان منهم أن أعجبوا بالفكرة، وجعل كل شخص منهم يقدم مبلغاً بسيطاً ثابتاً في كل شهر¹، وبعد أكثر من ربع قرن من الدعوة في إفريقيا كان هناك أكثر من 11 مليون شخص قد أسلم بسببه، وتم بناء عدد كبير من المساجد والمراكز الدعوية، والمدارس، وحفر الآبار و.....الخ.

ولقد ذكرنا هذه القصة لاستشهادنا على أن المسرفين من المترفين لا يكون لهم عادة شأن في إغاثة الناس ولا يمدون أيديهم بالعون إلا ما ندر.

ونستخلص أن هناك سيئة أخرى للإسراف هي قطع صلة التعاطف والتواد بين كثير من أفراد الأمة، كما قال الإمام².

وذكر الإمام أن من سلبيات الترف أيضاً، إهمال النصيحة، فيتجنب المترف قول كلمة الحق، والخوض في المواقف التي قد تكون سبباً لفوات بعض نعيمه، خاصة بين يدي السلاطين والملوك والحكام، ومن ترك قول الحق في هذه المواقف كان سهلاً عليه أن يترك الدعوة جملة واحدة.

كما أضاف الإمام أن للإسراف أثراً سلبياً على الصحة، فالمسرف لا يتمتع بالصحة التي ينعم بها المقتصد، ونقل الإمام عن ابن خلدون قوله: "وقد أورد ابن خلدون في "مقدمته" حديثاً عن الأمراض، ونبه على أنها تكثر في أهل الحضرة والأمصار؛ لخصب

¹ / انظر : شبكة فلسطين للحوار: "رائد العمل الخيري عبد الرحمان السميطة رجل بأمة"، تاريخ الإنشاء: 28-12-

2011 على موقع مكتبة نور [/https://www.noor-book.com](https://www.noor-book.com)

² / انظر: محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 137.

عيشهم، وكثرة مآكلهم، وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الأغذية، ثم نبه على أن تلك الأمراض تقل في أهل البادية؛ لقلة مآكولاتهم، وبساطة أغذيتهم¹.

وأكمل الإمام حديثه عن مضار الإسراف قائلاً أنه يقلل من النبوغ في طلب العلم، لأن المترف ينغمس في اللذات بعيداً عن مكابدة مشاق ومخالطة العلم والعلماء، فالنبوغ في العلم يحتاج صبراً ومجاهدة لبلوغ مرتبة العبقريّة، وهذا غالباً لا يكون في طبقة المترفين.

تخلي الصالحين عن الإسراف:

نجد بعض الحالات الخاصة لأفراد نشأوا في بيوت الترف والرفاهية، وكانت نفوسهم عزيزة في الحق، طموحة في العلم، راغبة عن الدنيا راغبة في الآخرة، من أمثال؛ "عمر بن عبد العزيز"، فقد نشأ في بيت إمارة، وحينما تولى الخلافة، استطاع بما وهبه الله من الحكمة والروية أن لا يقيم للزينة والأطعمة الفاخرة وزناً، فعاش عيشة الكفاف، وخزائن الأرض طوع يمينه، وتوفي وقد أبقى سيرة غراء، وذكراً أطيّب من ريح المسك. ومثل أبي محمد بن حزم الذي نشأ في بيت وزارة بالأندلس، وتولى هو نفسه الوزارة، ثم نفّض يده، وانقطع للازدياد من العلم، حتى ارتقى إلى طبقة كبار العلماء بنظر مستقل، وقلم بارع².

والإمام ابن حزم الظاهري،

وتحذير الإمام من الإسراف والترف، ليس على أساس منع الناس من الاستمتاع بما رزقهم الله، لقوله تعالى: " [قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ] (الأعراف/ 32)، ولكن بقصد حماية النفس من شدة الحرص على الدنيا، فالواجب على المؤمن أن تكون الدنيا بيديه لا بقلبه، فلا يعمي الإسراف بصيرته، ولا يمنعه الغنى عن الاقتصاد في كل شيء، فالوسطية مطلوبة في حياة المسلمين.

¹ / محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 137

² / المصدر السابق، ص 138.

وخير دليل على ذلك ما استشهد به الإمام من كتاب الله عز وجل إذ قال تعالى: [وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ مَنْعِقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا] [الإسراء: 29]، ذلك أن المولى عز وجل يبغض الإسراف، ويؤكد أنه من عمل الشيطان فقال تعالى: [إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ] [الإسراء: 27]، وقال أيضا: [وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ] [الأعراف: 31].

وبين المولى عز وجل أن الاقتصاد من صفات عباد الرحمان المخلصين فقال تعالى: [وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا] [الفرقان: 67].

"ونظر الشارع الحكيم إلى الإسراف على أنه يذهب بسعادة الفرد والأسرة، فشرع إقامة أولياء على أموال من لم يبلغوا سن الرشد، أو على من بلغوه وظهر عليهم السفه في تصرفاتهم؛ لينفق الأولياء عليهم باقتصاد، حتى يتبين رشدهم، قال تعالى: [فَإِنْ أَنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ] [النساء: 6].¹

وذكر الإمام أن الغني المسرف مذموم، فما بالك إذا كان المرء محتاجا أو مسكينا ويدفعه حب الدنيا إلى الدين والاقتراض من أجل تلبية رغباته فيما فوق الضروريات، وبين أن الحكماء كرهوا الاستدانة لما تحمله من مذلة ومهانة، وفي الوقت نفسه بيّنوا أن الحاجة الملحة للدين لا حرج فيها إذا كان المقترض واثقا من قضاء دينه عند حلول الأجل.

ومع أن الإمام أكد على فضيلة الاقتصاد استنادا على النصوص الشرعية، فإنه لم ينس التنبيه على أن حق المال من نفقة على الأقارب، وتأدية الزكاة للفقراء والمساكين، وتقديم يد العون لإنشاء المساجد والمدارس والمستشفيات، وما إلى ذلك، يعتبر فضيلة لا بد منها قبل فضيلة الاقتصاد.

¹ / محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 139.

وجاء الإمام بقول قل أن يدركه عامة الناس: "وقيل لكريم بذل في وجوه البر مالا كثيراً: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير"¹.

وذكر الإمام مثالا آخر من أمثلة الإسراف الممقوت، ألا وهو إطلاق اليد في الإنفاق من غير جدوى في مظاهر الأفراح، بل حتى المآتم، فقد بات من المؤسف الكلام عن ما يتم تقديمه من بذخ وإسراف.

ونتهي بسط هذا الموضوع بقول الإمام محمد الخضر حسين أن: "الإسراف يوقع الأفراد والجماعات في مضار كثيرة، كان واجباً على أولياء الأمور ودعاة الإصلاح أن يتعاونوا على الجهاد في هذا السبيل، حتى يبتعد الناس عن الإسراف في مآكلهم ومشاريهم، وملابسهم ومراكبهم، ومساكنهم وأمتعة بيوتهم، ويتحروا في جميع ذلك الطريقة المثلى"².

المطلب الرابع: حقوق الفقراء

لم يترك المولى عز وجل أمراً من أمور الدنيا والآخرة إلا وبين فيه سبل الرشاد، فنظم صلته بخلقه، من خلال فرض العبادة والتي تتمثل في كل ما يحبه ويرضاه، وأرشدهم إلى الإيمان الخالص ومقتضياته، ثم بين علاقة المخلوقين فيما بينهم، وأرشدهم إلى سبل تحقيقها في أسمى الصور، كصلة القرابة أو الزوجية أو التعاون بين الناس.

وشرع للناس المعاملات وبين كيف يحصل الناس على منافعهم من خلالها، كالبيع والإجارة وغير ذلك...، وبنظرته الشاملة لم ينس الإسلام الناس الذين لا يملكون الحيلة في توفير حاجاتهم الأساسية، وما قد يعانونه من ضيق العيش، فشرع المولى عز وجل ما يعود عليهم بسد حاجاتهم كالزكاة والصدقة...

ودور علماء الإسلام ودعاة الإصلاح هو تذكير الناس على الدوام لتحقيق التكافل ببذل الإحسان وإغاثة المحتاجين من الفقراء والمساكين وغيرهم، ولهذا قدم الإمام محمد

¹ / محمد الخضر حسين، محاضرات اسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 140.

² / المصدر السابق، ص 141

الخضر حسين مادة علمية عرض فيها ما للفقراء من حق على الأغنياء، نذكر منها أهم ما قدمه بإيجاز:

نبذ البطالة:

بيّن الإمام محمد الخضر حسين أن الإسلام بنى أحكامه على أساس العزة والكرامة، وكره البطالة وزجر عنها، وبيّن أضرارها في الدنيا وسوء عاقبتها في الآخرة.

وأكد الإسلام على ضرورة العمل لكسب الرزق طالما المرء قادراً على ذلك، فهو خير له من سؤال الناس والتقليل من شأنه بالسؤال، وذكر الإمام حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: " - صلوات الله عليه" -: والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره، خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه"¹.

وأكد الإمام أن الإسلام ينبذ كل من يسارع للسؤال وله القدرة على التجميل بالصبر، وبيّن القرآن الكريم فضل كل متعفف عن سؤال الناس وقد ضاقت به سبل الكسب فقال تعالى: [لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْضِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَعْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا] [البقرة: 273].²

حارب الإسلام البطالة، ونصح من أصابته الفاقة أن يحفظ ماء وجهه، ويعف نفسه عن المسألة، وفي الوقت نفسه حث كل ميسور أن يحسن إلى الفقراء كما أحسن الله إليه.

الحث على الإحسان:

وبدأ الإسلام في الحث على الإحسان بالأقرب فالأقرب، فبين أن أفضل الصدقة هي الصدقة على صلة الرحم، ففي الحديث الشريف: " دينارٌ أنفقته في سبيل الله عزَّ وجلَّ،

¹ / محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 153. والحيث جاء في صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، الجزء رقم 2، الصفحة رقم: 123-1470.

² / أنظر: المصدر السابق، ص 153.

ودينار في المساكين، ودينار في رقبة، ودينار في أهلك، أعظمها أجراً الدينار الذي تُنفقه على أهلك¹.

والآيات والأحاديث الواردة في فضل صلة الرحم كثيرة، وذكر الإمام الخضر حديثاً في ذلك قائلاً: "قال - صلوات الله عليه - : 'إن من أبر البر صلة الرجل أهل وِدّ أبيه بعد أن يولي'².

وأمر بالإحسان لليتامى، والجيران، قال - صلوات الله عليه - : "ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم جاره"³.

كما بين الإمام أن الإحسان لابن السبيل واجب كونه يأتي البلد وهو جاهل لموارد الرزق فيه، أو يتعسر عليه الكسب بسهولة، ثم نكر أن القرآن الكريم ذكر هذه الطوائف في آية واحدة حيث قال تعالى: [وَالْبَارِئِ وَالْقُرْبَىٰ وَالْبَرَئِ وَالصَّالِحِ وَالْبَتُولِ وَالسَّبِيلِ] [النساء: 36].⁴

ولقد حث الإسلام على بذل المعروف بوجه عام، وسعى لتعزيز ذلك بذكر الجزاء العظيم للصدقة، فهي تقي من النار، وتطفئ غضب الرب، وتضاعف الرزق، قال تعالى: [وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُمْ يْخِْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ] سبأ: [39]، ومن أصدق من الله حديثاً؟⁵

كما جاءت الأحاديث الكريمة تبين أنه ما نقص مال من صدقة، فقد سمع أبو كبشة

¹ / مسند أحمد، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، الجزء رقم: 16، الصفحة رقم: 119 - 10119.

² / محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 154. حيث في صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما - الجزء رقم: 8، الصفحة رقم: 6- (13)2552

³ / المصدر السابق، ص 154. والحديث في صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، الجزء رقم: 8، الصفحة رقم: 11-6019.

⁴ / انظر: المصدر نفسه، ص 154.

⁵ / انظر: المصدر نفسه، ص 155.

الأئمّاري رسول الله ﷺ يقول: ثَلَاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاخْفَظُوهُ". قال: " ما نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظَلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ".¹

وقد أنثى المولى عز وجل على كل شخص أغاث المحتاجين من ماله فقال تعالى:

[وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَرْغُومِ] المعارج: [24 - 25].

ونحن نعلم أن الصيام فيه نوع من تذكير الأغنياء بجوع الفقراء، حتى يتذكروا معاناتهم مع قلة ذات اليد ومكابدة الجوع الشديد، فيشفقوا عليهم ويحسنوا لهم ما استطاعوا، ثم نكر الإمام قولاً لأم حاتم تقول فيه: "والله! لقد مسني الجوع ما آليت معه أن لا أمنع سائلاً شيئاً"²

و بيّن الإمام أن الإسلام رغب في الصدقة مهما كان مقدارها، ولا ينبغي الاستحياء من تقديم القليل، وذكر قول النبي ﷺ: "اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ".³، وقال عليه الصلاة والسلام: "لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق".⁴ وإذا ضم القليل إلى القليل، والحقير إلى الحقير، عادت القلة كثرة، والحقارة عظماً، ومن هنا يتيسر للإنسان أن يدخل في قبيل المحسنين، وإن لم يكن في سعة من الرزق"⁵

وأكد الإمام أن الإسلام يحث على العمل حتى يبلغ المرء غاية التصدق لشرف مكانته وعظيم أجره، واستشهد الإمام بالحديث الصريح الذي قال فيه رسول الله ﷺ: " على كل

¹ / سنن الترمذي، أبواب الرُّهْدِ عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نقر.

² / محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 155.

³ / صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: طيب الكلام، الجزء رقم: 8، الصفحة رقم: 11-6023

⁴ / صحيح مسلم، كتاب: البرِّ والصَّلة والآداب، باب: استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، الجزء رقم: 8، الصفحة رقم: 37-2626(144).

⁵ / محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 155

مسلم صدقة". فقالوا: يا نبي الله، فمن لم يجد؟ قال: "يعمل بيده، فينفع نفسه، ويتصدق"¹. وأضاف الإمام أن من "أصدق الشواهد على رسوخ النفس في الرأفة والسخاء: أن يؤثر الرجل مسكيناً ذا مرتبة بنحو مطعوم أو ملبوس، وإن كان هو في حاجة إليه، وإلى هذا الصنف من المحسنين يشير القرآن الكريم بقوله تعالى: [وَيُؤْتِرُونَ مَعْلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ نَفْسُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤَلَّفُونَ] [الحشر: 9]²

بين الإمام أن الإسلام دعا الناس إلى الإنفاق من طيب ما اكتسبوا، فقال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ] [البقرة: 267]. وأن لا يسيء المتصدق إلى الفقير أو من به حاجة عندما يقدم له المعروف، بل إنه حبيب في أن تكون الصدقة في السر حتى لا يكسر خاطر المسكين، وجعل لذلك عظيم الجزاء، فقد روي عن رسول الله ﷺ حديث السبعة الذين يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل إلا ظله فقال: "ورجلٌ تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه"³.

ثم ذكر الإمام موقفاً شهده يجسد هذا الحديث قائلاً: "وأذكر أنني كنت قد عرفت جمعية خيرية في بعض المدن الكبرى تبحث عن الفقراء من طرق سرية، وتبعث إلى من تحققت فقرهم بمبالغ من المال على طريق البريد، دون أن يعلموا الجهة التي أرسلتها إليهم"⁴

ثم بين قصد الشارع الحكيم من بذل الصدقات، وأنه تعالى يريد لها خالصاً لوجهه الكريم، ولا يجب على المؤمن أن ينتظر الشكر أو الجزاء من الناس، فقال تعالى: [وَيُطْعَمُونَ السَّاعَةَ عَلَىٰ حَبِّ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا] [الإنسان: 8 - 9].

ولا يجب على المسلم أن يُقدّم على الإحسان وهو متجهم، بل لا بد له من طلاقة

¹ / صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: على كل مسلم صدقة، الجزء رقم: 2، الصفحة رقم: 115-1445.

² / محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 156

³ / صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: الصدقة باليمين، الجزء رقم: 2، الصفحة رقم: 111-1423

⁴ / محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 157.

الوجه، كما قال حاتم الطائي:

أُضاحِكُ ضيفي قبلَ إنزالِ رَحْلِهِ وَيُخْصِبُ عِنْدِي وَالْمَحَلُّ جَدِيبُ
وما الخِصْبُ لِلأُضْيافِ إنْ يَكْثُرَ القَرَى ولكنما وجهُ الكَريمِ خَصِيبُ

وذكر الإمام قولاً لبعض الكرام جاء فيه:¹

لَم لا أَحَبُّ الضَيفَ أو أرتاح من طرب إليه
والضَيفَ يأكل رزقه عِنْدِي ويحمَدني عليه

ثم ذكر الإمام إشارة إلى قصة سيدنا أبو بكر الصديق مع مسطح قريب السيدة عائشة
١٧، حيث تكلم في شرفها في حادث الإفك المعروفة، وقد جاء في صحيح البخاري أن
سيدنا أبو بكر حلف " أن لا ينفع مسطحاً بنافعة أبداً. فأنزل الله عز وجل: [ولا يأتل أولوا
الفضل منكم][النور:22]، إلى آخر الآية، يعني أبا بكر، [والسعة أن يؤتوا أولي القربى
والمساكين]، يعني مسطحاً، إلى قوله: [ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم]. حتى
قال أبو بكر: بلى والله، يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا. وعاد له بما كان يصنع²

ثم أضاف الإمام قائلاً: "يشعر رقيق العاطفة بحاجة الفقير، فيصله بالإحسان دون أن
يضطره إلى بذل ماء وجهه بالسؤال، قال معاوية لبعض جلسائه: ما الجود؟ قال: التبرع
بالمال، والجود قبل السؤال. قال الأعشى:

وما ذاك إلا أن كفيك بالندی ... يجودان بالمعروف قبل سؤالكا

وقال مروان بن أبي حفصة يرثي معن بن زائدة:

¹ / محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 157
² / صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة النور، باب: قوله: إِنَّ الَّذِينَ يُجْبُونَ أَنْ تَشِيخَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا، الجزء
رقم:6، الصفحة رقم:107-4757.

مضى من كان يحمل كلَّ ثقلٍ ... ويسبق فضلُ نائله السؤال¹

وبيّن الإمام أن من أدب الإحسان عدم المنّ بالإنفاق، بل إن الله عز وجل جعل من المنّ ماحقا للصدقة، فقال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى] (البقرة/ 264).

وبعد ذلك نوه الإمام أن الإسلام أمر بإغاثة الفقراء على وجه عام، ولم يحدد مقدارا ولا زمانا لذلك، وعلم أن هناك من الناس من بهم شح مطاع، فألزمهم بصدقات معلومة المقدار والأزمان، كزكاة الفطر عند قضاء شهر رمضان وزكاة المال عند بلوغ النصاب وحولان الحول، وأمر بصرف قسط من لحم الأضاحي على الفقراء، وأوجب على كثير من المخالفات كفارات ذات صبغة إغاثية، كإطعام الطعام.²

ثم بيّن الإمام أن الفقراء العاجزين عن كسب القوت تصيبهم بلايا عظيمة جسمية ونفسية، أما الجسمية فسببها قلة الغذاء الكافي لحفظهم من العلل، وأما النفسية فتتمثل في قلقهم وخوفهم على من هم دونهم من الأهل والأولاد، ولو لم يفرض هذا الدين الحكيم الزكاة، وأنواع الكفارات التي سبق وتكلمنا عنها، لكانت الأمة تعاني في قوتها وأمنها بسبب ما يعانیه أبنائها من فئة الفقراء والمساكين.³

وختم الإمام بقوله: "هذه كلمتنا في حقوق الفقراء على الأغنياء، ولو تعاونت الأمة والدولة على مكافحة البطالة، ثم عملوا بالتالي هي أقوم على أن يؤدي الأغنياء هذه الحقوق، فتصل إلى أربابها على وجه منظم، لأصبحنا في مقدمة الأمم القوية في أخلاقها، مطمئنة في عيشها، وإذا ظفرت الأمة بقوة الأخلاق وطمأنينة العيش، فهناك تظهر طبقاتها متماسكة ما بين الثروة والكفاف، وهناك تكون العزة والسعادة."⁴

¹ / محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 158

² / انظر: المصدر السابق، ص 159-160

³ / انظر: المصدر نفسه، ص 160

⁴ / المصدر نفسه، ص 161

الفصل الثالث:
منهجية محمد الخضر
حسين
في الإصلاح

المبحث الأول: مصادر الشيخ محمد الخضر في الإصلاح

من أعظم ما يميز الشيخ محمد الخضر حسين ثراء مصادره وتنوعها وكثرتها وحسن مأخذه منها واستشهاده بها، وفيما يلي نذكر أهم مصادره في الإصلاح:

المطلب الأول: القرآن الكريم

اعتمد الشيخ محمد الخضر على القرآن الكريم باعتباره مصدرا أوليا ولم يقدم عليه شيئا من المصادر، إيماننا منه بأنه المصدر الأول في التشريع الإسلامي، وأنه المرجع الأساس الذي يجب الاحتكام اليه والوقوف عند أوامره ونواهيه.

وقد تنوع إيراداته لآيات الكتاب العزيز واستشهاده بها حسب المقام الذي هو بصدد، ويمكن إجمال طريقته في ذلك كما يلي:

-الاستشهاد بالقرآن الكريم لتوضيح الفكرة:

تأثر أسلوب محمد الخضر بأسلوب القرآن، وانطبعت ألفاظ القرآن في ذهنه وقلبه انطبعا جعله يقتبس منها كلمات مقالاته وألفاظ رسائله، وهذا ما يؤكد أن مدرسة الإصلاح عنده قائمة على انتهاج الدعوة الى الله طريقا إلى الإصلاح، وإعادة الأمة الى مجدها وتمكينها من خلال المصادر الشرعية المعروفة، وعلى رأسها القرآن الكريم، وعدم الاحتكام إلى سير الأفراد إلا بعد وضعها على محك القرآن الكريم.

كما تأثر محمد الخضر بالأسلوب القرآني، واشتد حرصه على أن يشفع كل معلومة يذكرها أو فكرة يوردها بموقف عملي واقعي من تراثنا الإسلامي العظيم، وقد أسعفته قراءته الجيدة لكتب التراث بسيل منهمر من مواقف أسلافنا العظام في شتى النواحي.

-الرد على الخصوم من خلال الاستدلال بالقرآن الكريم

يقول في معرض رده على علي عبد الرزاق: " ولا يرتاب مسلم في أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يتول فصل القضايا بين الناس من تلقاء نفسه، وإنما هو منصب استمده

بوحى سماوي، قال تعالى: [وَأَنِ اخُذْتُم بِبَيْنَتِهِمْ بِمَا أُنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ مَن بَعْضُ مَا أُنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ...] (المائدة 49)، فناط بعهدته فصل القضايا، ثم وضع في أعناق الأمة فريضة التسليم لضعائه، فقال تعالى: [فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُخَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيهِ أُنْفُسَهُمْ حَرَجًا مِّمَّا فَصَّيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا] [النساء 65].¹

-إبطال ما يذهب إليه الخصوم من الاستدلال بالقرآن:

وذلك كأن يورد أحد المخالفين آية من كتاب الله مستدلاً بها على باطل، أو مؤولاً لها على غير تأويلها الصحيح، أو أن يكون الاستدلال بها غير ناهض بالحجة التي يريد ثم يوضح معنى الآية، والوجه الصحيح الذي يمكن أن يستدل بالآية عليه، ويرشد إلى التأويل الحق. وهذا ظاهر جلي في أكثر ردوده على علي عبد الرزاق في الإسلام وأصول الحكم، أو رده على طه حسين في حقيقة ضمير الغائب، أو في نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، أو رده على عبد المتعال الصعيدي في "تحريف آيات الحدود عن مواضعها"².

المطلب الثاني: السنة النبوية

الدارس لآثار الشيخ الخضر يلاحظ أنه يعتمد الحديث النبوي مصدراً أساسياً يستند إليه، ويمكن إجمال ذلك فيما يلي:

-اعتماده المصادر الأصلية في الحديث:

الملاحظ لردود الشيخ الخضر يرى أنه يعتمد كتب الحديث الأصلية التي تلقنها الأمة بالقبول، ويأتي على رأس تلك الكتب، صحيح البخاري وصحيح مسلم، وموطأ الإمام مالك، فهي أكثر ما يستشهد به ويعتمده.

ويأتي بعد ذلك مسند الإمام أحمد، وسنن الترمذي وسنن أبي داود، وسنن النسائي،

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 400.

² / المرجع السابق، ص 401.

والسنن الكبرى ومستدرک الحاكم والمعجم الكبير للطبراني ومسند ابن أبي شيبة.¹
ويلاحظ أن الشيخ إذا نقل من الكتب التي تعتنى بالصحة كالبخاري ومسلم لا يتعقب تلك الأحاديث، أما إذا كان غير ذلك فإنه يحرص في الغالب على بيان درجة الحديث وإذا استشهد من يردّ عليهم ببعض الأحاديث التي يكون فيها مقال بيّن درجتها، وأوضح ما فيها من ضعف.²

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء عندما قرر الشيخ الخضر أن كل أمة تعتق الإسلام يأخذ الحكم فيها صورة غير صورته الجاهلية سواء كانت جنائية، أو مالية أو مراجعة إلى أحوال الزوجية، وأن تلك القضايا تفصل بحكم القرآن، أو السنة أو الاجتهاد، ومن شواهد هذا حديث معاذ حين بعثه النبي ρ إلى اليمن، فقد تضمن الحديث، أنه يقضي بكتاب الله، فإن لم يكن في كتاب الله فبسنة رسول الله ρ ، فإن لم يكن في سنة رسول الله ρ اجتهد برأيه، وقد صحح هذا الحديث الحافظ أبو بكر بن العربي في عارضة الأحوزي وصححه ابن قيم الجوزية في إعلام الموقعين.³

-استشاده بالحديث على إبطال المزاعم الكاذبة-

ومن ذلك ما جاء في رده على علي عبد الرزاق في كتابه "الإسلام وأصول الحكم" وذلك لما ادعى أن إمارة الخلفاء الراشدين قامت على القهر والغلبة.⁴

قال الشيخ معقبا على ذلك: "فإن مبايعتهم أي الخلفاء الراشدين، تقررت باختيار من أهل الحل والعقد ولا أثر للقهر والغلبة في انعقادها"⁵، ثم ذكر ما رواه البخاري حاكيا واقعة مبايعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة وبعد أن أتى على المناقشة التي دارت بين أبي

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 402.

² / المرجع السابق، ص 414.

³ / محمد الخضر حسين، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، مصدر سابق، ص 238.

⁴ / علي عبد الرزاق، الإسلام وأصول الحكم، مرجع سابق، ص 60.

⁵ / محمد الخضر حسين، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، مصدر سابق، ص 77 - 78.

بكر وبعض الأنصار، قال: " فكثرت اللغظ، وارتفعت الأصوات، حتى فرقت من الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعته وبايعه المهاجرون، ثم بايعته الأنصار"¹

وفي صحيح البخاري أيضا: "أن أبا بكر الصديق قال للأنصار: بايعوا عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة بن الجراح، فقال عمر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا، وأحبنا إلى رسول الله ﷺ فأخذ عمر بيده فبايعه، وبايعه الناس".²

فأنت ترى كيف بويع أبو بكر الصديق، وليس حوله قوة مال، ولا جند، ولا سلاح ولم تصدر منه كلمة تؤذن بتهديد أو إكراه.³

-إبطاله استشهاد المخالف بالحديث النبوي على معنى فاسد-

ومن أمثلة ذلك ما جاء في قول علي عبد الرزاق في كتابه " الإسلام وأصول الحكم": " ذلك من الأغراض التي أنكر النبي ﷺ أن يكون له فيها حكم أو تدبير، فقال عليه الصلاة والسلام، " أنتم أعلم بأمور دنياكم".⁴

قال الشيخ الخضر معقبا على هذا الكلام: "كيف ينكر النبي ﷺ أن يكون له في سياسة الأمة حكم أو تدبير؟ ونحن إذا قلبنا نظرنا في سيرته نجده كان يحكم فيما شجر بين الناس، ويقيم الحدود والزواج على من يجني على نفس أو مال، أو عرض أو عقل ويجمع المال من حيث أمره الله، وينفقه في وجوه المصالح، واسعاد ذوي الحاجة ويتولى عقد التحالف والمعاهدات والصلح وإعلان الحرب ويدبر أمرها ويرسم لها الخطط مع المشاورة في هذا السبيل والأخذ بأرجح الآراء، يتولى هذه الأمور بنفسه، وقد يندب للقيام

¹ / صحيح البخاري، كتاب: المحاربين من أهل الكفر والردة، باب: رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، رقم الحديث 6830 ص 1371.

² / صحيح البخاري كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلاً"، رقم الحديث: 3668، ص 765.

³ / محمد الخضر حسين، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، الموسوعة، مجلد 9، مصدر سابق، ص 105.

⁴ / علي عبد الرزاق، مرجع سابق، ص 119. / والحديث في صحيح مسلم، كتاب: الفضائل، باب: وجوب امتثال ما قاله شرعا، دون ما ذكره ﷺ من معاش الدنيا على سبيل الرأي، الجزء رقم: 7، الصفحة رقم: 95-2363(141).

بها من فيه الكفاية والخبرة، وهل بد هذا التصرف الثابت كتابا وسنة متواترة يخرج كتاب " الإسلام وأصول الحكم" في واد حافل بعلماء الشريعة، ويصيح بأن النبي ρ أنكر أن يكون له في شؤون الأمة حكم أو تدبير؟، وأما حديث "أنتم أعلم بأمر دنياكم" فإنه وارد في واقعة تأبير النخل"، فيحمل على هذا المعنى، وما شاكلة من فنون الزراعة والصنائع وغيرها من وسائل العمران المادية".¹

المطلب الثالث: الإجماع

الإجماع هو المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامي، ومن الموضوعات التي يتناولها العلماء بالبحث والعناية والدراسة، وقد عده الخضر مصدرا من مصادره الأساسية في الإصلاح وفيما يلي بيان لذلك:

- إثبات حجية الإجماع

بين الشيخ الخضر أن أول ما عني به الإسلام أن أطلق العقول من وثائق التقليد، وفتح أمامها باب النظر حتى تعبر إلى قرارة اليقين على طريق الحجة والبرهان، وأوضح أن علماء الإسلام قد جروا على هذا المنهج" فكانوا لا يتابعون ذا رأي على رأيه، ولا يتقلدون حكما قبل أن يعلموا مستنده، وإذا عرفوا المستند عرضوه على قانون الأدلة السمعية، ووزنوه بميزان النظر، ليعلموا مبلغه من الصحة، فإذا ثبت على النقد، وسلم من وجوه الطعن رفعوه على كاهل القبول، وإلا نبذوه نبذ الحذاء المرقع غير مبالين بمقام مدعيه، وإن حاكى القمر رفعة وسناء".²

ثم تطرق إلى أن من درس مسائل الخلاف وجد أن الصحابة يخالف بعضهم بعضا، وأن صغيرهم لا ينقاد إلى كبيرهم إلا بزمام الحجة، وأن التابعين ومن بعدهم ساروا على

¹ / محمد الخضر حسين، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، الموسوعة، مجلد 9، مصدر سابق، ص 227، 228.

² / المصدر السابق، ص 56-57.

هذا الاستقلال وحرية الفكر¹.

ثم أوضح عنايتهم بتحقيق الأحكام ورفضهم تناولها إلا من يد الدليل القاطع أو الراجح، لذا: "دوّنوا الأحاديث، ونصبوا لها ميزانا يعرف به صحيحها من ضعيفها، أو ضعيفها من موضوعها، ثم وضعوا لاستنباط الأحكام أصولاً، وقرروا لاستخراجها قواعد، وشرطوا في هذه الأصول والقواعد ان تكون قائمة على بيئة قاطعة"².

كما ذكر أن العلماء كانوا يتناولون القضية على بساط البحث والاستفتاء، وتتداولها أنظارهم حتى تستقر على حكم يقررونه بإجماع، وينطقون به عن تصميم يعرف بحكم العادة معرفة لا تخالجها ريبة، أن تلك القضية أخذت حظها من النظر، وأنه لم يبق فيها لمخالف وجه يلتفت إليه، وبالأحرى ما كان في عصر الصحابة الذين شهدوا الوحي، ووقفوا على روح التشريع، ولم يعرفوا في قول الحق هوادة ولا محاباة... وقد تأيد هذا القول بطول الاختبار والاستقراء، فلتجدن كل رأي يتهم به مبتدعه على خرق إجماع أهل العلم متداعياً إلى السقوط، بل قائماً على رأسه، بحيث لا يكلفك هدمه امعانا في نظر أو عناء في التماس حجة"³.

-استناده على الاجماع في ردوده

استدل بالإجماع على أن محمداً p مبعوث بشريعته، وأنه كان يقوم على تنفيذ هذه الشريعة، وذلك في معرض رده على الشيخ محمود شلتوت في بحث "الهجرة وشخصيات الرسول"، وكذلك نقل الشيخ الإجماع على وجود الجن، وبين أنه لا ينكر الجن إلا من جمد عقله في دائرة المحسوسات لا يتخطاها قيد أنملة، وذلك في معرض رده على كتاب "الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن" لمحمد أبوزيد الدمنهوري⁴.

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 419.

² / محمد الخضر حسين، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، الموسوعة، مجلد 9، مصدر سابق، ص 57.

³ / المصدر السابق، ص 58.

⁴ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 462.

كما جاء ذلك في رده على محمد أحمد خلف الله في كتابه الفن القصصي في القرآن، وذلك عندما قال: "الأنبياء أبطال ولدوا في البيئة وتأدبوا بآدابها، وخالطوا الأهل والعشيرة وقلدوهم في كل ما يقال ويفعل، وآمنوا بما تؤمن به البيئة من عقيدة ودانوا بما تدين به من رأي، وعبدوا ما يعبد من إله"¹.

فتعقبه الشيخ الخضر بقوله: "أجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الكفر قبل النبوة وبعدها، وممن حكى الإجماع على هذا الإمام عضد الدين في كتاب المواقف والقاضي عياض في كتاب الشفاء...ولكن كاتب الرسالة يقول: "إنهم قلدوا الأهل والعشيرة في كل ما يقال ويفعل وآمنوا بما تؤمن به البيئة من عقيدة، وعبدوا ما يعبد من اله، وإنما يقول هذا، ويخرج عن إجماع المسلمين من استطاع أن يملأ يده من روايات تاريخية صحيحة، أو استطاع أن يقيم دليلاً نظرياً يسعه المنطق السليم...وليس بيد الكاتب نقل مقبول، ولا دليل معقول، وإنما هي دعوى عارية من كل شاهد، فلندع بسط الحديث عنها حتى نعرف الشبهة التي دفعت الكاتب إليها، حتى عبر عنها بجمل يؤكد بعضها بعضاً، وأسرف في تسويتهم بالمشركين إلى أن قال لك " وقلدوهم في كل ما يقال ويفعل"².

المطلب الرابع: الكتب

من المصادر التي كان يعتمد عليها الشيخ محمد الخضر حسين الكتب المؤلفة، إما مستشهداً بها أو مؤيداً لها، أو ناقضاً من خلال الرجوع إليها، أو مصححاً معلومة أخطأ الخصم في نقلها أو فهمها، وقد تميزت هذه الكتب بتنوعها واختلاف مشاربها مما يدل على سعة معارف الشيخ وكثرة اطلاعه وشمول علومه، فهو على سبيل المثال يرجع إلى كتب السنة؛ وكتب التفسير والفقه، وكتب العقائد وكتب الفرق والأديان؛ وكتب المنطق والفلسفة وكتب اللغة، وكتب التاريخ؛ والسياسة، ويرجع -كذلك- إلى كتب المستشرقين»

¹ / محمد الخضر حسين: "بلاغة القرآن" الموسوعة، المجلد 2، مرجع سابق، ص125.

² / المصدر السابق، ص125-126.

وكتب المخالفين الذين يرد عليهم ويتعقبهم بحيث يأخذ منها مباشرة دون واسطة.

ويمكن توضيح ذلك بشيء من التمثيل كما يلي¹:

- مصادره في التفسير وعلوم القرآن:

جامع البيان- تفسير ابن جرير الطبري- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة- التفسير الكبير للرازي- تفسير الكشاف للزمخشري- أحكام القرآن للجصاص- أحكام القرآن؛ وقانون التأويل كلاهما لابن العربي- تفسير البيضاوي- تفسير القرآن العظيم لابن كثير- روح المعاني للألوسي- الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس- الإتيان في علوم القرآن للسيوطي.

- مصادره في العقائد والفرق:

- الفصل لابن حزم- المنقذ من الضلال للغزالي- جوهرة التوحيد للبيجوري -
المواقف لعضد الدين الإيجي- مقاصد الطالبين للفتازاني- منهاج السنة النبوية لابن تيمية - هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم- الشمسية - رسالة في قواعد المنطق- لنجم الدين القزويني - حاشية القطب على الشمسية لعبدالحكيم السالكوتي -
طبقات المعتزلة لأحمد بن المرتضى - الإسلام والنصرانية حمد عبده.

- مصادره في الفقه وأصوله» ومقاصد الشريعة

بداية المجتهد لابن رشد - المستصفى للغزالي- المغني لابن قدامة - البرهان للجويني.
-قواعد الأحكام للعز بن عبدالسلام -الموافقات للشاطبي -إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم - الفروق للقرافي.

- مصادره في اللغة والنحو والبلاغة:

كتاب سيبويه -المفصل لابن يعيش -مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي- شرح الدماميني لغني اللبيب -الخلاصة للشاطبي- شرح التسهيل لأبي حيان- معاهد التنصيص

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 436، 439.

لعبد الرحيم العباسي -الصاحبي لابن فارس -الوقف والابتداء لابن الأنباري-التعريفات للجرجاني - الكليات لأبي البقاء الكفوي- الجمهرة لابن دريد. - تهذيب اللغة للأزهري- لسان العرب لابن منظور-القاموس المحيط للفيروز أبادي- المصباح المنير للفيومي - تاج العروس للزبيدي- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني- المفتاح للسكاكي.

-مصادره في الأدب

- الفضليات للمفضل الضبي -الكامل للمبرد- الحيوان للجاحظ - طبقات فحول الشعراء محمد بن سلام الجمحي-الشعر والشعراء لابن قتيبة- طبقات الأدباء لابن الأنباري- الإنصاف لابن الأنباري- الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني - العقد الفريد لابن عبد ربه - الموشح للمرزباني - خزانة الأدب للبغدادي. - ديوان الحطيئة للسكري- رسالة الغفران للمعري - تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان - ردود بعض المستشرقين على بعض في مسألة الشعر الجاهلي.

- مصادره في التواريخ والتراجم والسياسة والاجتماع:

-سيرة ابن إسحاق - سيرة ابن هشام -تاريخ الأمم والملوك للطبري - الطبقات لابن سعد - الفهرست لابن النديم - جمهرة الأنساب لابن حزم -جمهرة النسب لابن الكلبي- الافتراق لابن الكلبي -وفيات الأعيان لابن خلكان- سيرة عمر بن عبدالعزیز لابن الجوزي -مرأة الزمان لسبط ابن الجوزي - معجم البلدان لياقوت الحموي -إنسان العيون في سيرة المأمون المعروف بالسيرة الحلبية لبرهان الدين الحلبي -البداية والنهاية لابن كثير. - غياث الأمم عند التياث الظلم للجويني -سياسة المالك في تدبير الممالك لابن الربيع -نهج السلوك في سياسة الملوك لعبدالله بن عبدالرحمن -لطائف الأفكار وكاشف الأسرار في علم السياسة للقاضي السمرقندي -مقدمة ابن خلدون- روح الشرائع لمونتسكيو -خلاصة تاريخ العرب لسيديو- تاريخ عرب الجاهلية كوسين دي برسفال - العرب قبل الإسلام لجورجي زيدان. -تاريخ التمدن الإسلامي الجورجي زيدان -طبائع

الاستبداد للكواكبي. - حاضر العالم الإسلامي ل: لوثروب ستودارد - الأبطال لتوماس كارليل - دائرة المعارف الألمانية ل: هبر - دائرة المعارف للبستاني - الجنس والأخلاق د. أوتو فينجر.

وفيما يلي ذكر لأهم المؤلفين الذين اعتمد عليهم الشيخ محمد الخضر حسين:

- شيخ الإسلام ابن تيمية

تأثر الشيخ الخضر بابن تيمية تأثراً بالغاً؛ حيث أكثر من النقل عنه، وأكثر ما يرجع إليه من كتب ابن تيمية كتابه العظيم "منهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة القدرية"، وكان يعظم ابن تيمية كثيراً ويصفه بشيخ الإسلام، والحافظ، بل كان إذا أطلق لقب شيخ الإسلام فإنها يريد به ابن تيمية، ومن شدة إعجابه بابن تيمية أن أعد كتابه (الرد على المنطقيين) أحسن كتب المنطق على الإطلاق¹.

ولعل السر في ذلك تأثير خاله العلامة محمد المكي بن عزوز الذي اهتدى إلى منهج السلف الصالح في الاعتقاد وكان محباً لابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ثم إن إخلاص الشيخ الخضر ونبذه التعصب وبحثه عن الحق من أعظم ما قاده إلى الإفادة من شيخ الإسلام ابن تيمية وجعله مصدراً من مصادره في الإصلاح، كما أن رحلة الشيخ الخضر إلى المشرق مكنته من الاطلاع على تراث ابن تيمية خصوصاً مرحلته السورية وقيامه مقام علامة الشام القاسمي في التعليم بعد وفاته 1332هـ، وكان القاسمي من أشد الناس عناية بتراث ابن تيمية وابن القيم².

وقد كان الخضر منافحاً عن ابن تيمية معتدلاً بأقواله وأحكامه؛ واختياراته، ومن شواهد ذلك قوله: «ولا يقدر خطأ رأي العالم في الثقة بروايته؛ فابن تيمية -مثلاً- يصح رواية سيبويه ويخطئه في التطبيق وقد روي: أن أبا حيان كان رفيقاً لابن تيمية» فرّد ابن تيمية

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 428.

² / المرجع السابق، ص 430 - 431.

على سيبويه» فقال له أبو حيان: أترد على سيبويه؟ فقال: هل سيبويه نبي النحو؟ لقد أخطأ في ثلاثين موضعاً من كتابه: فهجره أبو حيان، وكان شأن أبي حيان أن يقول له: بين لنا الخطأ الذي وقع في الثلاثين موضعاً ويردها أو يسلم بهاء ولا يكون قول ابن تيمية وحده سبباً لهجره".¹

-ابن قيم الجوزية

استند الخضر كثيراً إلى آراء ابن قيم الجوزية ورجع إلى كتبه في ردوده خاصة على الخصوم والمخالفين، وإذا نقل عنه فإنه يراوح في ذلك؛ فتارة يقول: ابن قيم الجوزية وتارة يسميه ابن القيم وتارة يقول: ابن القيم الجوزية، وينقل أكثر ما ينقل من كتاب (إعلام الموقعين) لابن القيم.²

كما كان في ردوده يعتد بتصحيح ابن القيم للأحاديث؛ ومن ذلك ما جاء في رده على علي عبد الرازق وذلك عندما استدل بحديث بعث معاذ إلى اليمن، فقال: «فقد تضمن الحديث أنه يقضي بكتاب الله فإن لم يكن في كتاب الله، فبسنة رسول فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ اجتهد رأيي، وقد صحح هذا الحديث الحافظ أبو بكر بن العربي في (عارضه الأحمدي) وصححه ابن قيم الجوزية في (إعلام الموقعين)»³.

-أبو بكر ابن العربي

لقد كان أبو بكر بن العربي من المصادر التي يرجع إليها الخضر في رؤاه الإصلاحية

ومن كتب ابن العربي التي رجع إليها كتاب (العواصم من القواصم) وكتاب (عارضه الأحمدي) وكتاب (أحكام القرآن).

¹ / محمد الخضر حسين، دراسات في اللغة العربية، الموسوعة، مجلد 6، مصدر سابق، ص22.

² / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 432.

³ / محمد الخضر حسين، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، الموسوعة، مجلد 9، مصدر سابق، ص238.

وقد أفصح الخضر عن تأثره وإفادته من ابن العربي وطريقته، عندما سأله صحفي عن كتب أعجبه؛ وذكر بعض الكتب قال: «ويعجبني كتاب (قانون التأويل) للحافظ أبي بكر بن العربي المتوفى سنة 543هـ وهو تفسير للقرآن الكريم¹.

كما يقول في ترجمته لابن العربي: "ولأبي بكر هذا فضل في انصرافي عن دراسة علوم الدين دراسة تقليد ومتابعة؛ شأن من لا يزيد في التفقه على قراءة مثل (مختصر خليل) وشروحه وحواشيه؛ ذلك أني اتصلت بمكتبة خالي وأستاذي المرحوم الشيخ سيدي محمد المكي بن عزوز واستعرت منها كتاب (العارضنة) وكتاب (القبس) وجزء من (ترتيب المسالك) ثم اتصلت بمكتبة صديقي العلامة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور شيخ الإسلام المالكي بتونس لهذا العهد؛ واستعرت منها كتاب (الأحكام) وكتاب (العواصم من القواصم) فأعجبت بطريقة المؤلف في التأليف» ووجدتها الطريقة التي تهض بالفكر حتى يكون مثمرا بل الطريقة التي تحبب إلى ذي الفطرة السليمة دراسة العلوم الدينية، والواقع أن هذه الكتب كانت أول ما أخذني إلى النظر في علوم الشريعة بتلهف بعد أن كنت قد انقطعت إلى علوم اللغة العربية وآدابها².

-الشاطبي:

كان الشاطبي من المصادر التي يرجع إليها الشيخ الخضر، وكان يكثر من الرجوع إلى كتاب واحد من أشهر كتب الشاطبي؛ وهو كتاب "الموافقات"، ومن الأمثلة على ذلك أنه رجع إليه في كتابه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) ثماني مرات³.

ولأن مصادر الشيخ كثيرة ومتنوعة؛ فقد أضفى ذلك على كتاباته وردوده رونقا وجمالا وقوة وألقى الأضواء على موسوعيته وتفننه، ومساره الفكري والعلمي،

¹ / محمد الخضر حسين: "أحاديث في رجايب الأزهر"، الموسوعة، مجلد 10، مرجع سابق، ص 178.

² / محمد الخضر حسين "تراجم الرجال"، الموسوعة، مجلد 3، مصدر سابق، ص 122.

³ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 435.

المبحث الثاني: وسائل الشيخ محمد الخضر في الإصلاح

كان الخضر من نوادر علماء عصره من جهة علميته وثقافته وجمعه بين نشاطات متنوعة تأتي على رأسها الكتابة؛ والمشاركة الإعلامية والاجتماعية، وما من ريب في أن تلك الشخصية التي تجمع بين هذه المواصفات ستسلك في سبيل ما تريد إيصاله إلى عامة الناس وخصتهم كل وسيلة، وقد استخدم الخضر في سبيل إيصال أفكاره الإصلاحية إلى أكبر شريحة من الناس جميع الوسائل المتاحة له في عصره، ويمكن تفصيل ذلك فيما يلي*:

المطلب الأول: المحاضرات

تعد المحاضرات الوسيلة الأهم في تاريخ الشيخ محمد الخضر حسين في نشر أفكاره ورؤاه الإصلاحية؛ فهي الوسيلة الأولى والأطول والأكثر استمراراً في تاريخه؛ فلقد كان يأخذ بهذه الوسيلة منذ بداياته في تونس مروراً بسوريا إلى حين استقراره في مصر؛ فلا تكاد تمر مناسبة أو تدعو حاجة؛ أو يمر وقت قصير إلا ويلقي محاضرة في أي شأن من الشؤون، بل لقد كانت محاضراته هي الركيزة الأولى لأكثر مؤلفاته ومقالاته؛ فلا يكاد يفرغ من محاضرة إلا وتنتشر في إحدى الصحف أو المجلات؛ وما تلبث فترة إلا وتطبع في كتاب، وقد كان يلاحظ عليها انتظام الأفكار وتسلسلها المنطقي وارتباط بعضها ببعض، إضافة إلى حسن العرض، وكان يلقي محاضراته في أماكن شتى، فكان يلقي في الإذاعات والمساجد والجمعيات الإسلامية، والجامعات؛ والمجامع اللغوية والعلمية وغيرها¹.

* / الوسائل التي استعملها الخضر متداخلة ويصعب أحياناً فصل بعضها عن بعض؛ فمن وسائله -على سبيل المثال- الإلقاء المحاضرات، ثم تُنشر في الصحف على هيئة مقالات؛ والمقالات تعد للطبع فيما بعد وتخرج في كتب وهكذا.

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص448.

وأشهر تلك المحاضرات التي اتخذها وسيلة لإيصال أفكاره الإصلاحية الى عموم الناس ما يلي:

- **محاضرة (الحرية في الإسلام):** وهي رد على المستبدين والمستعمرين، والمخالفين في مفهوم الحرية، وتعد من أقدم محاضراته وأعظمها وأكثرها أثراً وسيرورة في الناس، يقول الأستاذ علي الرضا الحسيني في مقدمة كتاب "محاضرات إسلامية:" وفتاحة هذه المحاضرات (الحرية في الإسلام) من أمهات المحاضرات الإسلامية وأوائلها التي ألقاها الإمام الأكبر في مطلع حياته الدينية والسياسية، ألقاها بنادي جمعية قدماء تلامذة الصادقية في تونس، وذلك مساء يوم السبت الواقع في 17 ربيع الثاني 1324هـ، وكان يشغل آنذاك منصب قاضي مدينة (بنزرت) وقد طبعت هذه المحاضرة عام 1327هـ برسالة خاصة ؛ وأعيد طبعتها مرتين فيما بعد".¹

ويواصل الأستاذ علي كلامه على تلك المحاضرة فيقول: " تعتبر محاضرة (الحرية في الإسلام) من الوثائق القومية والتاريخية التونسية الهامة؛ فقد أقيمت في عهد الحماية الفرنسية وفي أوج غطرستها وشراستها، تلك الحماية الرهيبة التي كانت تعتبر تونس قطعة أرض ملحقة بفرنسا وتكمم الأفواه عن النطق بالأحاديث المعتادة؛ فكيف الحال بصوت داو يتحدث عن الحرية في آذان شعب مضطهد؟! تناقلت الأيدي المحاضرة من بيت إلى بيت؛ ومن معهد إلى معهد: يهمس بها المواطن التونسي إلى أخيه فينتشر شعاعها في القلوب المؤمنة بحرية التراب التونسي، وقد حدثني سيدي الوالد الشيخ زين العابدين التونسي -حفظه الله أن العم الإمام رحمه الله عندما ألقى هذه المحاضرة أحدثت أثراً عميقاً في المجتمع التونسي ما زال يفعل فعله في الأوساط الشعبية كالنار في الهشيم، وكانت صوتاً من أصوات النضال التونسي السائر في الطريق إلى الحرية".²

¹ / محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، الموسوعة، مجلد 4، مصدر سابق، ص 03.

² / المصدر السابق، ص 03، 04.

ومن المحاضرات التي اتخذها الشيخ وسيلة يتعرض من خلالها إلى كثير من القضايا في الإصلاح:¹

- **محاضرة (العظمة):** وهي محاضرة ألقاها الشيخ الخضر ردا على مقالة للشيخ علي عبد الرازق التي نشرها في جريدة السياسة، وقد ألقى الشيخ الخضر هذه المحاضرة في دار جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية في القاهرة في 12 ربيع الأول 1346هـ.
- **محاضرتان في (نقد آراء الأستاذ فريد وجدي من الناحية الدينية والاجتماعية):** وقد ألقاهما بدار جمعية الهداية الإسلامية في القاهرة عام 1350هـ.
- **محاضرة (حياة اللغة العربية):** وقد رد بها على مقال للفرنسي (شارل نويل) الذي اتهم الإسلام ولغته بالعم، وقد ألقاها الشيخ سنة 1327هـ في جمهور غفير من الأدباء «وأساتذة اللغة العربية في جمعية قدماء تلامذة الصادقية».
- **محاضرة (التصوف في القديم والحديث):** وقد ألقيت في نادي جمعية "مكارم الأخلاق" يوم الجمعة 28/08/1347هـ.

المطلب الثاني: الكتب والمجلات والأحاديث الإذاعية

لقد كانت هذه الوسائل "الكتب، المجلات، الأحاديث الإذاعية" من أعظم ما أعان الشيخ محمد الخضر حسين على نشر أفكاره الإصلاحية، وسيتم شرح كيفية استخدامها من طرف الشيخ كما يلي:

• تأليف الكتب

الكلام في هذا يطول وقد مضى تفصيله في الفصل الثاني من الدراسة ولا ريب أن أعظم تلك الكتب على الإطلاق كتاب: "نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم" وكتاب "نقض

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 450.

كتاب في الشعر الجاهلي".

أمّا بقية كتبه وردوده فكانت في أصلها مقالات، أو محاضرات ثم خرجت في كتب مستقلة أو ضمن كتب، كردوده على طه حسين في (حقيقة ضمير الغائب في القرآن) وعلى علي عبد الرازق في (العظمة) و(ملاحظات على مقال مولد النبيغة)، وردوده على الدمنهوري، والشيخ شلتوت، والأستاذ عبد المتعال الصعيدي؛ والطاهر حداد؛ وأحمد أمين؛ ومحمد أحمد خلف الله وفريد وجدي؛ فهذه الردود كانت في أصلها محاضرات أو مقالات، ولا ريب أن الكتاب قد أبقى أثرا كبيرا.

• تأسيس المجلات

أسس الشيخ محمد الخضر عددا من المجلات على رأسها مجلة "السعادة العظمى" (1322هـ-1904م)، وهي أهم إنجاز قام به في تونس، وقد كان سباقا في ذلك، إذ تُعد أول مجلة عربية ظهرت بالبلاد التونسية، وكانت نصف شهرية، وبعد صدور 21 عددا توقفت، ولعل سبب ذلك هو عجز الرجل عن مواصلة هذا العمل من الناحية المالية.¹

وقد كان إصداره للمجلة في وقت مشحون بالخلافات بين تيارين بارزين في تونس آنذاك، وهما: تيار الإصلاحيين، وتيار المحافظين، بمثابة المهدئ، وذلك راجع لحكمة الشيخ محمد الخضر حسين وحنكته إذ كان يتعاملُ بهدوء وحرصاً مع الخلاف الذي كان محتدماً وقتها في قضايا فكرية ودينية عديدة؛ مما جعل أصحاب التيارين وأنصارهم المتطرفين يخاصمون المجلة وصاحبها باستثناء صديقه الوفي العلامة محمد الطاهر بن عاشور²

كانت أغلب مقالات تلك المجلة من تحرير الشيخ الخضر؛ لذا عُدت من تأليفه، ومن ضمن ما نشره مقالات تهدف إلى دعوة المسلمين إلى الاتحاد والتعاون ونبذ الكسل والجمود والاهتمام بقضايا العصر والسعي إلى مسايرتها في ظل تعاليم الإسلام، كما كان

¹ / محمد مواعدة، مرجع سابق، ص 137.

² / انظر محمد الخضر حسين، ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، الموسوعة، مج 15، مصدر سابق، ص 185.

يجيب فيها عن الأسئلة التي ترد من القراء؛ ومن ضمنها أسئلة عن بعض البدع والمخالفات فكان يجيب عن تلك الأسئلة؛ ويرد على المخالفين الذين يروجون للبدع والمحدثات¹.

وكما أنشأ مجلة (السعادة العظمى) في تونس أنشأ -كذلك- مجلة (الهداية الإسلامية) وذلك لما كان في مصر؛ حيث أصدر تلك المجلة عام 1347هـ، وما من ريب في أن تلك المجلة أسهمت أعظم إسهام في نشر مقالات الشيخ، وأوضحت معالم دعوته ومن نظر في فهارس هذه المجلة وجد كثيراً من أخباره وبحثه ومحاضراته مبنوثة في أعدادها².

وقد كان يكتب في مجلة الهداية أكابر العلماء والأدباء، كالشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ومحمد النيفر، وقد نالت حظوة خاصة لدى علماء الإسلام مغرباً ومشرقاً كالشيخ محمد رشيد رضا³.

ويجمع جلُّ من أرخ لهذه المجلة أنها كانت لسان المغرب العربي في مصر وفي المشرق العربي حتى اعتبرت بحق مجلة مغربية تصدر في القاهرة، لما كانت تختص به من اهتمام كبير بقضايا المغرب العربي وتاريخه وثقافته وكفاحه التحرري ضد الاستعمار والفرنسية⁴، وقد تنوعت أبوابها لتشمل التفسير والحديث الشريف ونشر الفتاوى والأحكام ومقارنة الشريعة الإسلامية بالقوانين الوضعية⁵.

وكانت تركز في محتوياتها على المقالات الرصينة وتلخص بعض محاضرات أعضائها، وتدعو إلى الخير والصالح وتواصل البحث عن الحقائق الدينية والعلمية

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 441.

² / المرجع السابق، ص 442.

³ / محمد الخضر حسين، الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، الموسوعة، مج 13، ص 215_216، وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، مج 15، ص 193_194.

⁴ / أبو القاسم محمد كرو: أعلامنا " محمد الخضر حسين"، دار المغرب العربي، تنس، 1973، ص 64.

⁵ / فوزي مصمودي: " العلامة محمد الخضر حسين صحفياً"، في المجلة الخلدونية، الموسوعة، مج 15، ص 91.

والأدبية سالكة في جهادها سبيل الحكمة، لا تسكت عن حق ولا يطيش لها قلم في باطل¹.

وعندما أصدر الأزهر مجلة باسم (نور الإسلام) في محرم عام 1349هـ الموافق ل 1930م، أسندت رئاسة تحريرها إلى الشيخ الخضر، فنهض بهذه المهمة ثلاث سنوات، وأرسى قواعد التحرير في تلك المجلة، ونظم شؤونها.²

وقد أوضح الشيخ محمد الخضر أغراضها الهادفة إلى إظهار حقيقة الدين الإسلامي والتركيز على نشر آدابه والتصدي للملحدين بعيدا عن السياسة، أما أبواب المجلة فكانت شبيهة إلى حد كبير بمباحث مجلة الهداية الاسلامية وأرانها وقد تميزت مجلة "نور الاسلام" بإضافة قسم باللغة الإنجليزية وباب آخر يترجم جل ما ينشر في الصحف المناوئة للإسلام، أما الشيخ الخضر فكان يحرر افتتاحية العدد مع مواظبته كتابة العديد من المقالات الرصينة في شتى أغراض المعرفة.³

وأسندت إليه رئاسة تحرير مجلة "لواء الاسلام" التي أسسها العلامة أحمد حمزة عام 1945م، وقد شهدت في عهده أزهى أيامها، حيث تصدت لأشباه الملحدين والمندسين في صفوف المسلمين وعزت أفكارهم الهدامة وبينت حقيقة الإسلام.⁴

كما أسهم الشيخ محمد الخضر في تأسيس عدد من المجلات وتحريرها ومنها مجلة (الشبان المسلمين) الصادرة في 1929م ومجلة (مجمع اللغة العربية) التي صدر العدد الأول منها سنة 1935م؛ ومجلة (المجمع العلمي العربي) وهي مجلة مجمع دمشق الذي كان الشيخ الخضر من أعضائه الأولين عند تأسيسه في سنة 1919م، ولما هاجر إلى

¹ محمد مواعدة، مرجع سابق، ص 103.

² انظر محمد الخضر حسين، الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، الموسوعة، مجلد 13، ص 216، وملتقى

الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، الموسوعة، مجلد 15، مصدر سابق، ص 194.

³ فوزري مصمودي، مرجع سابق، ص 92.

⁴ المرجع السابق، ص 93.

مصر واستقر بها انتخب عضواً مراسلاً لها¹.

وكتب في مجلة (البدور) وهي شهرية أدبية علمية أصدرتها في تونس جماعة من (جمعية الجامعة الزيتونية) بين عامي 1912 و 1922م، وكذلك (لمجلة الزيتونية) وهي مجلة شهرية إسلامية تونسية أصدرتها نخبة من الشيوخ ابتداءً من سنة 1914م، وكذلك جريدة (الزهرة) اليومية السياسية الصادرة في تونس التي أسسها عبد الرحمن الصنادي سنة 1889م، و(الفجر) التي أصدرها الحزب الدستوري التونسي عام 1920، ومجلة (الزهراء) وهي مجلة علمية أدبية اجتماعية أنشأها محب الدين الخطيب؛ واستمر صدورها شهرياً مدة خمس سنوات من 1343هـ إلى 1347هـ، إضافة إلى مجلة العرب والمجلة الزيتونية وغيرها².

وقد كان عبر هذه المنابر ينشر المقالات والردود والتعقيبات، ويجب المستقتين والسائلين عبر الصحف، فكان يجيب عن تلك الأسئلة ويكشف عن حقيقة أولئك المخالفين، ويفند الانحرافات التي تخالف الإسلام.

• إلقاء الأحاديث الإذاعية

سلك الخضر هذه الوسيلة إبان إقامته في الشام وفي مصر، وقد أشار الشيخ الخضر إلى تلك الأحاديث في بعض المناسبات، ومنها ما جاء في قصيدته السينية التي ألقاها في حفلة وداع أقامها له نخبة من رجال النهضة الإصلاحية في دمشق سنة 1363 هـ بعد انتهاء زيارته إلى دمشق، حيث قال في آخرها متذكراً عهده السالف في دمشق³:

أفتى دمشق لديك ذكرى راحل لاقى بها الترحيب والتأنيسا

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 443.

² / فوزري مسمودي، مرجع سابق ص 94.

³ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 446.

إلى أن قال:

ألقى زمام سياسة الدنيا إلى ملاً رعوه وأقرضوه نفوساً
وأقام سوقاً للمكارم ناشراً فيها بمذيع البيان دروساً

ويشهد لتلك الأحاديث الإذاعية التي ألقاها في مصر ما نشرته جريدة (الزهرة) التونسية في العدد الصادر يوم الاثنين 7 جمادى الثانية 1355هـ: "ولقد ابتهج التونسيون ابتهاجاً عظيماً حين أعلن عن مسامرة بلدنا العلامة الشيخ الأخضر بن الحسين... ألقى الشيخ مسامرتة الطريفة بصوت ضخم حلو النبرات جميل وبلغه بديعة التعابير فصيحة التراكيب هي -وربك-البيان الكريم... هذا وإن حرماناً من رؤية الشيخ، ومن دروسه الفذة فلنا ما يرسله من بيانه السامي، وقلمه المجلي في ميادين العلوم والآداب وما يلقيه إلينا من الحاضرات عن طريق المذيع عوض"¹.

وجاء نحو ذلك مقال نشرته جريدة (المنار التونسي) العدد الثالث من السنة الأولى الصادر في 6 جمادى الثانية 1355هـ؛ حيث نشرت مقالاً عنوانه: «محاضرة الأستاذ الخضر بن الحسين» وكتب تحته: "في مساء الجمعة الفائت سمعنا بالراديو من مصر صوت أستاذنا العزيز العلامة التحرير الشيخ الخضر بن الحسين كما نعهده - ذلاقة وفصاحة لم تغير فيه لهجة المصريين؛ وقلبهم لحروف المعجم، ولقد فتن الناس بسماع ذلك الصوت الذي حرموا من سماعه عشرات السنين"².

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 448.

² / المرجع السابق، ص 447.

المطلب الثالث: تأسيس الجمعيات والمجامع العلمية

• تأسيس الجمعيات

كان الشيخ الخضر يؤمن بالعمل المؤسسي الجماعي؛ وكان ذلك بارزا في سيرته طوال مراحل حياته، وهذه الجمعيات التي أسسها الشيخ؛ أو شارك في تأسيسها تشترك في كثير من أهدافها ويأتي في مقدمة تلك الأهداف مواجهة العقائد الباطلة؛ والأفكار الهدامة التي تناقض الإسلام والقيام بالرد عليها بما يناسب.

ولقد سبقت الإشارة إلى تلك الجمعيات، وفيما يلي بيان لمدى تعلقها بما يرمى إليه هذا المطلب؛ ألا وهو كون هذه الجمعيات وسيلة من الوسائل التي اتخذها الشيخ الخضر في الإصلاح:

شارك الشيخ الخضر في تكوين عدد من الجمعيات على رأسها:

➤ **جمعية قدماء تلامذة الصادقية:** شارك في تكوين (جمعية تلاميذ الزيتونة) عام 1324هـ مع نخبة من العلماء وفي مقدمتهم العلامة محمد الطاهر بن عاشور، وخلال سنة 1325هـ انحلت هذه الجمعية وتكونت جمعية جديدة باسم (الجمعية الزيتونية) وقد تولى رئاستها الشيخ محمد الطاهر بن عاشور وعضوية العلماء: الطاهر النيفر ومحمد رضوان؛ ومحمد النخلي؛ ومحمد الخضر حسين وأبو حسن النجار¹.

وقد واصل دفع تلامذته إلى المطالبة بالإصلاح وكان من نتائج ذلك، الإعلان عن أول إضراب عن الدراسة قام به الطلاب بتونس وهو الإضراب الذي وقع يوم 16 أبريل سنة 1910م وكان عددهم يومئذ حوالي سبع مئة طالب...²

¹ / محمد مواعدة، مرجع سابق، ص 47، 48.

² / محمد بوذينة: "محمد الخضر حسين حياته وآثاره" في كتاب محمد الخضر حسين بأقلام نخبة أهل الفكر، مج 14، ص 95. / أو الطاهر بن سالم، مرجع سابق، ص 26.

➤ **جمعية تعاون جاليات أفريقيا الشمالية:** أسهم في تأسيسها ابان المرحلة المصرية، وتضمّ عدّة شخصيات مغربية من تونس والجزائر والمغرب، وليبيا، يقول الخضر حسين عنها: " تأسست هذه الجمعية لتهض بجاليات إفريقيا الشمالية حتى يسيروا مع إخوانهم المصريين جنبا إلى جنب، يسايرونهم في أفكارهم، في آدابهم، في معارفهم، في كل شأن من شؤون حياتهم الاجتماعية الراقية، وكذلك يجب على كل جالية تعيش بين قوم ناهضين، وكذلك يجب على كل جالية تعيش في بيئة هي أوسع من أوطانها حرية واحتمالا للمشروعات الإصلاحية. وللدعوة إلى المنافسة في الخير، والمسابقة في حلبة الشرف والسعادة طرق شتى، ومن أقربها، وأبلغها أثرا: إلقاء محاضرات تتمثل فيها سيرة رجال أدركوا بصفاء المعيتهم، وكبر همهم مكانة راسخة وسمعة فائقة".¹

وكما شارك في تكوين الجمعيات فقد قام -كذلك- بإنشاء وتأسيس الجمعيات التي تعنى بمجالات الإصلاح الديني والاجتماعي؛ والسياسي؛ والتربوي؛ والفكري، ومنها:

➤ **(جمعية الشبان المسلمين):** اشترك في تأسيسها مع صديقيه أحمد تيمور ومحب الدين الخطيب سنة 1346هـ-1927م، وقد كان الدفاع عن الإسلام؛ ومحاربة الإلحاد على رأس الأسباب التي قامت (جمعية الشبان المسلمين) من أجلها.

ويذكر الشيخ محمد الخضر السبب المباشر لإنشاء (جمعية الشبان المسلمين) فيقول: «وأذكر شاهدا على هذا: أنني كنت لقيت أحد المتصلين بجمعية الشبان المسيحية في القاهرة، ففاجأني بنبا هو: أن بعض الشبان المسلمين دخلوا في جمعية الشبان المسيحية؛ وصاروا من أعضائها فأخذني أسف يقطع الأكباد وقلت في نفسي: هل من الميسور تأليف جمعية للشبان المسلمين تصرفهم عن غشيان جمعية بطانتها الدعوة إلى المسيحية؟ وذهبت توا إلى المطبعة السلفية، فلقيت طالبا من طلاب دار العلوم؛ فعرضت

¹ / محمد الخضر حسين، **جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا**، الموسوعة، مجلد 09، ص 18 أو الطاهر بن سالم، مرجع سابق، ص 30.

عليه هذه الأمنية، وقلت له : اذكر هذا بين الطلاب، وانظر ماذا ترى منهم...وأيدني في هذا الاقتراح الأخ الأستاذ محب الدين الخطيب؛ ف جاء الطالب من الغد وقال: وجدت من بعضهم إقبالا وحضر بالمطبعة السلفية بعض طلاب الجامعة المصرية وخاطبناهم على أن يقوموا بالدعاية للجمعية في الجامعة؛ ففعلوا وكان هذا بداية تأسيس جمعية الشبان المسلمين في القاهرة... وعرفنا من ذلك النجاح أن الشاب المسلم إنما تأخذه الشبهة، ويحيد عن سبيل الرشيد حيث لا ترعاه قيادة رشيدة، أو يطرق سمعه دعوة حكيمة"¹.

وقد وصف الشيخ محب الدين الخطيب الحال في ذلك الوقت، فقال في حديث له عن أول اجتماع عقدته الجمعية في دار (سينما الكوزمو) بدعوة من الشاعر أحمد شوقي وقد حضره نخبة من الشيوخ والشباب قال: «كنت أنا وأحمد تيمور باشا رحمه الله والسيد محمد الخضر حسين حريصين على أن تكون هذه المؤسسة الأولى للإسلام في مصر قائمة على تقوى من الله وإخلاص؛ وكنا حريصين على أن يتولى إدارتها رجال يعرفون كيف يصمدون لتيار الإلحاد الجارف بعد أن استولى على أدوات الثقافة والنشر في العالم الإسلامي، وفي مصر على الخصوص؛ فكنا نبحث عن هؤلاء الرجال بين من نعرف ومن لا نعرف ونستقصي الحقائق عن دخالهم من غير أن يعلموا"².

➤ (جمعية الهداية الإسلامية) عام 1347هـ -1928م: وقد ضم إليها نخبة من علماء الأزهر كالشيخ مصطفى المراغي، والأستاذ عبد الحلیم النجار؛ كما ضم نخبة من الشباب المثقفين، وكوّن بها مكتبة كبيرة كانت مكتبته الخاصة نواة لها وأصدر مجلة باسمها وهي مجلة "الهداية الإسلامية".

وهذه الجمعية هي أعظم عمل قام به الشيخ في الجمعيات التي أسسها أو شارك في تأسيسها؛ فقد أولاهما كل جهده: وانصرف إليها نهاره وليله، حتى كانت الجمعية مع مجلتها

¹ / محمد الخضر حسين، "هدى ونور"، الموسوعة، مج 12، مصدر سابق، ص82.

² / محمد بن ابراهيم الحمد، مرجع سابق، ص454.

كما يقول الأستاذ علي الرضا الحسيني طعامه؛ وشرابه ومنامه.

وكان "الغرض من تأسيسها: القيام بما يرشد إليه الدين الحنيف، من علم نافع، وأدب رفيع، وخلق كريم، وتعتمد في تحقيق هذا الغرض على الوسائل الآتية¹:

- السعي إلى تعارف الشعوب الإسلامية وتوثيق الرابطة بينها ورفع التجافي بين

الفرق الإسلامية، والتعاون مع كل جمعية تسعى لهذه الغاية.

- نشر حقائق الإسلام بأسلوب يلائم روح العصر.

-مقاومة الإلحاد والدعايات غير الإسلامية في الأوطان الإسلامية بالطرق العلمية.

-الجهاد في إصلاح اللغة العربية» وإحياء آدابها.

ومن أهداف الجمعية²:

1- حماية أبناء المسلمين وإنقاذهم من حفرة الدعاية الغاوية (دعاية الجحود والخلاعة)

2- أن تعرض حقائق الدين الحنيف وحكمة تشريعه في صورها الخالصة النقية .

3- أن تبحث في تاريخ رجال الإسلام من العرب وغير العرب، وتنبه إلى من كان لهم

عبقرية في العلم، أو فضل في البيان، أو شرف في الأخلاق، أو رشد في السياسة.

4- تعمل هذه الجمعية على إصلاح الأخلاق .

5- تحرص هذه الجمعية على أن ترى في العالم الإسلامي رجالا بارزين تسمو همهم

ويجد جدهم حتى يتركوا في الدنيا دويا لقول الشاعر:

وترك في الدنيا دويا كأنما تداول المرء أنامة العشر

6- أزمعت جمعية الهداية على أن تعمل على رفع التجافي بين الفرق الإسلامية،

ولعلها تستطيع بتأييد الله، وبوسيلة مجلتها الضاربة في الشرق يمينا وشمالا، أن

¹ / محمد الخضر: الهداية الإسلامية، الموسوعة، مج 10، مصدر سابق، ص174، 175.

² / الظاهر بن سالم، مرجع سابق، ص27، 28.

تضع مكان التجافي ألفة وسلاما.

وقد عبر الخضر حسين عن أهدافها بقوله: "فخطة جمعيتنا ومجلتنا: الجهاد في إعلاء كلمة الحق والرد على هؤلاء المنكرين والإباحيين على طريقة آداب البحث وقوانين المنطق الصحيح. والجمعية بعد هذا تعمل لتهديب الأخلاق وإصلاح شؤون الاجتماع وتبذل مجهودا كبيرا في ترقية اللغة العربية، وفي الاحتفاظ بها حفظ القرآن الكريم وسنة رسول الله وفي ذلك صيانة الدين الحق والشريعة الغراء".¹

وقد كانت تصدر عنها مجلة "الهداية الإسلامية" التي تعد لسان الجمعية؛ كما فتحت هذه الجمعية فروعاً بعدة مدن في البلاد المصرية وفي بعض البلدان العربية كسوريا والعراق، وكان مقر الجمعية منتدى تقام فيه المحاضرات وتلقى الكلمات وأكثر من يقوم بذلك رئيسها الشيخ الخضر.

كما كانت تصدر البيانات التي تتكر من خلالها على من يسيء للإسلام، كما كان أعضاء الجمعية يقومون بإلقاء المحاضرات في المساجد عقب صلاة الجمعة؛ فكان لهذه الجمعية أبلغ الأثر في بيان حقائق الإسلام؛ والوقوف في وجوه الطاعنين عليه.²

ومن بين الأعمال التي حققتها الجمعية والتي تبين التزامها بالمنهج الذي رسمته منذ البداية. مراسلتها للمسؤولين في الحكومة والتدخل لديهم للوقوف ضد أي عمل قد يسيء إلى الأخلاق والدين ومنها مراسلتها لوزير المعارف في مناسبات متعددة وقد حققت بذلك نتائج مرضية في الإصلاح في مجالات متعددة.³

➤ جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية

دعا الخضر حسين جاليات المغرب العربي المقيمة في القاهرة إلى تكوين جبهة

¹ / محمد الخضر، الهداية الإسلامية، الموسوعة، مجلد 10، مصدر سابق، ص 277.

² / محمد إبراهيم بن الحمد، مرجع سابق، ص 458.

³ / الطاهر بن سالم، مرجع سابق، ص 29.

غايتها الدفاع عن شعوب شمال إفريقيا (تونس، والجزائر، والمغرب، وليبيا). وقد تحقق ذلك ونشأت جبهة تدعى (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية) ومقرها في دار (جمعية الهداية الإسلامية)، وقد عقدت الجبهة اجتماعها الأول في شهر ذي الحجة سنة 1363هـ الموافق لسنة¹1944.

عملت الجبهة أقصى ما يمكنها للتعريف بقضايا المغرب، وعقدت المؤتمرات واللقاءات مع المسؤولين العرب والمسلمين، وشرحت للناس كافة في المشرق ما تتعرض له شعوب المغرب، وحفزت الهمم وكشفت جرائم فرنسا وخططها الدنيئة أمام الرأي العام في بلاد لم تكن تسمع عن المغرب العربي إلا اسمه.

بذلت الجبهة وسعها في خدمة قضايا المغرب، وكانت أعمالها ومواقفها المشرفة ومحاضراتها ونشرياتهما ومساعدتها مع ملوك ورؤساء الدول العربية والإسلامية دعما قويا لحركات الاستقلال في المغرب.²

كما سعت للتعريف بقضايا شمال إفريقيا وراستت جميع المنظمات العربية والعالمية، فقد أرسلت برقية إلى كل واحد من وزراء خارجية الدول الخمسة، انكلترا، أمريكا وروسيا والصين وفرنسا، كما أرسلت عدة رسائل ومذكرات ونداءات موجهة إلى جهات ثانية مثل:

- مذكرة إلى مؤتمر جامعة الدول العربية

- رسالة إلى هيئة الأمم المتحدة

- مذكرة إلى الملك عبد العزيز آل سعود عند زيارته لمصر.³

وهكذا قامت الجمعيات التي شارك فيه الشيخ الخضر أو قام بإنشائها بأعمال عظيمة؛ فحققت الكثير من الأهداف التي رُسمت لها والأغراض التي قامت من أجلها؛

¹ / الطاهر بن سالم، مرجع سابق، ص30.

² / محمد الخضر، جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا، الموسوعة، مجلد09، مصدر سابق، ص25.

³ / الطاهر بن سالم، مرجع سابق، ص32.

فكانت المحاضرات تقدّم فيها والمجلات والبيانات تصدر عنها.

• المجامع العلمية

➤ المجمع اللغوي بالقاهرة

كان الشيخ محمد الخضر حسين من أبرز أعضاء مجمع اللغة العربية العاملين وبقي على هذه الحال إلى آخر أيام حياته، وقد ترأس الشيخ لجنة اللهجات وساهم في أشغال عدة لجان أخرى أهمها¹:

• لجنة الآداب والفنون

• لجنة دراسة معجم المستشرق " فيشر " المتعلق بالألفاظ القرآنية

• لجنة المعجم الوسيط

• لجنة الإعلام الجغرافية

كما ألقى عدة محاضرات وبحوث نشرت بمجلة المجمع منها :

- المجاز والنقل نشر في الجزء الأول ص 291 -

- الاستشهاد بالحديث في اللغة - نشر في الجزء 3 ص 197 -

- وصف جمع العاقل بصيغة فعلاء - نشر في ج 7 ص 254 -

- اسم المصدر في المعجم - نشر في ج 8 ص 147

وشارك في المؤتمر الطبي العربي المنعقد بالقاهرة سنة 1939م نيابة عن المجمع

وألقى بحثاً عنوانه: " طرق وضع المصطلحات الطبية وتوحيدها في البلاد العربية " .

➤ المجمع العلمي بدمشق

تأسس المجمع العلمي العربي بدمشق سنة 1919م وعقد جلسته الأولى يوم 30

جويلية، وقد تمّ تعيين الشيخ الخضر حسين عضواً عاملاً بالمجمع صحبة مجموعة من

¹/ الطاهر بن سالم، مرجع سابق، ص35.

الباحثين والعلماء منهم حسن حسني عبد الوهاب من (تونس) والمستشرق ماسينيون من (فرنسا) وبروكلمان من (ألمانيا) وبقي عضوا عاملا في لجانه طيلة مدة إقامته بسوريا وحين انتقاله إلى مصر واصل نشاطه عضوا مراسلا¹.

➤ هيئة كبار العلماء

قدم فيه الشيخ بحثا علميا موضوعه "القياس في اللغة"، وقد أبدى العالم عبد المجيد اللبان رأيه في الشيخ، قائلا: "هذا بحر لا ساحل له. فكيف نقف معه في حجاج؟"، وفي 29 أبريل من سنة 1951م صدر أمر ملكي برقم 22 بتعيين الشيخ محمد الخضر حسين عضوا في جماعة كبار العلماء، وكانت هذه العضوية سبيله إلى عرض اسمه على مجلس الوزراء عندما أراد المجلس اختيار شيخ الأزهر من كبار العلماء².

➤ مشيخة الأزهر

تولى الشيخ محمد الخضر حسين مشيخة الأزهر في ظروف سياسية واجتماعية خاصة، ذلك أن "الضباط الأحرار" المصريين قاموا بانقلاب عسكري ضد الملك فاروق يوم 23 جويلية سنة 1952م، وأعلنوا عن برنامج إصلاحي شمل جميع المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ولذلك توجه اهتمامهم الإصلاحي إلى أكبر المؤسسات العلمية وأعرقها وهو الجامع الأزهر. وللخروج من دوامة المنافسات السياسية بحثوا عن شخصية تجمع بين الكفاءة العلمية والحياد السياسي، وهو ما يتوفر في الشيخ محمد الخضر حسين³.

ولكنه لم يستمر طويلا لأسباب منها⁴:

¹ / محمد موعدة، مرجع سابق، ص 80.

² / الطاهر بن سالم، مرجع سابق، ص 36.

³ / المرجع السابق، ص 37.

⁴ / المرجع نفسه، ص 38.

كبر سنه، فقد تجاوز الثمانين من العمر وليس من السهل على من بلغ هذا العمر أن يتحمل أعباء إدارة الجامع الأزهر وهو أكبر المعاهد العلمية الدينية في العالم الإسلامي ولكنه إلى جانب هذه المهمة واصل البحث والكتابة والنشر، ومن الصعب الجمع بين الإدارة والبحث العلمي، خاصة وأن صحته لم تعد تتحمل هذا الجهد بسبب المرض والشيخوخة . وربما يكون للجانب السياسي دور كذلك في إصراره بتقديم استقالته، ذلك أن اللواء نجيب الذي كان سببا في توليه مشيخة الأزهر قد تمت تربيته عن الحكم ونفيه إلى مكان مجهول في 20 أوت سنة 1953م مما يعني تغير الوضع السياسي فاختر الشيخ الاستقالة على العزل.

المطلب الرابع: الحوار والشعر

تعتبر من أهم الوسائل التي اعتمدها الشيخ الخضر لتجسيد رؤاه الإصلاحية، وتوضيح ذلك فيما يلي:

• الحوار:

كان الشيخ الخضر يأخذ بهذه الوسيلة في كثير من الأحيان سواء في مجالسه أو دروسه أو في لقاءاته مع المستشرقين خصوصا لما كان في ألمانيا؛ أو غير ذلك من حواراته، وكان الشيخ يحبذ هذه الطريقة كثيرا لأنها تلائم طبعه الهادئ وفيها يقول¹:

يَخْلُو النَّضَالُ وَلَا نَضَالُ الدُّ مِنْ تَقَادِ ارَاءِ يَقِيرُ خِصَامِ
هِيَ كَالسَّحَابِ: هَذِهِ وَطَفَاءٌ إِنْ سَنَحَتْ وَتِلْكَ تَمُرٌّ مَرَّ جِهَامِ
وَالرَّيِّ يَخْلُصُ بِالنَّقَاشِ الحَرِّ مِنْ صَدِّ! الخَمُولِ وَنُبْسَةِ الإِبْهَامِ
وَجَانِدِ الأَفْكَارِ لَا تَرُدُّ الحَمَى مَا لَمْ تَسِسْ بِرَوِيَّةٍ وَنِظَامِ

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 461.

ومن الأمثلة على أخذه بوسيلة الحوار ما يلي:

ما جاء في خلاصة الرحلة الشرقية من كتابه (الرحلات) وذلك عندما تحدث في درس له في الجامع الأموي ، حيث قال: «وبما جرى لنا في الدرس الأول: أن أحد المستمعين الذين لهم صلة بالقراءة» ألقى بحثاً في موضوع كنت آخذاً في تقريره» فتعرض له بعض الحاضرين» فأومأت إليه بعدم التعرض، وقلت له : إن التفاهم في خلال الدروس هما لا بد منه، وجاريت السائل؛ ولكنه تشعب في المجادلة إلى أن شعرت بأن مباحثته مبنية على أن الموعظة التي كنت بصدد بثها لم تلتئم بما تهواه نفسه؛ ويوافق غرضه فذكرت قول المتنبي:

إنما تنجح المقالة في المر إذا صادفت هوى في الفؤاد

ثم أرسلت له عبارة مقنعة في الجواب؛ ومضيت في تقرير مطلب آخر وبعد انقضاء الدرس دنا إلي، والتمس الإغضاء عما فرط منه فقلت له: إنا متعودون بالبحث وتوسيع مجال للتفاهم¹.

وقال في مقالة له عنوانها (العرب والسياسة) : «وأذكر أنني حين كنت في ألمانيا أيام الحرب الأولى حضرت حديثاً يدور بين مدير الاستخبارات الألمانية وسكرتيه أثناء سفرنا إلى قرية (ويزندرف) سألني المدير في نهايته فقال: أليس كذلك يقرر ابن خلدون؟ قلت: وماذا يقرر؟ قال: إن العرب لا يصلحون لملك؛ ولا يحسنون حكماً للأمم، قلت: إنما خص ذلك بعهد الجاهلية وقرر أنهم في الإسلام أحسنوا السياسة، وقاموا بأعباء الملك خير قيام².

كما قال في مقالة له عنوانها: (استحضر الأرواح): «ولما كنت في ألمانيا سمعت أيضاً أن أناساً من أوروبا وأمريكا يدعون أنهم يستحضرون أرواح الموتى ويخبرونهم عن

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد، ص 463.

² / المرجع السابق، ص 463.

حالهـم وبعـض ما يقع لهم في الحياة، فأقول: إن هذه الواقعة باطلة واجتمعت بقسيس في بلد (لنداو) من ألمانيا وسألته: هل حضر جلسة من جلسات هؤلاء الذين يدعون استحـضار الأرواح؟ قال القسيس: هذه دعوى باطلة والعلماء ينكرون ذلك.¹

• الشعر:

إن من يستنطق ديوان (خواطر الحياة) للشيخ محمد الخضر حسين يتضح له بجلاء البعد الإصلاحي فيه، ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

قصيدة عنوانها (الانتصاف للشريعة) وقد قالها بمناسبة تقليل البعض من شأن علوم الشريعة في مجلس بالقاهرة سنة 1341هـ:

أغـاظ الحـسود الخـب أن بت مقبـلا بفـكري على علم بديع المباحث
وأوجـس حـؤفا أن أزيـد به علا وذاك لدى الحساد احدى الكوارث
ففض من العلم الذي خُضت بـجره ولقب من يرتاده باسم عابث
يُحاول كيدا أن يثبط همـة تسامت فكان الكيد بعض البواعث
فعاداً وما في كفه غير خيبة كما أخفقت في الحج آمال رافث²

وكثيرا ما دعا أبناء وطنه إلى الدفاع عنه، والذب عن حياضه وضرورة جهاد المستعمر والصمود والصبر حتى يجلى عنه ويحرر من براثن الغاصب الغاشم، فالعزة والمنعة لا سبيل إليهما إلا ببذل كل غال ونفيس، أما من يدعون أنهم يستطيعون تحرير أوطانهم دون حرب وجهاد، فهذا وهم وخيال لا حقيقة له كحديث عنقاء، كما يقول³:

حديث عنقاء شعب أنقذا الوطن ولم يسل سيوفا أو يهز قنا
والعز يجعل أرضي روضة أنفا فإن أناخ بها ضيم غدت دمننا

¹ / محمد بن ابراهيم الحمد، ص463.

² / محمد الخضر حسين: "ديوان خواطر الحياة"، الموسوعة، مج 7، مصدر سابق ص53.

³ / المصدر السابق، ص 223.

عسف العدا درن فاسكب عليه دما من الدماء الغول تغسل الدرنا
إن الصقور إذا انقضت تنافح عن أوكارها لم تهب جندا ولا تكنا
كما كشف عن سياسة الغرب الماكرة، وحقيقة تدخله السافر في شؤون العرب بغية
الحفاظ على أمنه واستقلاله، كما يدعي فيقول¹:

يد المحتل تسعدنا على أن نروض الفكر بالسهر الدراك
ونوقظ للعظماء رمح عمرو إذا أزرى بنا رمح السماك
يسير ببغيه في كل يوم حفائظ مضهد وصراخ شاكي
ثم التفت إلى الدعوات إلى القومية والوطنية فقال فيها:

نَادُوا بِهَا قَوْمِيَةَ خَرْقَاءَ أَوْ وَطَنِيَةَ لَا حَبْذَا ذَاكَ النِّدَاءُ²

كما جسد الأماكن التي بها اضطراب وقلق في وطنه، ونادى بشعره ونثره مدافعا
عن فلسطين العربية منبها للخطر الصهيوني الداهم، وحاتا المسلمين على الجهاد في
قصيدته " أي فلسطين " فيقول³:

نَصَبَ الْبُغَاةُ عَلَى ذَا رِكَ لِيَاءٍ وَكَسَوْا مَ ا رِبَعَكَ الْحِسَانَ دِمَاءَ
كُنْتِ الشَّرَى وَدِيَارُكَ الْأَجَامُ لَا يَبْنِي حَوَالِيَهَا الْجَبَانُ خِبَاءَ
وَبَنُوكِ أَسَدٌ مَنْ يَجُسُّ طِبَاعَهَا لَمْ يَلْقَ إِلَّا نَحْوَةً وَإِبَاءَ

والمنتبع لديوان الإمام محمد الخضر حسين يجده مليئا بالقضايا الاجتماعية
والإصلاحية التي عالج بها مشكلات الوطن العربي وهمومه، فهذه قصيدة عنوانها (بعض
أمراضنا الاجتماعية) يدعو فيها إلى الإصلاح الاجتماعي» ومعالجة كثير من الانحرافات
العقدية والفكرية؛ ويحذر من الإلحاد والفرق الضالة والدعايات الباطلة، وقد افتتحها بقوله:

أَيَعُودُ لِلشَّرْقِ الْحَمَاسَةُ وَالْإِبَاءَ فَتَعُودُ عَزْتُهُ وَيَبْتَهَجُ الْعِلَاءُ؟

¹ / محمد الخضر حسين: "ديوان خواطر الحياة"، مصدر سابق، ص 169، 170.

² / المصدر السابق، ص 15.

³ / المصدر نفسه، ص 09.

قالوا: استقامَّ الشرق وهُوَ يسيرُ في نهج الفلاح وفي عزيمته مضاء
ولشد ما خضنا الخطوب ولم نردْ إلا العلاء وجرت بوادينا دماء¹

ثم أشار إلى ما حصل من انحراف النساء؛ وما صار من التبرج؛ ونبذ العفاف، ثم

ينتقل إلى دعاوى العلمانية ونبذ الشريعة الإسلامية فيقول:

قالوا: دواءً قضاتنا قانونٌ با ريز وقانونُ الإله هو الدُّواء
سُسنا به الأقوامُ فانتظمت لنا في الشرق والغرب العدالة والدَّهاء
لا تخرج الغبراء مثل محمد أو مثل شرع آثرته به السماء²

ثم تطرق لداء الوساطة فقال:

طغت الوساطة في الوظائف ويح من لم يدر أين الجاه أو أين الثراء³

وكثيرا ما أشاد الخضر باللغة العربية، وبين فضلها، وأبرز مزاياها، وكم أسى على
مسلك بعض العرب في الحاق أبنائهم بمدارس أجنبية بل والتباهي بذلك، حتى يزيد الطين
بلة ويزداد ضعفها وطمس معالمها، ويرى أن هذا هو الداء العضال فيقول⁴:

ضل قوم سلكوا في حفظها سببا أوهن من حبل القمر
ألقيت في نطق قومي أحرفا من لغى أخرى فأضناها الخدر
بعض من لم يفقهوا أسرارها قذفوها بمسوات مستمر
فروا منها لـوا إذا وإذا جف طبع المرء لم تغن النذر
مازكا تفاح لبنان على حسك السعدان في ذوق مذر
واستوى في نظر الأعشى ضحى زهر روض وهشيم المحتظر

¹ / محمد الخضر حسين: "ديوان خواطر الحياة"، مصدر سابق، ص 13، 14.

² / المصدر السابق، ص 15.

³ / المصدر نفسه، ص 15.

⁴ / المصدر نفسه، ص 99.

المبحث الثالث: خلق الشيخ في الإصلاح

اتسم محمد الخضر حسين بأدب رفيع وبراعة في الجدل تكشف عن عقل متمرس في ميدان البحث والمناظرة مع أنه عاش في وقت شاعت فيه الردود والمعارك الفكرية والأدبية التي كانت في أغلبها تنجح إلى المسابرة والمهاترة؛ والإقذاع¹، وفيما يلي بسط لتلك الآداب التي كان الشيخ الخضر يأخذ بها في رؤاه الإصلاحية وردوده على المخالفين:

المطلب الأول: مقابلة الإساءة بالإحسان ونزاهة القلم

أولاً: مقابلة الإساءة بالإحسان

كان الشيخ الخضر ملتزماً بأدب الرد والمناقشة؛ من حيث الترفع عن السب والشتم؛ ولزوم الرفق واللين، ولا يمنع من لينه ورفقه أن يشتد أحياناً؛ فيقسو على المردود عليه بحسب ما يليق بالمقام دون أن يخرج ذلك عن طوره؛ أو يلقي به في وهدة الظلم والسباب، والذي يحمله على ذلك اشتداد غيرته الإسلامية الصادقة ورغبته في الانتصار للحق².

فالشيخ الخضر يعرف أقدار الرجال؛ وينزلهم منازلهم حتى لو بدرت منهم إساءات أو تجريح في حقه، ومن الأمثلة على ذلك علاقته بالشيخ العلامة محمد رشيد رضا التي لم تكن جيدة، إلا أن الشيخ الخضر دفع بالتي هي أحسن ولم يسارع إلى إذكاء جذوة الخلاف. فبعد أن نقد الشيخ رشيد رضا الشيخ الخضر بعدم ذكر الشيخ المراغي وابتعاد مجلة نور الإسلام التي تصدر عن الأزهر عن السياسة أجابه الشيخ الخضر بقوله: «حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة (المنار) الغراء.

السلام عليكم ورحمة الله

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 476.

² / المرجع السابق، ص 511.

أما بعد:

فقد قرأت ما كتبتموه في الجزء الصادر في ربيع الأول من مجلتكم الزاهرة تقریظاً ونقداً لمجلة (نور الإسلام) فأشكركم على النقد بمقدار ما أشكركم على التقریظ، وإنا لنعلم أن مجلة كمجلة (نور الإسلام) تراقبها طوائف تختلف مذاهبها وتتفاوت أنظارها وتتبادل أغراضها؛ ليس في استطاعة القائمين بها أن يخرجوها على ما يوافق رغبة الطوائف بأجمعها حتى لا تلاقي إلا رضاء عنها وتقریظاً¹

ثم بين أنه على يقين بأن مجلة (نور الإسلام) ستواجه النقد وأنه ربما كان بعضها صادراً عن حسن نية وسلامة قصد وإذا كان مصيباً قبل؛ حرصاً على أن يكون العلم صلة تعارف وإئتلاف.

ثم يخلص من ذلك إلى قوله: «فلا عتب علينا إذا كنا قد قرأنا في تقریظكم كلمات معدودة ألقیتموها بقصد خدمة الحقيقة والتاريخ فلم تقع الموقع الذي قصدتم إليه؛ فكانت وجهة نظرنا فيها غير وجهة نظركم وشعرنا بأن الحقيقة والتاريخ لا يسمحان لنا بالسكوت عنها وفضيلتكم من أول الداعين إلى إثارهما على كل ما يقضي الأدب الجميل برعايته»².

ويواصل الشيخ الخضر خطابه بالرد على كل القضايا التي أثارها صاحب المنار بأسلوب واضح؛ وحجج منطقية دون تحامل أو إثارة؛ فيبدو وكأنه يتحاشى قيام خصومة بينه وبين صاحبه الشيخ رشيد رضا؛ حيث أوضح سبب عدم ذكره اسم الشيخ المراغي وأن ذلك لا يعني شيئاً؛ حيث لم يذكر اسم الشيخين: أبي الفضل الجيزاوي وعبد الرحمن قراءة، وقد سبقا المراغي في ذلك... وهذا العمل بالنظر إلى كونه الأساس الذي يقام عليه المشروع عمل لا يستهان به ومع ذلك لم يثر مريدو الشيخين كما ثار الشيخ رشيد³.

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 502.

² / المرجع السابق، ص 503.

³ / المرجع نفسه، ص 504.

ثم يختم بقوله "هذا وطننا في الأستاذ أنه ينقد في إخلاص ويتلقى الجواب في سكينه وإنصاف؛ وسلام عليك يوم تفرظ؛ ويوم تنقد ويوم تكون للحق ولياً".¹

فهذا مثال رائع يصور ما كان عليه الشيخ الخضر من مقابلة الإساءة بالإحسان، ومن ترك الانتصار للنفس، وذلك نابع من أدبه المعروف ومن تقديره لمكانة الشيخ العلامة محمد رشيد رضا واعترافه بفضله وسابقته وجهوده الإصلاحية.²

كما يحصل أحياناً من بعض من يتحاور معهم في قضية أو مسألة أن يتجاوزوا حدود البحث إلى التجريح؛ فما يكون من الشيخ الخضر إلا أن يقابل تلك الإساءات بانسراح الصدر ومقابلة تلك الإساءات بالإحسان، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في رده المعنون ب: (قصة أيوب عليه السلام ونقض آراء حديثة في تفسيرها) حيث جاء في الرد الثاني المنشور في (مجلة البداية الإسلامية) قول صاحب المقال في رده على الشيخ الخضر " اللهم إنك تعلم ما في نفسي؛ وتعلم ما في نفس الكاتب -يعني الشيخ الخضر- فأني أكل أمر جزائه إليك؛ فأنت العليم بذات الصدور"³.

قال الشيخ الخضر معلقاً على ذلك: "دعوة صالحة نرجو من الله قبولها ونسأل الله -تعالى- أن يهدي صاحب المقال إلى الطريقة المرضية في تفسير كتابه المجيد"⁴.

ثانياً: نزاهة القلم

عرف الشيخ الخضر بطهارة منطقه ونزاهة قلمه؛ وأشاد به في هذه الناحية أكثر من ترجم له أو كتب عنه أو تناول دراسته، حيث يقول عنه الدكتور أحمد الشرباصي في معرض حديث له عن كتابه (رسائل الإصلاح): «ولعل بض القراء الذين لا ينسون التاريخ

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 506.

² / المرجع السابق، ص 511.

³ / محمد الخضر حسين، بلاغة القرآن، الموسوعة، مجلد 2، مصدر سابق، ص 210.

⁴ / المصدر السابق، ص 210، 211.

يذكرون للشيخ الخضر حسين أنه نصب نفسه في أحيان كثيرة مدافعا عن الدين الإسلامي مجاهدا أولئك الذين حاولوا في خبث ودهاء أن يقوضوا دعائم الشريعة المحمدية والله يتم نوره ولوكره الكافرون؛ فلم يتخذ طريقة السب والشتم والمناداة بالويل والثبور والإسراف في الغضب والثورة وسيلة إلى أداء واجبه نحو ربه ونبيه، بل تناول قلمه الرزين العفيف ا محكم الذي خط به كتابه (القياس في اللغة العربية) ذلك الكتاب الذي يعد آية بينة على الدراسة اللغوية الصحيحة الأصول المسددة الخطى ؛ الطيبة الثمرات؛ فكتب بهذا القلم ردوده ودفاعه عن الإسلام؛ وأظهر تلك الردود في كتب كثيرة شَرِّقت وغرّبت، وكان من جميل عمله ونبل خلقه أنه في مجادلته أو نقده يورد عبارة المنقود بنصها ثم يَكْز عليها بالهدم والتفنيد دون أن يستعمل كلمة نابية أو تصدر عنه عبارة جافية¹.

وقد تحدث هو نفسه عن الأدب الجميل قائلا: "كبير الهمة في العلم يريد أن يكون النفع بعلمه أشمل وما يدرك به هذا الغرض احترامه لآراء أهل العلم، ولا نعني باحترامها أخذها بالقبول والتسليم على أي حال وإنما نريد نقدها بتثبت وعرضها على قانون البحث ثم الفصل فيها من غير تطاول عليها؛ ولا انحراف عن سبيل الأدب في تفنيدها، والفطر السليمة؛ والنفوس الزاكية لا تجد من الإقبال على حديث من يستخفه الغرور بما عنده مثلما تجد من الإقبال على حديث من أحسن الدرس أدبه وهذب الأدب منطقه"².

المطلب الثاني: الأمانة والإنصاف والإخلاص

أولا: الأمانة العلمية

قرر الشيخ الخضر هذا المعنى في مقالة له عنوانها "الأمانة في العلم قائلا: "... أن فلاح الأمة في صلاح أعمالها وأن صلاح أعمالها في صحة علومها وصحة علومها في أن يكون رجالها أمناء فيما يروون أو يصفون؛ فمن تحدث في العلم بغير أمانة فقد مس

¹ / محمد الخضر حسين، رسائل الإصلاح، الموسوعة، مجلد5، مصدر سابق، ص496.

² / المصدر السابق، ص166، 167.

العلم بقرحة ووضع في سبيل فلاح الأمة حجر عثرة".¹

ويقول أيضا: "وإذا أبديت في العلم رأياً ثم أراك الدليل القاطع أو الراجح أن الحق في غير ما أبديت فمقتضى الأمانة أن تصدع بما استبان لك أنه الحق ولا يمنعك من الجهر به أن تُنسب إلى سوء النظر فيما رأيته سالفاً؛ فما أنت إلا بشر؛ وما كان لبشر أن يبصر نفسه من الخطأ ويدعي أنه لم يقل ولن يقول في حياته إلا صواباً، والأمانة هي التي كانت تحمل كبار أهل العلم على أن يعلنوا في الناس رجوعهم عن كثير من آراء علمية؛ أو اجتهادات دينية تبينوا أنهم لم يقولوا فيها قولاً سديداً".²

ثم يقرر أن هذه الفضيلة موجودة في الأئمة المقتدى بهم كأبي حنيفة ومالك والشافعي؛ وأحمد بن حنبل ويذكر بعد ذلك نماذج على الرجوع إلى الحق بعد أن تبين.³

ولئن كان يقرُّ ذلك الأدب العظيم في كتاباته ومحاضراته فإنه كان يتمثله في ردوده ومنازلاته؛ حيث سارت على هذا النحو؛ فلقد كان يراعى الأمانة في ذلك حق رعايتها ومن أعظم مظاهر الأمانة عنده التثبت؛ فلقد كان يراعي في ردوده الحقائق الثابتة والأدلة الصريحة الواضحة التي تقوم على الصدق؛ واليقين على مجرد الأوهام والظنون، وهذا ما شهد له به خصومه ولم يوجد منهم من يرميه بقلة التثبت.

ويتجلى ذلك في كثير من المواطن، فهو لا يرد على كاتب أو طائفة إلا بعد أن يطلع بنفسه على آرائهما، حتى لو توفرت لديه شهادات من كبار العلماء، فقد وردته رسائل كثيرة تدعوه للكتابة عن طائفة القاديانية وخطرها البالغ، ولكنه لم يشأ الكتابة عنها إلا بعد أن يطلع بنفسه على مؤلفات أبناءها التي كتبوها بأنفسهم عن أنفسهم، فما هو يقول: "كثيراً ما وردتنا رسائل من البلاد العربية وغيرها كأمریکا، يسأل كاتبوها عن أصل

¹/ المصدر نفسه، ص 78، 80.

²/ محمد الخضر حسين، رسائل الإصلاح، الموسوعة، مجلد 5، مصدر سابق، ص 86.

³/ المصدر السابق، ص 86، 89.

هذه النحلة ومبلغ صلتها بالإسلام... ووردتنا رسائل أخرى مطوية على ما يصرّح به دعاة هذه النحلة من الآراء، ويقترح مرسلوها نقد هذه الآراء وتحذير المسلمين من الوقوع في مهالكها، ولم نشأ التعرض للكتابة في شأنها قبل اليوم؛ إذ لم يكن لدينا من كتب أصحابها ما نطلع به على أساسها ونعرف منه حال واضعها.... وقد انساق إلينا اليوم من كتب مبتدعها غلام أحمد وبعض دعائها ما جعلنا على بينة من أمرها، وما نحن ألاء نضع أمام حضرات القراء فصولاً فيما تقوم عليه هذه النحلة من المزاعم الخاطئة، ونلقي عليهم كلمات في نشأة واضعها، ليكونوا على بصيرة من أنها دعوى زائغة، ولا يغيب عنهم أن دعواتها الذين يجوسون خلال ديار الإسلام إنما يثيرون في نفوس شباننا فتنة¹.

وللأسف نجد اليوم كثيرا من الباحثين لا يكلفون أنفسهم مطالعة كتب يوجهون إليها سهام النقد اللاذع لمجرد كلمة سمعوها أو جملة قرأوها عن الكتاب أو صاحبه.

ومن الأمثلة على تثبته في ذلك أنه اختار لنفسه طريقة في مناقشة ما يبدو له جديرا بالمناقشة فينقل عبارات المردود عليه بأعيانها؛ ليسير كما يقول هو والقارئ في النقد جنبا إلى جنب ولا يظلم صاحب المقال ولا يظلم الحق والعلم، يقول في رده على طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي): «وقد ارتأيت ألا أنقد فقرة أو فقرات إلا بعد أن أنقلها بحروفها وأحكيها كما صدرت من منشئها»².

ثانيا: الإنصاف

لا يتعرض الامام محمد الخضر للأمر الشخصية، فالنقد عنده منصب على الأفكار، ومما يشهد له بذلك ما كان يتبعه منها في ذكر الأسماء في ردوده، فهو في الأغلب لا يذكر اسم المردود عليه كاتبا أو مؤلفا أو محاضرا، وإنما يكتفي بقوله: "قال

¹ / محمد الخضر حسين: "القاديانية والبهائية"، الموسوعة، المجلد 09، مصدر سابق، ص 08، 09.

² / محمد الخضر حسين: "نقض كتاب في الشعر الجاهلي"، الموسوعة، مجلد 8، مصدر سابق، ص 10.

المؤلف" وهذا أكثر ما يقوله خصوصاً في ردوده على أصحاب الكتب¹.

ومن علامات إنصافه إحسانه الظن بالمخالفين خصوصاً من أهل العلم ممن لهم فضل وسابقة؛ أو من لم يصدر منهم شيئاً يخالف الشريعة من قبل حتى ولو كان بينه وبينهم خلاف حول بعض المسائل، ومن الأمثلة على ذلك صنيعة مع كتاب (الإسلام وأصول الحكم) فقد كان يحسن الظن بمؤلفه؛ إذ كان الشيخ علي عبد الرازق معدوداً قبل كتابه الأنف الذكر في زمرة العلماء والقضاة، فلما خرج كتابه المذكور لم يدر في ذهن الشيخ الخضر أنه مشتمل على الباطل والزيف؛ لذا كان يسعى جاهداً لنشره، ولما بدأ بقراءته لم يبادر إلى إساءة الظن؛ بل كان محسناً الظن بالكتاب وبصاحبه، حتى تبين له ما تبين مما يرمي إليه الكتاب، يقول الشيخ الخضر في مقدمة كتابه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم):

"وقع في يدي كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ علي عبد الرازق فأخذت أقرؤه قراءة من يتغاضى عن صغائر الهفوات ويدراً تزييف الأقوال بالشبهات، وكنت أمر في صحائفه الأولى على كلمات ترمز إلى غير هدى فأقول: إن في اللغة كناية ومجازاً ومعميات وألغازاً؛ ولعلها شغفته حباً حتى تخطى بها المقامات الأدبية إلى المباحث العلمية. وما نشبت أن جعلت لمعاني الجامعة عن سواء السبيل تبرح عن خفاء، وتناديها قوانين المنطق فلا تعباً بالنداء، وكنت -بالرغم من كثرة بوارحها- أصبر نفسي على حسن الظن بمصنفها وأرجو أن يكون الغرض الذي جاهد في سبيله عشر سنين حكمة بالغة وإن خانته النظر فأخطأ مقدماتها الصادقة.

وما برحت أنتقل من حقيقة وضاعة ينكرها إلى مزية مجاهد خطير يكتمها حتى أشرفت على خاتمته وبرزت نتائجه وهي أشبه بمقدماته من الماء بالماء أو الغراب بالغراب"².

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص552.

² / محمد الخضر حسين، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، الموسوعة، مجلد9، مصدر سابق، ص08.

وعلى خلاف ذلك مع طه حسين؛ فإن الشيخ الخضر كان عالماً بمنهجه قبل رده عليه؛ فلم يكن إحسانه الظن به كإحسانه الظن بعلي عبد الرازق؛ لذا تراه يقول في مقدمة كتابه (نتقض كتاب في الشعر الجاهلي): "وقع تحت نظري هذا الكتاب؛ وكنت على خبرة من حذق مؤلفه في فن التهكم ولو بالقمر إذا اتسق-والتشكيك-ولو في مطلع الشمس الضاربة بأشعتها في كل واد فأخذت أقرؤه بنظر يزيح القشر عن لبابه؛ وينفذ من صريح اللفظ إلى لحن خطابه؛ وما نفضت يدي من مطالعة فصوله حتى رأيتها شديدة الحاجة إلى قلم ينبه على علاتها ويرد كل بضاعة على مستحقيها، وما هو إلا أن ندبت القلم لقضاء هذا المأرب وسداد هذا العوز فلم يتعاص علي"¹.

من أمارات عدله وإنصافه؛ أنه كثيرا ما يؤيد أو يستشهد أو يثني على كلام لأحد المخالفين له في المنهج، أو الدين إذا كان موافقا للحق في أي شأن من الشؤون حتى ولو كان ممن يخالفونه في الملة؛ كالنصارى؛ وبعض المستشرقين.

ومن الأمثلة على ذلك إنصافه جورجى زيدان وقبوله الحق منه؛ فمن المعلوم أن جورجى زيدان مؤلف وباحث نصراني له أبحاث وكتب في اللغة والأدب والتاريخ والأديان وغيرها، والشيخ الخضر يخالفه في أصل الدين؛ ويخالفه في بعض ما ذهب إليه في بعض أبحاثه، ولكنه استدل بكلامه، ومن ذلك ما جاء في معرض رده على طه حسين في كتابه (الشعر الجاهلي) قائلا: "يبخس المؤلف قيمة الشعر الجاهلي ويريد أن يجعله مثال الجهل والغباوة والخشونة وهذا جورجى زيدان وهو عربي لا يقل في تذوق الشعر عن هذا المؤلف قد عرف كيف يستدل بهذا الشعر على أن العرب لم يكونوا أصحاب جهالة وهمجية"².

وقد أيدته في بعض آرائه، كما في قوله: "وقال جورجى زيدان: (إن العرب أصبحوا بعد

¹ / محمد الخضر حسين، نقض كتاب في الشعر الجاهلي، الموسوعة، مجلد8، مصدر سابق، ص10.

² / المصدر السابق، ص78.

الإسلام غير ما كانوا عليه قبله كانوا قبائل مشتتة مبعثرة؛ فأصبحوا أمة واحدة بقلب رجل واحد.. وذكر أسباباً أخرى من جملتها: اعتقادهم بالقضاء والقدر وعدل المسلمين ورفقهم وزهدهم، ثم قال: (وكان لتلك المناقب تأثير عظيم) ومن هذا القبيل التسوية بين طبقات الناس رفيعهم ووضيعهم وعطف على هذا استبقاء الناس على أحوالهم، وقال: (كان العرب إذا فتحوا بلداً أقروا أهله على ما كانوا عليه من قبله، لا يتعرضون لهم في شيء من دينهم أو معاملاتهم، أو أحكامهم المدنية أو القضائية أو سائر أحوالهم".¹

وقل مثل ذلك في موقفه مع المستشرقين مثل إدوارد براونلش؛ حيث نقل عنه؛ وأيده في ردوده على مرجليوث، كما نقل عن تشارلس ليال وأيده في ردوده على مرجليوث.²

ثالثاً: إخلاص النية

سارت ردود محمد الخضر على المخالفين من خلال هذا المعنى؛ إذ لم يكن يكتب الردود إرضاءً لأحد أو طمعاً في جاه أو مال؛ أو منصب، وإنما كان يكتبها؛ حسبة لله وبحثاً عن الحقيقة؛ وإعادة للحق إلى نصابه، ودفاعاً عن الإسلام، ولا أدل على ذلك من كونه رجلاً غريباً في مصر وحيداً ليس له أشياغ، أو أقارب، ثم تراه يناطح أساطين الفكر ومن لهم قيمة ووجاهة؛ كالشيخ علي عبد الرازق والدكتور طه حسين والشيخ محمود شلتوت؛ والأستاذ محمد فريد وجدي، والأستاذ عبد المتعال الصعيدي.³

كما ضحى بعلاقته الحميمة مع أسرة عبد الرازق في سبيل إحقاق الحق، ويروي الشيخ محب الدين الخطيب صديق الشيخ الخضر؛ حيث يقول: «كان السيد محمد الخضر صديقاً حميماً لآل عبد الرازق ويزورهم ويسر بلقائهم، فلما كاد الكتاب ينتهي طبعه وكان لا يعرف مذهب مؤلفه فيه طلبوا منه أن يمددهم بعناوين كبار العالم العربي

¹ / محمد الخضر حسين، نقض كتاب في الشعر الجاهلي، الموسوعة، مجلد 8، مصدر سابق، ص 169.

² / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 458.

³ / المرجع السابق، ص 477.

والإسلامي؛ ليهدوا الكتاب إليهم، فطلب الشيخ هذه العناوين مني وكتبت له بها قائمة طويلة ثم صدر الكتاب وأهدوا نسخة منه إلى الشيخ؛ ونسخة أخرى لمجلة (الزهراء) التي كنت أصدرها؛ فراعنا من الكتاب أنه ينكر كون الإسلام ديناً حكماً، فانتقدته أنا في (مجلة الزهراء) وكتب الشيخ علي مقالة افتتاحية في جريدة (السياسة) يجيب بها على نقدي وتفرغ فقيدينا لنقد الكتاب فقرة فقرة وفي أقرب وقت صدر كتاب (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) وفي شهر واحد نفذت طبعته؛ لشدة الإقبال عليها"¹.

يقرُّ الشيخ الخضر حسين هذا المعنى في مقالة له عنوانها (فضيلة الإخلاص) قائلاً: "أن الإخلاص يرفع شأن الأعمال حتى تكون في مراقي الفلاح وأن الإخلاص الذي يقوم على الإيمان الصادق والتهديب الديني يسمو سلطانه على كل سلطان ويبلغ أن يكون مبدأ راسخاً تصدر عنه الأعمال الصالحة بانتظام ويقرر أن النفس التي تتحرر من رق الأهواء؛ ولا تسير إلا على ما بمليه عليها الإخلاص هي النفس المطمئنة بالإيمان المؤدبة بحكمة الدين ومواعظه الحسنة... فالإخلاص يردع قلم الكاتب عن أن يقلب الحقائق"².

¹ / محمد الخضر حسين، محمد الخضر حسين بأقلام نخبة اهل الفكر، الموسوعة، مج 14، مصدر سابق، ص57.

² / محمد الخضر حسين، رسائل الإصلاح، الموسوعة، مج 5، مصدر سابق، ص78، 80.

المبحث الرابع: الأساليب المنهجية للشيخ في الإصلاح

المطلب الأول: سمات منهجه الإصلاحية

الملاحظ للمسائل التي عالجها محمد الخضر حسين، يجد أن منظومته الإصلاحية سارت وفق عمل ممنهج يمكن اجمال مميزاته فيما يلي:

• الشمولية في الإصلاح

تميّز المشروع الإصلاحية عند الشيخ محمد الخضر حسين بالشمولية، فقد فهم الرجل شمولية الدعوة إلى الإصلاح - بمفهومها القرآني الواسع - وعدم الاقتصار على نوع من الإصلاح بعينه دون آخر، إذ جاء منهجه شاملا لكل المشاكل الاجتماعية والثقافية والدينية التي تتخبط فيها المجتمعات العربية.

كما امتدت آثاره لتشمل نوع المخاطب وجنسه وشكله فالإسلام موجه إلى الإنسان المسلم، مطلق الإنسان سواء كان رجل أم امرأة، أبيض أم أسود، فردا أم جماعة فالمعيار في الشمول هو الانتماء إلى الإسلام.

• الواقعية

آمن محمد الخضر بكون المجتمع الإسلامي مجتمعا إنسانيا، ولا يوجد في تاريخ المجتمعات البشرية مجتمع خلا من انحرافات، ولم توجد فيه مخالقات، يقول الامام: "وليس على وجه المعمورة اليوم أمة استوفت خصال الكمال وبلغت في رقيها المدني أن يفتح الناقد الألمعي فيها عينه فلا يرى الا أعمالا مرضية، أو عادات مقبولة فإذا وجد في الأفراد من يفضل ببراءته من العيوب جملة، فإن الأمم إنما تفضل بغلبة خيرها على

شرها، ورجحان محامدها على مدامها، وإذا وجد في الافراد من يأذن لك أساتذة التربية في أن تقتدي بسيرته على الاطلاق، فليس في الأمم أمة يقول الرجل الحكيم لشعبه الناهض خض خوضها في كل واد، وشابها مشابهة الغراب للغراب، هذه حقيقة قد تغيب عن أذهان فئة من الشعوب الآخذة في النهوض".¹

فقد كانت نظرتة معتدلة للمجتمع الاسلامي تراعي التركيبة الإنسانية والطبيعة البشرية، وفي مقابل ذلك جاهد من أجل الوصول بالمجتمع الاسلامي الى المستوى اللائق في الالتزام بتعاليم الإسلام.

كما ترى الواقعية عند مناقشته الجديد والقديم؛ حيث يرى أن من الخطل الاعتقاد أن كل جديد حق أو أن كل قديم يشير إلى التخلف والباطل، وترى الواقعية في تفريقه بين حقائق الإسلام؛ وأخطاء المنتسبين إليه؛ فلا هو يسوغ تلك الأخطاء؛ ولا هو أيضا يوافق من يلصقها بالإسلام.

وترى الواقعية -كذلك- في مسألة الشرق والغرب وأن ما عند الغرب لا يؤخذ جملة؛ ولا يترك جملة؛ وإنما يؤخذ النافع؛ ويترك الضار وأن الغرب امتاز بميزات وسبق في مجالات، ولكن ذلك لا يعني صحة كل ما عنده.²

ومن مظاهر تلك الواقعية أنه لم يكن يجنح إلى الغلو أو المبالغة أو التعميم في الحكم؛ قصد مخالفة الخصم أو تخطئته والزراية عليه، بل إن الاعتدال سمّة ردوده وإنه ليوافق خصمه إذا أصاب دون أن تكون تلك الموافقة ذريعة إلى تأييد ما يرمي إليه من أغراض باطلة.³

• أولوية الإصلاح الديني قبل غيره

¹ / محمد الخضر حسين: "رسائل الإصلاح"، الموسوعة، المجلد 05، مصدر سابق، ص 243.

² / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 552.

³ / المرجع السابق، ص 551.

قدّم الشيخ فكراً إصلاحياً يقوم على إصلاح الفرد أولاً بتربيته على العقيدة السليمة والأخلاق القويمة، ومن ثمّ ينشأ المجتمع الفاضل النبيل على أسس صحيحة، وهذا لا يتنافى مع شمولية الإصلاح، ففي بعض الأحيان يتم التركيز على إصلاح جانب معين حصل فيه خلل واضح أولى من غيره.

بناءً على ذلك، يرى الشيخ محمد الخضر حسين أن إصلاح العقائد الفاسدة ومحاربة البدع والخرافات والأفكار الهدامة التي ما فتئت تنتشر بين الحين والحين، يعتبر من أولويات الإصلاح والدفاع عن حياض الإسلام.

وقد دافع الشيخ عن الشريعة الإسلامية وأكد شموليتها لجميع مناحي الحياة وصلاحيتها لجميع الأزمنة وكافة الأمكنة، وكان ذلك في حقيقته دفاعاً عن الدين وإبطالاً لدعوى أعداء الإسلام في الخارج وأذئابهم في الداخل، الذين ادّعوا أن شريعة الإسلام لا تتناسب العصر الحديث، عصر العلم والمدنية كما يقولون، فقذف الشيخ في وجوههم بالبراهين القاطعة والأدلة الدامغة على مرونة هذه الشريعة ومواكبتها لكل عصر وصلاحيتها لكل مصر.

• مخالطة الناس لمعرفة الأمراض الاجتماعية

يؤكد محمد الخضر حسين أن نجاح عملية الإصلاح مرهون بالمصلح في حد ذاته فعلى المصلح أو من يهتم بالمصلحة العامة، أن يختلط بجميع شرائح المجتمع، حتى يتمكن من جس الجسم الاجتماعي، كي يتسنى له وصف الدواء اللازم لكل داء حتى تتم معالجته.

• الوسطية

كانت الوسطية في الإصلاح والتجديد السمة الغالبة في فكر الخضر وكتاباتة، والمقصود بالوسطية في الإصلاح المحافظة على الثوابت ومواكبة متغيرات العصر ومقتضيات الحاضر، حيث دعا إلى الاهتمام بقضايا العصر والتفتح على الحضارة بدون

التفريط في مقوماتنا الأساسية، وهي دعوة شعارها "لا إفراط في الحداثة، ولا تفريط في التراث".

وهذا ما كان الشيخ حريصا على تأكيده منذ البداية، قائلا: "... وسيرى القارئ الألمعي أنني قد طرقت في هذه الرسائل نواحي هي في حاجة إلى أن تُبحث بفكر لا يتعصب لقديم ولا يفتتن بجديد، يعتمد الرأي حيث يثبته الدليل، ويتقبل الحكم متى لاحت بجانبه حكمة، ويثق بالرواية بعد أن يسلمها النقد إلى صدق، وقد بذلت جهدي في أن أسلك بالبحث هذا السبيل، ولعلي سرت فيه شوطا غير قصير، فإن لم أبلغ فيه غاية بعيدة فحسبي أنني كنت قد تبينت رشده ووليت وجهي شطره، وأنست في أقلام إخواني الذين يجاهدون في الإصلاح أثره¹".

كما يعيد التأكيد مرة أخرى على ضرورة نبذ التقليد الأعمى للقديم الجامد والافتتان الأعمى أيضا بالجديد المنفلت فيقول: "ولو يبق لبعض الناشئين أن نظروا في تلك الكتب المنطوية على زيغ أو مجون ولم ينتبهوا لما دُسّ في عباراتها من سموم، ثم أقبلوا على هذه الرسائل: نابذين تقليدهم القديم، صارفين قلوبهم عن إكبار أولئك الزائغين أو الماجنين، لما كان بعيدا أن يعودوا إلى إيمان نقي وأدب سني، فينفعوا الأمة بجدهم وكمال رجولتهم ويتمتعوا بالحياة الطيبة المطمئنة في أولاهم وآخرتهم²".

• التدرج

كانت نظرية الشيخ الإصلاحية قائمة على أساس التدرج من إصلاح الفرد إلى إصلاح المجتمع فأصلاح الأمة، ومن ثمّ كان تركيزه منصبا على الأخلاق وأهميتها في بناء الشخصية المسلمة الصالحة النافعة لدينها ووطنها وأمتها، ولعل هذا هو سر حديثه

¹ / محمد الخضر حسين: "رسائل الإصلاح" الموسوعة، المجلد 05، مصدر سابق، ص 07.

² / المصدر السابق، ص 06، 07.

الكثير عن الإخلاص والأمانة والوفاء ... وغيرها من الصفات التي تبني - مع العقيدة الصحيحة - الفرد المسلم الصالح.

• الاستدلال بالتاريخ

إن الوعي بالتاريخ عند الخضر كان عاملاً مؤثراً في قراءة الواقع قراءة سليمة وفي توظيف الخبرة العملية في الكتابة، بحيث كان التاريخ الذي شهده الإمام وعاصر وقائعه وعاش أحداثه منطلقاً لمنظومته الإصلاحية.

وقد تأثر محمد الخضر بالأسلوب القرآني، فاشتد حرصه على أن يشفع كل معلومة يذكرها أو فكرة يوردها بموقف عملي واقعي من تراثنا الإسلامي العظيم، وقد أسعفته قراءته الجيدة لكتب التراث بسيل منهمر من مواقف أسلافنا العظام في شتى النواحي.

• تقسيم الموضوع إلى عناصر والترتيب المنطقي

اهتم الخضر اهتماماً فائقاً بقواعد البحث العلمي المتعارف عليها، والتي من أهمها الدقة الكاملة وحسن التقسيم والتبويب لجزئيات الموضوع، حيث تميزت موضوعات الخضر بالتقسيم العلمي وتنظيم الأفكار وترتيب المعالجة، وهذا ما يعطي القارئ الخلفية السليمة ويصل به في نهاية المطاف إلى الاقتناع المطلق والتسليم التام بالهدف الذي يسعى الكاتب إلى الوصول إليه¹.

• التحديد والتركيز

عني الإمام بتحديد المقصود من المقال عناية بالغة، وكان ينفي تعرضه لكلام ليس من صلب موضوعه، ولا من مقصده، ولا مما يتصور القارئ وجوده، فكان يضع الصياغة العلمية ويبين تحتها المقصود منها².

¹ / المرسي محمود شولج، مرجع سابق، ص 108.

² / المرجع السابق، ص 98.

وأول ما يلجأ إليه الخضر في مقارنة المسائل، هو الإعلان عن منهجه في معالجتها، كعادته في حصر تفكير القارئ والسامع في الفكرة التي يريد مناقشتها، فمن العبارات التي يقولها: "ولم أذهب في بسط القول وضرب الأمثلة مذهب من يسرف في مقام الإقتصاد، ويشغل سمعك بما يشبه الحديث المعاد ومقالنا هذا يبحث في رواية المفردات الصحيحة والمعتلة... ولا يبحث عن رواية الأساليب والكلام في هذه المزايا كثير الشعاب... فلا أطيل في تعريف المجاز وذكر أقسامه"، وقد يلجأ إلى طرح يشرك فيها القارئ في المسألة التي يعالجها، ومن العبارات التي يستعملها "وقد يخطر على بالك... وجواب هذا"، وربما جال في خاطره... وجواب هذا "وقد يبدو لك... وجواب هذا"، وأما منهجه في مناقشة غيره فيبدأ فيه بتحديد أقوال هؤلاء كما ساقها أصحابها قولاً قولاً ثم يتبعها بالمناقشة¹.

• الاستقراء والاستنتاج

يعتمد الشيخ محمد الخضر حسين طرقاً علمية يصل من خلالها إلى إثبات ما يراه من الحق في القضايا المتنازع عليها، ولقد أخذ في سبيل الوصول إلى تلك الغاية بطريقة تجمع عدة مناهج؛ وتأتي على رأسها: الطريقة الاستقرائية التي تتطلب حصر كافة الجزئيات؛ والوقائع؛ وفحصها ثم إعطاء حكم عام عليها، والطريقة الاستنتاجية التي تعني تنظيم المعلومات المتوافرة في قالب معين يستخلص من خلاله النتائج الصحيحة.

ولقد جمع بين هاتين الطريقتين اللتين تتطلبان التجرد والتثبت والتعامل مع الواقع والاهتمام بالوقائع العامة المتجانسة لا الشاذة، ولا يعني ذلك أنه اقتصر في ردوده على هاتين الطريقتين بل أخذ بالمنهج الوصفي الذي يُعنى بدراسة الظواهر وتحليلها وكشف خصائصها وتأثيرها، والمنهج التاريخي الذي يبحث في وصف الأحداث ونشأة الأشياء وتطورها وتغييراتها؛ فجمع في ذلك بين عدة مناهج².

¹ / كمال مجيدي، مرجع سابق، ص 145.

² / محمد الحمد بن إبراهيم، مرجع سابق، ص 550.

• إهمال الباطل إذا لم يستفحل خطره ويتفاقم شره

كان منهج الشيخ أن لا يتناول بالنقد والتفنيد إلا ما ظهر خطره وتفاقم خطبه، فما هو يقول في رسالته عن البهائية: "كنا نود أن نصرف القلم عن نقل مثل هذا السخف، ونصون صحف الكتاب عن أن تحمل لقرائه شيئاً من الزيغ والإلحاد في آيات الله والاعتداء على علماء الإسلام الذين رفعوا منار الحق وأذاقوا بحججهم أعداء الإنسانية عذاباً أليماً، ولكن دعاة هذا المذهب قد استهووا فريقاً من أبناء المسلمين، وأصبحوا يدعون إلى مذهبهم في النوادي، ويتحدثون عنه في الصحف، وألّفوا كتباً تقع في أيدي بعض الشباب، فذلك ما اضطرنا إلى أن نبسط القول في بيان نحلّتهم وسرد أقوالهم حتى يكون المسلمون على بينة من أمرهم".¹

فالشيخ كان مضطراً للحديث عن هذه النحلة الضالة ولم يكن مندفعاً اندفاعاً غير محسوب لمهاجمتها وفضح أفكارها.

المطلب الثاني: منهج الخضر في الرد على المخالفين

تميزت ردود الشيخ محمد الخضر على خصومه بمميزات خاصة نجملها في الآتي:

• إحكام النقض وقوة الإبطال:

تميزت ردود الخضر بقوة الإبطال وهذا ما جعل لها مكانة بين الردود؛ حتى عند المخالفين المردود عليهم؛ إذ شهد له بذلك كثير منهم؛ بل إن بعض المردود عليهم لم تقم له قائمة بعد رد الشيخ عليه؛ بل تقبل ردّ الشيخ الخضر دون اعتراض، وقد يؤثر المردود عليه الصمت ويختار العافية كما كان من الشيخ علي عبد الرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) حيث لم يُعدّ طباعته؛ ولم يحاول الرد على الشيخ مرة أخرى.²

¹/محمد الخضر حسين: "القاديانية والبهائية"، الموسوعة، مج 09، مصدر سابق، ص75.

²/محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص556، 557.

يقول الدكتور محمد رجب البيومي رحمه الله عن معركة الشيخ الخضر مع علي عبدالرازق: "وقد ظل الأستاذ علي عبد الرازق ضائقا به - يعني رد الخضر حتى بعد ربع قرن من صدوره وانتهاء المعركة على نحو يرضي المخلصين فقد قرأت بالسنة الثامنة - على ما أذكر من مجلة (لواء الإسلام) كلمة للأستاذ علي عبدالرازق تنبئ عن غضبه الموقد على الأستاذ وتعييب طريقته في نقد الكتاب، ومحمل العيب في رأي الأستاذ عبد الرازق أن الأستاذ المخضر ينقل كل نص من نصوص الكتاب على حدة، ثم يفنده بالرأي والدليل وذلك أدعى إلى تمزيق الفصل الواحد وتشتيته".¹

ويرد الدكتور البيومي هذا الكلام بقوله: "ونحن نقول للأستاذ عبد الرازق: إنه قد ظلم الحق فيما قال؛ لأن هذه النصوص تأتي متوالية متعاقبة وقارئ النقد يستطيع أن يجمعها بسهولة لتكون كل ما جاء بالفصل الواحد من الكتاب، وهي بعد خير وأقوم من مسلك ناقد يُلخّص الموضوع من عنده؛ ثم يعقب عليه؛ إذ ربما فات من التلخيص شيء هام لا يعرفه القارئ المحايد، ولا ندري كيف يحافظ الخضر على نصوص الكتاب جميعها فلا يسقط منها شيئا ذا بال ثم يكون ذلك مطعناً يوجه إليه من ناقد نبيه؟"²

• الاطراد

يتسم أسلوب الخضر بالاتساق، والسير على نمط واحد من حيث القوة وطول النفس محافظة على روح الحوار؛ فلا تجد في ردوده تخاذلا أو ضعفا أو انقطاع نفس في أي من مواطن الرد سواء في أوله أو آخره أو وسطه كما أن قوة الرد لا تكمن في جزئية دون أخرى أو في مسألة دون غيرها، بل إن الرد ليسير سيرا منتسقا؛ متساوقا، كيف لا وهو الذي يؤكد في منازلته أن المزية ليست في تصور المنهج وإنما المزية في العمل به بجد

¹ / محمد الخضر حسين، الامام الخضر بأقلام نخبة من أهل الفكر، الموسوعة، مجلد14، مصدر سابق، ص175.

² / المصدر السابق، ص175، 176.

واستقامة؟¹.

بخلاف كثير من الردود التي يضطرب أصحابها فيها ولا تراها تسيير سيرا راشدا مطردا، وإنما تراها متباينة متفاوتة من حيث الاطراد؛ بحيث إذا طال البحث وقطع صاحبه فيه أشواطاً بدأ في التخاذل والضعف؛ فترى في أواخر ردوده ما لا تراه في أوائلها أو تجده في مناقشته لبعض المسائل أضعف منه في بعضها الآخر؛ فتلاحظ الارتفاع في بعضها والانحطاط في بعضها الآخر².

• التوجه إلى الأفكار دون الأشخاص:

ومما يشهد له بذلك ما كان عليه من منهج في نكر الأسماء في ردوده؛ ويتلخص ذلك في أنه في الأغلب لا يذكر اسم المردود عليه وإنما يكتبه بقوله: (قال المؤلف) وهذا أكثر ما يقوله خصوصا في ردوده على أصحاب الكتب المؤلفه ككتابي: (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) و(نقض كتاب في الشعر الجاهلي).

وربما تحمله على عدم ذكر اسم المردود عليه أسباب يأتي على رأسها اهتمامه بالفكرة أو الموضوع أو أنه لا يريد أن يُشهر الكاتب أو يُشهر به أو أنه يتحرى الدقة في نسبة ما قيل إلى المردود عليه؛ كما أنه إذا ذكر اسم المردود عليه ذكره إما باسمه مجردا دون تشهير أو سخرية به أو أن يذكره بوصف يلائمه أو أن يذكره مقروناً بلقبه العلمي، وهكذا كان منهجه في ذكر أسماء المردود عليهم مما يؤكد أن توجهه للأفكار دون الأشخاص كان منهجا مطردا يسيير عليه في ردوده³.

• التمهيص والتدقيق

¹ / محمد الخضر حسين، الإرث الفكري للإمام محمد الخضر، الموسوعة، مجلد13، مصدر سابق، ص376.

² / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص550.

³ / المرجع السابق، ص553-554.

الملاحظ لمناظرات محمد الخضر لمعاصريه في المسائل اللغوية خاصة، وفي المسائل المعرفية عامة، يخرج بنتيجة تتلخص في أن الشيخ محمد الخضر واحد من أولئك الذين يطالبون بالدليل، يقول في محاضرة يلقيها تحت عنوان: "نشأة علم البلاغة"، يراجع فيها بعض آراء معاصريه في هذه المسألة: "إننا أمة بحث واستدلال، لا نفتتن بزخرف الأقوال، ولا بمظاهر القائلين، ولا نقبل الآراء إلا أن تخرج في نور من الحجة مبين"¹.

ولم يكن مطالباً غيره بالدليل فقط، وإنما كان مناقشاً للأدلة التي يسوقها غيره، وعلى هذا المنحى كان يبطل النتائج التي يصل إليها الباحث متى رأى دليلاً واهياً، ففي كتابه "نقض كتاب في الشعر الجاهلي" يرد قول طه حسين الذي نسبه إلى أبي عمرو بن العلاء: "ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا"، يرى أن العبارة في كتاب الطبقات للجمحي هي: "ما لسان حمير وأقاصي اليمن لساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا"، وعلى هذا رأى أن طه حسين حوّل عبارة "ولا عربيتهم بعربيتنا" إلى عبارة "ولا لغتهم بلغتنا"، وهذا للمبالغة في الفصل بين اللغتين، وحذف عبارة "أقاصي اليمن" حتى لا يأخذ القارئ من أن لغة غير الأقاصي، ويقصد بها القبائل المجاورة للقبائل المضرية، ليس بين عربيتها وعربية مضر هذا الاختلاف"².

وفي معرض رده على الشيخ علي عبد الرازق في (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) بقوله: "إن البحث في أن الرسول -عليه الصلاة والسلام كان ملكاً أم لا بحث جديد في الإسلام."³

قال الشيخ الخضر معقّباً على ذلك: "وهذا لا يصح إلا إذا عني بالبحث نفي أن

¹ / محمد الخضر حسين: "الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية" الموسوعة، المجلد 07، مصدر سابق، ص 160، 161.

² / كمال مجيدي، مرجع سابق، ص 144.

³ / علي عبد الرازق، مرجع سابق، ص 87، 88.

يكون للرسول -عليه السلام- رئاسة سياسية؛ فإن البحث في ذلك على وجه الإنكار بحث مختلق في الإسلام، وأما كون الرسول ذا رئاسة سياسية فأمر تقرر بالكتاب والسنة المتواترة وتناوله المسلمون من قبل على وجه صريح واستقر للعلماء فيه رأي واضح¹

ثم فصل بعد ذلك الكلام على أدلة الكتاب والسنة في ذلك؛ وختم نقضه بقوله: «فاستخفاف المؤلف بذهاب الباحث إلى أن النبي لم يكن رسولاً ملكاً وقوله: إن ذلك ليس بدعاً في الدين ولا شذوذاً عن مذاهب المسلمين ما هو إلا افتيات على الإسلام، ومن ذهب إلى أن الرسول لم يكن مدبراً لشؤون السياسة فقد نبذ كتاب الله وراء ظهره وشاقق الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين»².

• رد البضاعة إلى أصحابها

من الأساليب التي يستعملها الخضر في هذا المجال رد البضاعة إلى أصحابها، مما يضعف من قيمة الخصم ويبيّن أن ما ذكره ليس من بنات أفكاره، ومن الأمثلة على ذلك قضية الشك في الشعر الجاهلي، حيث أثبت الخضر أن طه حسين قد أخذ نظريته من الدكتور مرجليوت الذي ادعى أن الشعر الجاهلي مزور ومصنوع³.

وذلك لما قال طه حسين: "وأول شيء أفجؤك به في هذا الحديث: هو أنني شككت في قيمة الشعر الجاهلي: وألححت في الشك أو قل ألح علي الشك؛ فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء إلا يكن يقينا؛ فهو قريب من اليقين ذلك أن الكثرة المطلقة ثما نسميه شعراً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء"⁴.

قال الشيخ الخضر في نقضه لهذا الكلام وإثبات أن المؤلف قد أخذ هذه النظرية من الدكتور مرجليوت: "كان الدكتور (مرجليوت) قد ادعى أن الشعر الجاهلي مزور ومصنوع؛

¹ / محمد الخضر حسين، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، الموسوعة، مجلد9، مصدر سابق، ص175.

² / محمد الخضر حسين، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، الموسوعة، مجلد9، مصدر سابق، ص176.

³ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص581.

⁴ / طه حسين، مرجع سابق، ص07.

وتعرض لهذا البحث في مجلة الجامعة الآسيوية الملكية سنة 1916م (ص397) وفي مادة (محمد) من (دائرة معارف الأديان والعقائد) وفي كتابه (محمد) المطبوع سنة 1905 (ص06)، وممن تصدى للرد عليه السر (تشارلس جيمس ليل) في مقدمة ترجمة المفضليات (المطبوعة سنة 1918 ثم عاد الدكتور (مرغليوث) وكتب في مجلة الجامعة الآسيوية الملكية الصادرة سنة 1925م مقالاً مسهباً أتى فيه على الشبه التي جرت إلى نظرية الشك في الشعر الجاهلي « فابتدأه بقوله : (بدأ المسلمون في حوالي نهاية العصر الأموي يدعون وجود شعر جاهلي عربي ولم يكتفوا بذلك حتى زعموا أنهم جمعوا الجزء الأعظم منه، وأنه بقوله: (أما الجواب عن الشعر الجاهلي : هل هو يرجع إلى عهد عتيق أو أنه إسلامي؟ فخي ما يسلك الإحجام عنه؛ لأن الأدلة الموجودة أمامنا موقّعة في حيرة...¹»

وقال الشيخ الخضر بعد ذلك : "أغار المؤلف على نظرية الشك في الشعر الجاهلي ، ولم يفترق عن (مرغليوث) إلا في تسليمه بأن هناك شعراً جاهلياً فأخذ أصل النظرية وأقوى الشبه التي استند إليها (مرغليوث)؛ وجعل يقول لك: (هو أني شككت في الشعر الجاهلي): ويداعبك بقوله: (ألححت في الشك أو قل: ألح علي الشك، والحديث في صدق وأمانة خير من هذه المداعبة".²

• مطالبة الخصم بأرضية لحسم الخلاف

يطلب محمد الخضر من الخصم أن يحتكم هو وإياه إلى قاعدة يُرجع إليها أو أرضية يُتّكأ عليها في حال الخلاف ؛ فيعرف بذلك حال الخصم وما يلائمه من الحوار والمناظرة والمحااجة.

¹ / محمد الخضر حسين، نقض كتاب في الشعر الجاهلي، الموسوعة، مجلد8، مصدر سابق، ص31.

² / المصدر السابق، ص31.

مثال ذلك أن طه حسين أنكر كل ما يُروى من الشعر الذي قيل في الجاهلية ممهداً للبعثة النبوية وكل ما يتصل به من الأخبار وزعم أن تلك الأشعار تروى لتقنع العامة بأن علماء العرب وكهانهم وأحبار اليهود ورهبان النصارى كانوا ينتظرون بعثة نبي عربي يخرج من قريش أو من مكة".¹

قال الشيخ الخضر في نقضه للكلام السابق: "كان لحماة حقائق الإسلام في المناظرة موقفان: موقفٌ مع المخالفين: وهؤلاء إنما كانوا يناضلونهم في أصول العقائد؛ ويحاكمونهم إلى النظر والحجج العقلية البحتة، وموقف مع موافقيهم في الأصول ومناظرة هؤلاء إنما تكون في ظل تلك الأصول؛ فتجري المناظرة في نظام وتنتهي في الغالب بسلام، وقد خرج في هذا العصر طائفة يقولون بأفواههم إنهم مسلمون بقلوبهم جاحدون بعقولهم؛ فإذا أنكروا رواية أو فرعاً يتصل بالدين لا تدري أتجاوزهم تحت ظل الأصول المقررة أم ترجع بهم إلى النظر الصرف وتعود بهم إلى البحث في الإيمان بالله وكتبه ورسوله".²

• إظهار تناقض الخصم:

وهذا من أعظم ما يبطل حجة الخصم؛ وقد كان الشيخ الخضر؛ لسعة اطلاعه؛ يأخذ بهذا الأسلوب فينسف به حجج الخصوم.

ومن الأمثلة على ذلك ما أظهره الشيخ الخضر من تناقض طه حسين واضطرابه في منهجه؛ فالشيخ الخضر يبين أن طه حسين يضطر إلى الشك في المتواتر من أخبار القرآن بحكم منهج (ديكارت) القائم على الشك ثم هو -في الوقت نفسه- يقبل كل رواية مريضة واهية يذكرها كتاب (الأغاني) كحق مُسلم يستند إليه في قضية الانتحال حتى اضطرت القارئ إلى الاعتقاد بأن المنهج الديكارتى لا يصلح فقط إلا حين يجابه الحقائق لا

¹ / طه حسين، مرجع سابق، ص 69.

² / محمد الخضر حسين، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، الموسوعة، مجلد 9، مصدر سابق، ص 233.

الأراجيف"1.

يقول طه حسين في معرض شكه في الشعر الجاهلي : "هم لم يُغَيِّرُوا في الأدب شيئاً وما كان لهم أن يغيروا فيه شيئاً وقد أخذوا أنفسهم بالاطمئنان إلى ما قال القدماء، وأغلقوا على أنفسهم في الأدب باب الاجتهاد كما أغلقه الفقهاء في الفقه والمتكلمون في الكلام"2.

قال الشيخ الخضر في نقضه لهذا الكلام: "...فلسنا من يدعي أن في مؤلفات الأدب تبييناً لكل شيء؛ أو يبرئها من أن تكبو في بعض المباحث أو تتطوي بعض رواياتها على دَخَل؛ على الرغم من قبضه على منهج (ديكارت) ونعيه الاطمئنان إلى ما يقوله القدماء فقد اطمأن في كثير من هذا النحو الجديد من البحث إلى ما يروييه صاحب (الأغاني) وغيره..."3.

• مناقشة الخصم في إخلاله بالأمانة العلمية: الأمانة العلمية من أهم مقومات

البحث؛ والشيخ الخضر كان يناقش خصومه في ذلك؛ فإذا رأى إخلالاً بالأمانة بيّن ذلك.

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في رده على علي عبد الرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) فقد أورد عبد الرازق أن حظ العلوم السياسية عند المسلمين بالنسبة لغيرها من العلوم أسوأ حظ؛ فبين الشيخ بطلان تلك الدعوى"4.

وكذلك بين إخلاله بالأمانة عندما قال -أي علي عبد الرازق-: "ولو وضعنا هذا الكتاب كله في بيان الضغط الملوكي الإسلامي على كل علم سياسي، وكل حركة سياسية أو نزعة سياسية لضاق هذا الكتاب وأضعافه عن استيعاب القول في ذلك؛ ثم لعجزنا عن

1/ محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص575.

2/ طه حسين، مرجع سابق، ص04.

3/ محمد الخضر حسين، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، الموسوعة، مجلد9، مصدر سابق، ص24.

4/ الصدر السابق، ص60، 67.

بيانه على وجه كامل"¹.

فرد عليه الشيخ الخضر بقوله: "اقتحم المؤلف في هذه العبارة شططا لا يقع فيه خبير بالتاريخ، عارف بقيمة الأمانة في العلم...طالع -أيها القارئ- كتب التاريخ كتابا كتابا؛ وقلبا إن شئت صحيفة صحيفة، فلا أحسبك تعثر على مثال يشهد بأن ملكا من ملوك الإسلام غضب لكتاب ألف في السياسة أو كره للناس أن يترجموا كتبنا في السياسة؛ أو عتف شخصاً ألف في السياسة أو أصدر إنذارا على التأليف في السياسة...ضغط بعض ملوك الإسلام على الفلسفة؛ كما قصصناه عن المتوكل العباسي والمنصور بن أبي عامر؛ لاعتقاد ضررها أو تقربا من قلوب العامة؛ ولا تكاد تعلم أن أحدا منهم اضطهد علم السياسة إلا ما كان من السلطان عبد الحميد الذي انتهى به الاستبداد والضغط على حرية الفكر إلى غاية لم يسبق لها نظير ومن ذلك المتناهي تعلم عبد الرحمن الكواكبي كيف يؤلف كتابي: (طبائع الاستبداد) و(جمعية أم القرى)"².

¹ / علي عبد الرازق، مرجع سابق، ص 67.

² / محمد الخضر حسين، محمد الخضر حسين، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، الموسوعة، مجلد 9، مصدر سابق، ص 98-99.

المبحث الخامس: الأساليب الأدبية للشيخ في الإصلاح

لا يمكن إنكار أهمية الأساليب الأدبية ومكانتها في عرض الأفكار، فهي تضفي على البحث إشراقاً وجمالاً وتشويقاً، وقد ظهر ذلك عند الشيخ محمد الخضر حسين، ولقد أقر الشيخ الخضر ذلك في كثير من أبحاثه قائلاً: " أن العمل على إنقاذ النفوس من وادي الغواية والإقبال بها على مطالع السعادة مسلك وعر لا يمر فيه على استقامة إلا من بلغ في صناعة البيان أمداً قصياً"¹.

كما يقول: "...وإذا اتخذ بعض الكتاب أو الخطباء أدب اللغة سلاحاً يقطعون به سبيل الخير والفلاح أفلا يجدر بدعاة الحق والفضيلة أن يسبقوا إلى تقلد هذا السلاح ويغوصوا في علم الأدب إلى غاية بعيدة ويعملوا لإعلاء شأن هذا العلم؛ حتى تخرج لنا المعاهد الدينية والمدارس العلمية رجالاً يوردون الحجج في أساليب سائغة ويزيحون عن الشبه والمغالطات ما تضعه على وجوهها من صبغة خادعة"².

المطلب الأول: جمال العرض

من أعظم ما يتجلى به جمال العرض عند الشيخ محمد الخضر حسين ما يلي:

أولاً: العناية باختيار عنوانات الردود:

عني الشيخ محمد الخضر عناية فائقة بعنوانات ردوده؛ فجاءت دقيقة معبرة موحية

¹ / محمد الخضر حسين، الدعوة إلى الإصلاح، الموسوعة، مجلد5، مصدر سابق، ص31.

² / المصدر السابق، ص68.

رصينة، فكل رد من ردوده له عنوانه الخاص الذي يليق به، مما تقتضيه الحال والمناسبة. ومما يشهد لذلك استعماله كلمة (نقض) في العنوان؛ فعندما أراد الرد على الشيخ علي عبد الرازق؛ والدكتور طه حسين سمى كتابيه: (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) و(نقض كتاب في الشعر الجاهلي).

والسبب في ذلك أن موقفه من هذين الكتابين كان موقف الرفض؛ حيث كان يرى أن الغرض الذي قام عليه هذان الكتابان باطل من أصله؛ فرام هدمه من أساسه، فاستعمل كلمة (نقض) التي تعيد الهدم؛ والإبطال لما جاء في الكتابين السابقين¹.

وليس مقصود الشيخ الخضر من قوة العنوانين الردّ على طه حسين وعلي عبد الرازق لذاتهما وإنما كان لموضوع الكتابين السابقين اللذين ناسبهما العنوان الذي اختاره في الرد عليهما، بدليل أنه رد على طه حسين وعلي عبد الرازق في أكثر من مناسبة دون أن يستخدم كلمة (نقض)، وذلك كما في رده على طه حسين الذي عنون له ب: (حقيقة ضمير الغائب في القرآن)" ورده الآخر عليه والمعنون ب: (إصلاح المعاهد الدينية والدكتور طه. وكما في رده على علي عبد الرازق المعنون ب: (العظمة)" ورده الآخر المعنون ب: "ملاحظات على مقال مولد النبي p"، وهكذا اختلف العنوان؛ نظرا لاختلاف المضمون على أن المردود عليه واحد؛ فأين كلمة (ملاحظات) من كلمة (نقض)².

وأحيانا يعنون بكلمة (تعقيب) كما في مقال: (تعقيب على حديث) الذي عقب به على مقالة للأستاذ علي زكي العرابي باشا وعنوانها (الشريعة الإسلامية والقانون المصري) وهو ردّ لطيف أثنى فيه على الكاتب في بعض الجوانب وناقشه في بعضها الآخر؛ لذا سماه تعقيباً؛ لأن المسائل التي ناقشها لا تمس أصل الدين فكان العنوان لطيفاً - كما ترى³.

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص516.

² / المرجع السابق، ص517.

³ / محمد الخضر حسين، هدى ونور، الموسوعة، مجلد12، مصدر سابق، ص96، 98.

وأحيانا يُعْتَوَّنُ للرد بكلمة (نقد) بحسب ما يلائم المقام كما في رده المَعْتَوَّنُ ب: نقد اقتراح ببعض الإصلاح في متن اللغة وقد رد به على أحمد أمين، وأحيانا يسميه بالرد كما في رده (حول تبسيط قواعد النحو والصرف والرد عليهما) وقد رد به على اللجنة المؤلفة من طه حسين؛ وأحمد أمين» وعلي الجارم وأبي بكر ابراهيم في مجمع اللغة العربية.¹

وأحيانا يعنون للرد باسم الكتاب المردود عليه فقط كما في رده على الشيخ حمود شلتوت (البجرة وشخصيات الرسول)، وكما في رده على محمد أحمد خلف الله (الفن القصصي في القرآن).

وأحيانا يُعْنُونُ للرد بعنوان مغاير لاسم الكتاب المردود عليه دون أن يذكره أو يذكر كلمة نقد أو نقض أو رد أو ملاحظة أو تعقيب؛ فيكون الرد مشتملا على قوة أو شدة وذلك كما في رده المعنون ب: (كتاب يهذي في تأويل القرآن المجيد) الذي رد به على محمد أبو زيد الدمنهوري في كتابه (البداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن)، ورده المعنون ب: (كتاب يلحد في آيات الله) الذي رد به على كتاب (امراتنا في الشريعة والمجتمع) للطاهر حداد.²

ثانيا: حسن الافتتاح

المدخل للموضوع هو باب الحكم عليه وسبب الإقبال على متابعته إلى نهايته، بل إن المدخل للموضوع هو عنوان صاحبه، فكاتب الموضوع إن كان مدخله إليه جيدا كان دلالة على سعة أفقه، والمدخل الجيد للموضوع يكون مستوعبا للمحاور الفكرية له ومستجمعا للمنطلقات العلمية لكل معالجة فيه.³

وكل هذا متوفر عند الشيخ محمد الخضر، ما يجعل القارئ منبها به ومنجذبا إلى

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 517.

² / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 518.

³ / محمود المرسي شولج، مرجع سابق، ص 112.

علمه من خلال مدخله للموضوع، هذا المدخل الثري بالمفاهيم الدقيقة والغني بالأفكار السديدة والممتلئ بكنوز العلم والمعرفة النفيسة¹.

ثالثاً: عنونة الأفكار

مما يمتاز به الشيخ الخضر أنه يعنون للأفكار التي يريد مناقشتها والموضوعات التي يعالجها، وهذا مما يضفي على البحث جمالاً وتشويقاً. ويطرد الملل عن نفوس القراء ويعينهم على فهم المقصود؛ بخلاف ما إذا كان الرد طويلاً مسترسلاً؛ فقد يبعث على السآمة وترك المواصلة في القراءة، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في رده على القاديانية وبيان بطلانها؛ حيث جاء على هيئة عناوين وتحت كل عنوان عدة عناصر وذلك كما يلي:

طائفة القاديانية

تفنيد مذهب القاديانية

نقض شبه القاديانية

وتحت كل عنصر من هذه العناصر بسط وإيضاح مختصر يفهمه القارئ ببسر وسهولة².

رابعاً: استخدام أسلوب التلخيص:

كان الشيخ الخضر يلخص نتيجة البحث وما توصل إليه؛ فتراه كثيراً ما يبدأ مقدماته بخلاصة موجزة، فمن أقواله في معرض رده على طه حسين في كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) قوله: «وصفوة المقال في هذا البحث أن اللغة القحطانية تقربت من اللغة العدنانية في عهد قبل الإسلام» وصارت تحاذيها في أكثر مفرداتها وقواعد نحوها وصرفها؛

¹ / المرجع السابق، ص 112.

² / محمد الحمد بن إبراهيم، مرجع سابق، ص 530.

ولنا في شعر القحطانيين نظرة أخرى سنلقيها إليك في أمد قريب".¹

خامساً: توظيف الثقافة والمعارف لخدمة الموضوع:

استخدم الشيخ محمد الخضر الأمثلة والشواهد والأدلة على جميع ما ذكر في كتاباته بصورة تدعو الى قراءتها بلذة ومتعة، والتفاعل معها، وهذا يدل على موسوعية الشيخ وسعة علمه وتكاملية معرفته. فقد شكّل مثالا ناطقا في توظيف الثقافة؛ والمعارف لخدمة الموضوع؛ حيث تجد ذلك ماثلا في بحوثه؛ من حيث تنوع مصادره وكثرة استشهاده، والشواهد على ذلك كثيرة جدا حيث تمتد تلك الردود ممتعة بالمباحث القرآنية؛ والحديثية والقواعد الأصولية والفقهية والحكم التشريعية؛ والنظرات المقاصدية والشواهد النحوية والبلاغية والمباحث الأدبية والتاريخي، كما أنها حافلة بالنقل عن علماء الإسلام؛ وغير علماء الإسلام كالمستشرقين ومن نحا نحوهم وهلم جرا.²

سادساً: العناية بحسن الختام

الخاتمة هي آخر ما يكتب، ولها أثرها الباقي؛ إذ هي آخر ما يعلق في النفس؛ وأكثر ما يبقى في الذهن ويتصل بالقلب؛ فإن كان وقعها حسناً انسحب ذلك عن جميع ما مضى؛ وإلا ساء الأثر وضاعت الغاية المنشودة؛ فيتعين على الكاتب أن يجتهد في حسن الختام وأن يجعله رشيقياً حلواً مشتملاً على جمال اللفظ وإصابة الغرض متضمناً إيجازاً لما مضى بأخصر عبارة وألطف إشارة، ولقد سارت خواتيم بحوث الشيخ الخضر على هذا النحو، فكان ذا عناية فائقة بختامها؛ حيث يجعل ذلك الختام حلواً رائعاً مؤدياً لغرض جامعاً لأطراف الموضوع في بعض الأحيان مختوماً بآية من كتاب الله عز وجل.³

فالشيخ محمد الخضر حسين يختم موضوعه مستخدماً هذه الأساليب " و خلاصة

¹ / محمد الخضر حسين، نقض كتاب الشعر الجاهلي، الموسوعة، مجلد 8، مصدر سابق، ص 99.

² / محمد الحمد بن إبراهيم، مرجع سابق، ص 532.

³ / المرجع السابق، ص 533.

الحديث"، و" وفصل المقال"، " صفوة الحديث" " خلاصة المقال"، " قد رأينا كيف"، وهذا كله من جودة الختام ومن ثقة الإمام في أنه أعطى الموضوع حقه، ووصل به إلى تمامه وكماله، ووفى أغراضه، وقام باستيعابه.¹

يقول في ختام موضوع الشجاعة وأثرها في عظمة الأمم: " وخلصت الحديث أن الأمة لا تحتفظ بعظمتها إلا أن تسود فيها الشجاعة، وأن عظمتها على قدر من تخفق عليهم رايها من ذوي البطولة، فكان حقا علينا أن نعنى في تربية أبنائنا بخلق الشجاعة الموصولة بالحكمة، حتى يروا العظائم صغائر، ويقتموا الخطوب بعزائم لا يعرف التردد ولا الوهن طريقها".²

وفي مقالة المروءة يقول: " قد رأينا كيف انتظمت المروءة أخلاقا سنوية وآدابا مضيئة، وعرفنا أن رسوخ هذه الأخلاق والآداب في النفس يحتاج إلى صبر ومجاهدة ودقة وملاحظة وسلامة وذوق"³

المطلب الثاني: جودة البيان

ولقد كان الشيخ الخضر معنيا كل العناية بجودة بيانه وإحكامه صناعة الكتابة؛ فكان حاضرا في ذهنه أن جودة البيان من أمضى الأسلحة ومن أولى ما ينبغي العناية به لمن يتصدى للكتابة، وكان أسلوبه جارياً على قواعد العربية من نحو وصرف؛ وبلاغة.

أولاً: الإيجاز أو الإطناب بحسب ما يقتضيه المقام.

الغالب على الشيخ الخضر أنه قد يسهب أو يوجز حسب ما يستدعيه المقام والحاجة؛ فقد تدعو الحاجة إلى أن يستطرد ويطنل؛ رغبة في إشباع الموضوع وقصداً إلى الصواب في المسائل المتنازع عليها؛ فتراه يورد مباحث في محل النزاع؛ لكي تتضح

¹ / محمد المرسي شولح، مرجع سابق، ص 117.

² / محمد الخضر حسين، رسائل الإصلاح، الموسوعة، مجلد 5، مصدر سابق، ص 159.

³ / المصدر السابق، ص 90.

الصورة للقارئ، ويلم بالموضوع من جميع أطرافه، ومع ذلك لم يكن يطيل كثيراً في ذلك ولا يخرج عن الموضوع؛ بل يكتفي بما تدعو الحاجة إليه.

"وذلك ناتج عن مراعاته لمقتضيات الأحوال التي تقتضي أن يكون الرد بالأسلوب السوي غير المسهب الذي يبعث على الملل ولا الموجز المخل الذي لا يشبع نهم القارئ وتطلعه".¹

ثانياً: الجمع بين الجزالة والسهولة:

كان الشيخ الخضر جامعاً بين هاتين الخصلتين: الجزالة والسهولة، وهذا أمر لا يتوافر لكل كاتب، فكان حريصاً عليهما في جميع ما يكتب عالماً بأثرهما وشدة وقعهما؛ ولذلك ترى الجزالة عنده من جهة ألفاظه وكونها متعارفة في استعمال الأدباء والبلغاء سالمة من الركاكة، وترى السهولة عنده من جهة سلاسة كلامه وتخيره لفظه « وإصابة معناه؛ وجودة مطالعه؛ ولين مقاطعه؛ واستواء تقاسيمه وقلة ضروراته؛ بل عدمها أصلاً، وهذا ما يعبر عنه بالسهل الممتع؛ السهل: الذي يفهمه من قرأه وسمعه والممتع: المتعذر على من رام أن يكتب أو يقول مثله²."

• التأثير بالأسلوب القرآني والاقتباس الدائم منه:

تؤكد مدرسة الإصلاح عند الشيخ محمد الخضر حسين على جعل منهج الدعوة إلى الله والطريق إلى الإصلاح، وإعادة الأمة إلى مجدها وتمكينها مستمداً من مصادره الشرعية المعروفة، الكتاب والسنة النبوية، وما كان عليه السلف الصالح، وعدم الاحتكام إلى سيرة الأفراد إلا بعد وضعها على محك القرآن والسنة.

كما تأثر أسلوبه بأسلوب القرآن، وانطبعت ألفاظ القرآن في ذهنه وقلبه انطباعاً جعله

¹ / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 537.

² / محمد بن إبراهيم الحمد، مرجع سابق، ص 540.

يقتبس منها كلمات مقالاته وأفافاظ رسائله، ومن جملة البليغة الموجزة التي تشتمل على السجع والاقباس والتضمين وغيرها من فنون البلاغة قوله في مقدمة (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم): "وبعد أن ألقى حبالا وعصيا من التشكيك والمغالطات زعم أن النبي - عليه السلام ما كان يدعو إلى دولة سياسية".¹

وقوله: "كانت المدة منذ شرع الإسلام في بناء دولة تمرس دعوته وشعائره وتعمل لإسعاد أهله إلى أن انتهى عهد الرسالة نحو عشر سنين...ماذا فعل محمد بن عبد الله - صلوات الله عليه في عشر سنين تلك المدة التي قضى المؤلف مثلها بالتفكير في منطق يميث شريعة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء".²

وقوله: "ولا يلاقي هذا الرأي تفنيداً من إخوان الإسلام فقط بل يرمي في وجهه التزييف كل من درس تاريخ عهد النبوة ووقف ساعة من نهار على روح التشريع".³

وقوله: "قبض المؤلف قبضة من أثر جورجي زيدان ونبذهما في كتاب (الإسلام وأصول الحكم)".⁴

وقوله: "وهل يرجو المؤلف من أمثال هؤلاء أن تقع أبصارهم على كتاب ينطوي على آراء تضع مكان الإيمان حيرة ومكان التقوى فسوقا ومكان إباية الضيم ذلة ثم يمرون عليه مرور الجاهل بسوء عاقبتها؟ فلا وربك لا يدعون وباءها يتفشى في النفوس الزكية والقلوب السليمة وإن امتلأت الدنيا أسنة تصفهم بالجمود وتلقبهم بالحجارة أو بما هو أشد قسوة".⁵

¹ / محمد الخضر حسين، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، الموسوعة، مجلد9، مصدر سابق، ص09.

² / محمد الخضر حسين، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، الموسوعة، مجلد9، مصدر سابق، ص149.

³ / المصدر السابق، ص145.

⁴ / المصدر نفسه، ص30.

⁵ / المصدر نفسه، ص170.

• الاستشهاد بالشعر

يستدل الإمام على أفكاره بأبيات الشعر، وهذا ما يوضح الصورة أكثر ويدل على غزارة المحفوظات الشعرية والأدبية لدى الامام، كما يدل على قدرة الإمام على وضع المعنى المناسب من خلال البيت الشعري¹.

وقد شكّل ديوان خواطر الحياة أفضل أمثله التي عبّرت عن قدرة الشيخ الأدبية والتي كان لها تأثير في العقول والنفوس.

ومن الأمثلة على ذلك مقال "الشجاعة وأثرها في عظمة الأمة"، فغالبا الأدلة في هذا المقال من الأبيات الشعرية وأيضا مقال "الحلم وأثره في سعادة الحياة الفردية والاجتماعية".

¹ / المرسي محمود شولج، مرجع سابق، ص122.

خاتمة

ختاما، نقول أنّ الشيخ محمد الخضر حسين مثّل بإنتاجه الفكري والثقافي المتنوع والشامل، وبعمله الدعوي المنظم والمستمر، وبجهوده الإصلاحية في مختلف الميادين مدرسة كاملة، وتجربة فذة وغنية.

كما مثّل الخضر حسين الأنموذج المثالي الذي يعكس قضايا الفكر الإصلاحي في العصر الحديث في مختلف بلدان العالم العربي، فقد عاش بين قرنين وهما القرن التاسع عشر والقرن العشرين " 1873 / 1958 " كما عاش حياته منقسمة الى فترتين متساويتين بين جناحي العالم العربي، "تونس، مصر، سوريا"، وهذا ما جعله دارسا لمختلف ظروف الوطن العربي، وغير مقتصر على بلد نشأته دون غيره من البلدان، فعكس بفكره ومؤلفاته مختلف مناحي الاصلاح، وتبنى مختلف قضايا الوطن العربي.

وقد سارت منظومته الإصلاحية وفق عمل ممنهج تميز بالشمولية والواقعية والوسطية والتدرج، واستعمل في سبيل ذلك وسائل متعددة (المحاضرات، المجلات، الجمعيات، ..) وهذا ما يؤكد حاجة الأمة حاليا إلى أفكار الشيخ الإصلاحية، فرغم البعد الزمني بينها وبين حاضرنا اليوم، الا أن القارئ لها يشعر كأنها كتبت بالأمس القريب، فالعمل الاجتماعي التي انبرى قلم الشيخ لإصلاحها، والأفكار الهدامة التي سعى جاهدا لفضحها، كلها عوامل نخر وفساد ما تزال إلى اليوم تعمل عملها في بدن الأمة، بل ازدادت الأوضاع الفاسدة حدة، وارتفع معدل الانحراف كثيرا عما كانت عليه الحال حين كتابة الشيخ مقالاته الإصلاحية تلك.

بناء على ذلك توصي الدراسة بما يلي :

- ضرورة القيام بدراسة علمية رصينة لكتاب رسائل الإصلاح، لاستخراج ما فيه من كنوز ثمينة ولإعادة هيكلة الكتاب وتقسيمه تقسيما موضوعيا مرتبا ترتيبا منطقيا، مع استبعاد الرسائل المكررة.

- كان للخضر دور كبير في تطوير الصحافة بالوطن العربي من خلال إصدار العديد من المجلات، ومن المهم القيام بدراسات لتحليل محتواها.

- القيام بدراسات أكثر تخصصاً تتجاوز ما سبق ذكره في الدراسات السابقة إلى تناول جهوده في القرآن وعلومه، وجهوده في السيرة النبوية، ومنهجه الأخلاقي وغيرها من الموضوعات التي تستحق البحث والدراسة.

في الأخير، لا تزعم هذه الدراسة تقديم القول الفصل، ولكنها تقول ما قاله العماد الأصفهاني:

"إنني رأيت أنه لا يكتب أحد كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غيرت هذا لكان أحسن، ولو أزيد هذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل.

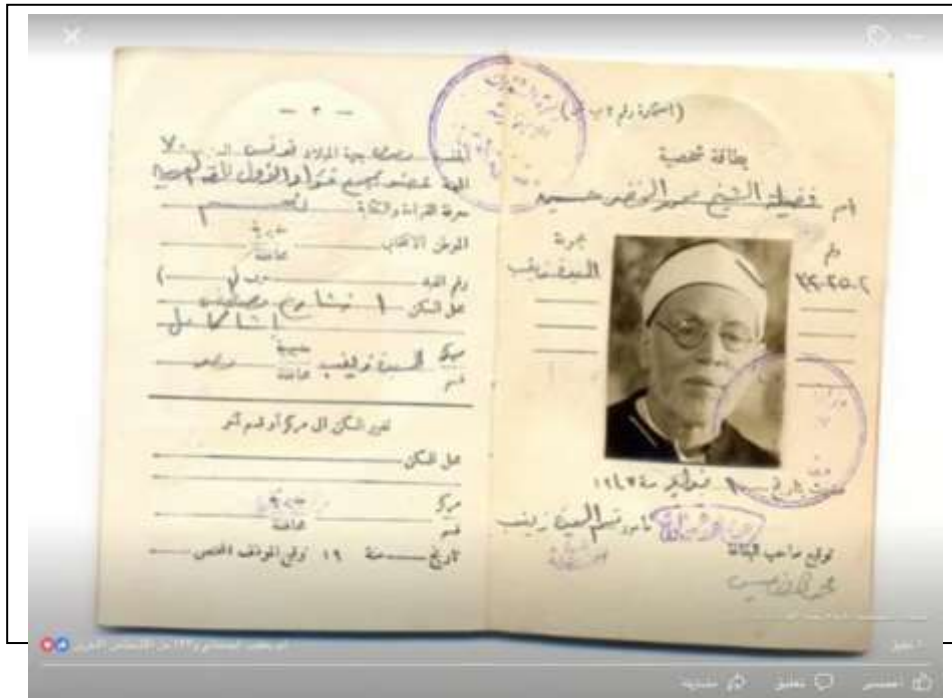
وهذا من أعظم العبر وهو دليل استيلاء النقص على جملة البشر."

ولأن لكل شيء إذا ما تمَّ نقصان، حَسْبُنَا أَنَا حَاولْنَا،

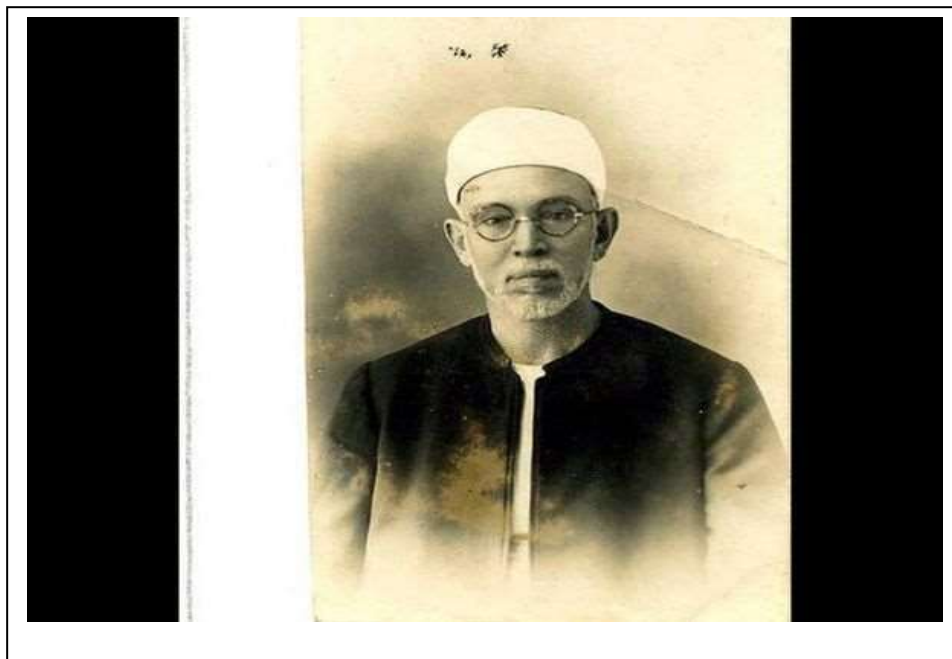
والله نرجو أن يعفو ويتجاوز عن كل خلل.

الملاحق

الملحق رقم 01 : بطاقة شخصية لفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين



الملحق رقم 02 : صورة للإمام محمد الخضر حسين في شبابه



الملحق رقم 03 : صورة الإمام محمد الخضر حسين في شيخوخته.



الملحق رقم 04 :

الإمام محمد الخضر حسين إلى يساره أخوه اللغوي زين العابدين بن الحسين



الملحق رقم 05 :



الملحق رقم 06 :

الإمام الخضر مع كاتبه الشيخ عبد الحلیم بسيوني في مكتبه بمشيخة الأزهر



الملحق رقم 07 : الإمام الخضر مع ابن أخيه المحامي علي الرضا الحسيني



الملحق رقم 08 : الإمام الخضر في مكتبه بمشيخة الأزهر الشريف



الملحق رقم 09: الإمام وأعضاء من شباب جمعية الهداية الإسلامية



هذا الرسم يمثل فضيلة رئيس الجمعية وعن يمينه الدكتور احمد نسيم سوسه الذي أعلن إسلامه بدار الجمعية، وعن يساره السيد محمد الهاشمي أحد أعضاء البعثة العراقية. يحف بهم حضرة صاحب العزة محمد حلمي بك وكيل التفتيش الإداري بوزارة المعارف، وحضرة الأستاذ محمود حافظ المدرس بكلية العلوم وجامعة من شيان الجامعة وأعضاء شعبة شباب جمعية الهداية

(مجلة الهداية الإسلامية - الجزء الثالث من المجلد التاسع)

الملحق رقم 10 :

صورة للإمام الخضر وضيوف صينيين، وهيئة تحرير مجلة (نور الإسلام)

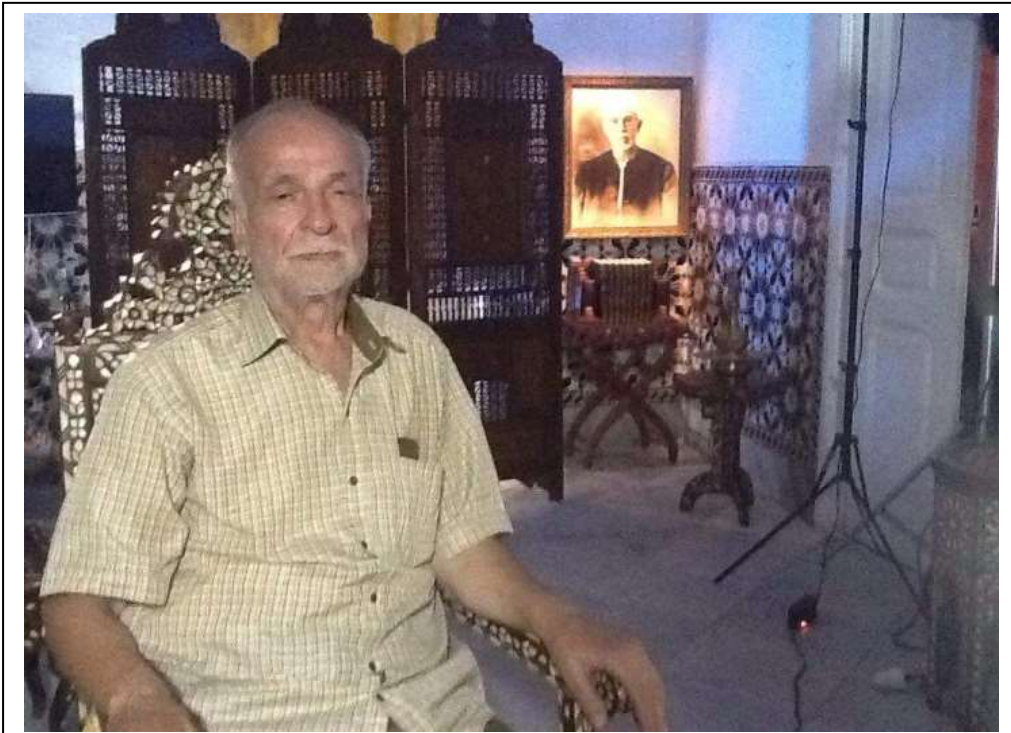


الملحق رقم 11 :



الملحق رقم 12 :

المحامي علي الرضا الحسيني ابن الشيخ زين العابدين بن الحسين، أخ الإمام الخضر،
- جامع أعمال الإمام(عمه) في الموسوعة.-



الملحق رقم 13 : المحامي علي الرضا مع شيخ الزاوية العثمانية الشيخ عبد القادر
عثماني



الفهارس

أولاً: فهرس الآيات:

الصفحة	رقمها	طرف الآية
سورة البقرة		
34	31	[وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا...]
72	61	[...وَوَضَعْنَاهُمْ عَلَىٰ آلِهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ..]
71	75	[... وَقَدْ كَانَ قَدِيمًا مِّنْهُمْ ...]
70	84	[وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ...]
69	97	[قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبًا بِإِذْنِ اللَّهِ...]
69	106	[مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ...]
72	140	[... وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ...]
73	166	[...وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ]
213	173	[وَمَا أَهْلٌ بِهِ لِمُغِيرِ اللَّهِ]
199	188	[ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدخلوا بها إلى الحكام...]
69	189	[... وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ...]
118	228	[وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ مِثْلُهُنَّ دَرَجَةً..]
202	256	[لَا إِجْرَاءَ فِي الدِّينِ]
231	264	[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى]
229	267	[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ...]
226	273	[لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...]
سورة آل عمران		
31	18	[شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْهُسْبِ....]
92	46	[وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ]
195	159	[وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ]

سورة النساء		
119	03	[فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً]
224	06	[فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشَدًا فَقَادِعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ]
118	19	[وَعَاشِرُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ]
227	36	[وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ]
181	59	[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...]
234	65	[فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُخَرِّمُواكَ فِيمَا شِئَرَ بَيْنَهُمْ...]
188	105	[إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ...]
سورة المائدة		
213	05	[وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلًّا لَكُمْ...]
200	33	[إِنَّمَا جِزَاءُ الَّذِينَ يَحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...]
200	38	[وَالسَّارِقِ وَالسَّارِقَةِ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءَ بِمَا كَسَبَا...]
191	42	[وَإِنْ حَكَمْتُمْ فَإِنَّكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ]
12	48	[لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا...]
234	49	[وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ...]
215	87	[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ...]
سورة الأنعام		
149	137	[وَكَذَلِكَ زَيْنَ الْكَثِيرِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ...]
سورة الأعراف		
148	10	[وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ...]
78، 224	31	[خُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ...]
215،	32	[قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ...]

223		
سورة الأنفال		
70	24	[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ...]
سورة التوبة		
68	21	[يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ...]
77	34	[وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...]
سورة يونس		
68	64	[لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ...]
سورة هود		
14	88	[إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِضْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ...]
سورة يوسف		
89	04	[إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ كَوْكَبَاتِ ...]
سورة الإسراء		
187	04	[وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا]
187	23	[وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا]
224	27	[إِنَّ الْمُبْذَرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ]
224	29	[وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ مَنُوكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسِطِ ...]
سورة الأنبياء		
68	103	[لَا يَخْرُجُ مِنْهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ]
سورة الحج		
71	28	[... وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ ...]

سورة النور		
148	02	[... وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ...]
230	22	[ولا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ ...]
116	30	[قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ...]
116	31	[(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ...]
سورة الفرقان		
224	67	[وَالَّذِينَ إِذَا أَنْهَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ...]
سورة الشعراء		
143	195	[بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ]
سورة الزمل		
131	18	[قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ...]
سورة القصص		
198، 216	77	[وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ...]
سورة العنكبوت		
112	45	[... إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ...]
94	69	[وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ...]
سورة الروم		
148	24	[وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ...]
سورة الأحزاب		
129	04	[وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ...]
88	40	[مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ ...]
117	59	[يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ...]

سورة سبأ		
227	39	[وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُمْ يُخْلِفُهُ وَهُمْ خَيْرُ الرَّازِقِينَ...]
سورة طه		
187	20	(وَاللَّهُ يَفْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَفْضُونَ بِشَيْءٍ...]
سورة الشورى		
195، 196	38	[وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ...]
سورة الأحقاف		
214	20	[أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا...]
سورة الصافات		
148	102	[فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ...]
سورة المجادلة		
229	09	[وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ]
101	22	[لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...]
228	-24 25	[وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَغْلُومٌ (24) لِللسائلِ وَالْمَخْرُومِ]
سورة الطلاق		
198	07	[لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ...]
سورة الحجرات		
201	12	[وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا...]
197	13	[يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...]

سورة الحشر		
229	9	[وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ...]
سورة الإنسان		
229	9-8	[وَ يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِرِجَالِكُمُ اللَّهُ ...]
سورة المعارج		
228	-24 25	[وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّغْلُوبٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَخْرُومِ]
سورة المطففين		
210	4-1	[وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ...]
سورة الكافرون		
202	06	[لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ]

ثانيا: فهرس الأحاديث

الصفحة	فهرس الأحاديث
236	"ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعته وبايعه المهاجرون، ثم بايعته الأنصار"
228	"اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ"
201	"اجتنبوا السبع الموبقات - يعني: المهلكات - قلنا: وما هن يا رسول الله؟ .."
33	"إِذْ قَالَ لَهُ وَرَقَةَ بْنُ نَوْفَلٍ: لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي... "
188	"إِذَا حَكَّمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَّمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ"
196	"أما إن الله ورسوله لغنيان عنها - أي: المشورة-، ولكن جعلها الله رحمة لأمتي، فمن استشار منهم، لم يعدم رشداً، ومن تركها، لم يعدم غيياً"
216	"أما له ثوبان غير هذين؟" فقلت: بلى يا رسول الله، له ثوبان في العيبة كسوته إياهما. قال: "فادعُهُ، فَمُرَّهُ فَلْيَلْبَسَهُمَا"
227	"إن من أبر البر صلة الرجل أهل وِدَّ أبيه بعد أن يولي"
236	"أنتم أعلم بأمور دنياكم"
201	"أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ بِالْأَمْوَالِ"
236	"بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا، وأحبنا إلى رسول الله ρ فأخذ عمر بيده فبايعه، وبايعه الناس"
230	"بلى والله، يا ربنا إنا لنحُبُّ أن تغفرَ لنا. وعاد له بما كان يصنع"
226	"دينارٌ أنفقته في سبيل الله عزَّ وجلَّ، ودينارٌ في المساكين، ودينارٌ في رقبته، ودينارٌ في أهلك، أعظمها أجراً الدينارُ الذي تُنْفِقُهُ على أهلك "
210	"رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى"
229	"على كل مسلم صدقة". فقالوا: يا نبي الله، فمن لم يجد؟ قال: "يعمل بيده، فينفع نفسه، ويتصدق"
191	"القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة، رجل قضى بغير الحق فعلم ذلك فذاك في النار، وقاضٍ لا يعلم فأهلك حقوق الناس فهو في النار، وقاضٍ قضى بالحق فذلك في الجنة"
228	"لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق"

70	"لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض"
188	"لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَىٰ هَلَاكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَآخَرٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا"
91	"لا نبوة بعدي إلا المبشرات"، قال: قيل: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: "الرؤيا الحسنة - أو قال - الرؤيا الصالحة"
93	"لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة"
189	"لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة"
197	"لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"
71	"ما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله فإن وافق كتاب الله، فأنا قلته، وإن خالف كتاب الله، فلم أقله"
76	"ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده"
228	"ما نَقَصَ مَالٌ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظَلَمٌ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ"
199	"مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شَيْءٍ مِنَ الْأَرْضِ طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ"
118	"واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع أعوج، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه، كسرته، وإن تركته، لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً".
226	"والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره، خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه"
214	"والله! ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا؛ كما بسطت على من كان قبلكم، فتتافسوها كما تتافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم"
229	"ورجلٌ تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه"
227	"ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم جاره"

ثالثاً: فهرس الأعلام المترجم لهم

العلم	الصفحة
أحمد الشرباصي	38
أحمد تيمور باشا	44
آدم سميث	204
ألفريد مارشال	205
بول سامويلسون	205
خير الدين التونسي	22
السفطي	28
علي بن عمر	24
الكفراوي	28
محمد الصادق باي	21
محمد الطاهر بن عاشور	46

رابعاً: قائمة المصادر والمراجع

المصحف الشريف برواية حفص عن عاصم.

قائمة المصادر:

محمد الخضر حسين

جميع المؤلفات التي اشتملت عليها موسوعة الأعمال الكاملة، قام بجمعها وضبطها ابن أخيه المحامي علي الرضا الحسيني.

طباعة: دار النوادر، سوريا، لبنان، الكويت، الطبعة الأولى سنة 1431هـ-2010م.

ورتبها كما يلي:

1. المجلد 1: أسرار التنزيل
2. المجلد 2: بلاغة القرآن - دراسات في الشريعة الإسلامية.
3. المجلد 3: محمد رسول الله وخاتم النبيين - تراجم الرجال.
4. المجلد 4: الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان - محاضرات اسلامية.
5. المجلد 5: رسائل الإصلاح - الدعوة إلى الإصلاح.
6. المجلد 6: دراسات في العربية وتاريخها - دراسات في اللغة.
7. المجلد 7: الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية - ديوان خواطر الحياة
8. المجلد 8: نقض كتاب في الشعر الجاهلي.
9. المجلد 9: نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم - جبهة الدفاع عن افريقيا الشمالية - القاديانية والبهائية.
10. المجلد 10: الهداية الإسلامية - أحاديث في رحاب الأزهر.
11. المجلد 11: تونس وجامع الزيتونة - رسائل الخضر حسين - الرحلات.
12. المجلد 12: هدى ونور - السعادة العظمى - المغني عن الحفظ والكتاب.
13. المجلد 13: الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين .

14. المجلد 14: كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين - الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر.
15. المجلد 15: ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر - ملتقى الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي "تونس".
16. محمد الخضر حسين: رسائل الإصلاح، الجزء 01-02، دار الصفوة- مكتبة الإيمان، ط01، مصر، 2011، ص 435.
17. محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، المكتب الإسلامي، مكتبة دار الفتح، دمشق، 1960.
18. محمد الخضر حسين الجزائري: القياس في اللغة العربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986
19. محمد الخضر حسين: نقض كتاب "في الشعر الجاهلي"، مؤسسة هنداوي، مصر، 2012.
20. محمد الخضر حسين: رسائل الإصلاح، الجزء 01-02، دار الصفوة- مكتبة الإيمان، ط01، مصر، 2011، ص 435.

المراجع:

1. ابن جرير الطبري: تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة، الجزء الرابع.
2. ابن حبان البستي: تعليقات الدارقطني على المجروحين لابن حبان البستي، الفاروق الحديثية، القاهرة، مصر، 1414هـ-1994م، ط1
3. ابن حزم الظاهري: الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار الجيل، بيروت، الجزء 4، ط 2 (1416هـ-1996م).
4. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار الإمام مالك، الجزائر، ج 02، 2006.
5. أبو البركات بن الأنباري: لمع الأدلة في أصول النحو تحقيق سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، 1985.

6. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب، دار الكتب العلمية، الجزء 06، لبنان، 1993.
7. أبو القاسم محمد كرو: أعلامنا " محمد الخضر حسين "، دار المغرب العربي، تونس، 1973، ص64.
8. أبو القاسم محمد كرو: أعلامنا محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق، دار المغرب العربي، ط1، تونس، 1973م..
9. أحمد بن حنبل: المسند، تطبيق جامع الكتب التسعة.
10. أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي: المصباح المنير، دار الحديث، 2003،
11. أحمد جمال الدين موسى: مبادئ الاقتصاد السياسي، دار النهضة العربية، ط1، مصر، 2003.
12. أحمد حماني: رسالة الدلائل البادية على ضلال البابية وكفر البهائية، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، د. د. ت.
13. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، المجلد 5، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط7، 1986.
14. أسامة محمد المرضي سليمان خيال: التحليل الاقتصادي الهندي، دن، 2018، السودان.
15. الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط: محمد خليل عيتاني، ط1؛ بيروت: دار المعرفة، 1418هـ/1998م.
16. بشير ملاح: مواقف الحركة الإصلاحية الجزائرية من الثقافة الفرنسية، عالم المعرفة، الجزائر، 2013.
17. جلال الدين السيوطي: الدرر المنثور لمؤلفه في التفسير بالمأثور، ج2، مكتبة المثنى، بغداد.
18. جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، المجلد 02، مصر، د.ت.
19. جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، د. ط، بيروت: دار الجيل ودار لسان العرب، 1408هـ/1988م.
20. خليل الحبر: المعجم العربي الحديث، مكتبة لاوس، باريس، 1973.
21. رأفت الشيخ: تاريخ العرب المعاصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1996.

22. رفيق يونس المصري: "بحوث في الاقتصاد الإسلامي"، دار المكتبي، دط، 2001،
23. سليمان الصيد، تاريخ الشيخ علي بن عمر شيخ زاوية طولقة الرحمانية، دار هومه، بوزريعة- الجزائر.
24. شوقي ضيف: تيسيرات لغوية، دار المعارف، مصر، دت.
25. شوقي ضيف: مجمع اللغة العربية في خمسين عاما، مطبعة المجمع، مصر، 1984.
26. الطاهر بن سالم: محمد الخضر حسين "النص القرآني في فكره الإصلاحية"، دار النقوش العربية، ط01، تونس، 2015.
27. طه جابر العلواني: نحو منهجية معرفية قرآنية، دار الهادي، لبنان، 2004م.
28. طه حسين: في الشعر الجاهلي، دار النهر، ط02، مصر، 1996، ص07.
29. الطيب برغوث: المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها، دار قرطبة، الجزائر، 2004.
30. عبد الحميد بن ابن باديس: تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2002م.
31. عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني: فقه الدعوة الى الله، دار القلم، دمشق، 1996. محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت 1973.
32. عبد الرحمن يسري أحمد: "الاقتصاد الإسلامي بين منهجية البحث وإمكانية التطبيق"، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، البنك الإسلامي للتنمية، جدة، 1999.
33. عبد السلام العبادي: "الملكية في الشريعة الإسلامية"، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الأردن، ط1، 1974، ج1.
34. عبد الكريم زيدان: "نظام القضاء في الشريعة الإسلامية"، مؤسسة الرسالة، مكتبة البشائر، عمان الأردن، الطبعة الثانية (1409هـ-1989م).
35. عبد الله التل: خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، دار القلم، بيروت، 1965م.
36. عبد الله العقيل: من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، تقديم: مصطفى مشهور وآخرون، ج 01، دار البشير، ط 8، د.ب.ن، 1429هـ-2008م.
37. عبد المجيد النجار: عوامل الشهود أعلام التصوف الحضاري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999.

38. عبد المجيد النجار: فقه التحضر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
39. عبد المنعم القاسمي الحسني: في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، دار الخليل القاسمي، الطبعة الأولى 1427هـ، بوسعادة-الجزائر.
40. علي المحجوبي، انتصاب الحماية الفرنسية بتونس، سراس للنشر، تونس، 1986، ص 154-152.
41. علي سامي النشار: مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1984.
42. علي عبد الحليم محمود: فهم أصول الإسلام في رسالة التعاليم، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 1994م.
43. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، المجلد 01، ط08، بيروت، 2005.
44. الفيومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، لبنان، بيروت، المكتبة العلمية، مادة الصوف، ج:1.
45. مالك بن أنس: الموطأ، الطبعة 1، 1324هـ-2003م.
46. المجلس الأعلى للغة العربية: الفصحى وعامياتها لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب، دار الخلدونية، الجزائر، 2008.
47. محمد الزحيلي: التنظيم القضائي في الفقه الإسلامي وتطبيقه في المملكة العربية السعودية، دار الفكر، دمشق، ط1، 1400هـ-1980م.
48. محمد المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، الجزء 34، 1996.
49. محمد بن إبراهيم الحمد: الشيخ محمد الخضر حسين سيرته ومؤلفاته، دار ابن خزيمة، الرياض-السعودية، الطبعة الأولى 1435هـ-2014م.
50. محمد بن إبراهيم الحمد: منهج الشيخ محمد الخضر حسين في مواجهة الانحرافات العقدية، المجلد الأول، دار ابن خزيمة، المملكة العربية السعودية، 2015.
51. محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار الاعتصام، القاهرة 1423هـ/2003م.
52. محمد حرب: السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، دار القلم، دمشق، ط1، 1410هـ-1990م.

53. محمد حسن عبد العزيز: القياس في اللغة العربية، دار الفكر العربي، مصر، 1995.
54. محمد رجب البيومي: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، ج 1، دار القلم-الدار الشامية، ط1، دمشق-بيروت، 1415 هـ -1995 م.
55. محمد سعيد رمضان البوطي: من الفكر والقلب فصول من النقد في العلوم والاجتماع والأدب، دار الهدى، الجزائر، 1990.
56. محمد صالح حمدي، فقه المعاملات المالية، دار التميز، الجزائر العاصمة، ط1، 2014.
57. محمد عبده: الأعمال الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات، ج 2، بيروت، 1972.
58. محمد عثمان شبير نقلا عن معجم لغة الفقهاء لقلعجي: المعاملات المالية المعاصرة في الفقه الإسلامي، دار النفائس، الأردن، ط4، 2001.
59. محمد عثمان شبير: فتاوى الإمام محمد الخضر حسين، دار القلم، دمشق، ط1، 2017.
60. محمد عمر شابرا: ما هو الاقتصاد الإسلامي؟، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، ط2، البنك الإسلامي للتنمية، جدة، 2000.
61. محمد موعدة: محمد الخضر حسين حياته وآثاره، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974 م.
62. محمود أحمد السيد: شؤون لغوية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت-دمشق، 1989.
63. محمود المرسي شولح: رؤى الإصلاح عند الإمام محمد الخضر حسين في: كتاب الأمة، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، ط1، قطر، 1435 هـ - 2013.
64. مستوري محمد: التأمين التجاري، حقيقته وحكمه وبديله في الفقه الإسلامي، مجلة الاجتهاد للدراسات القانونية، تمناست، ع:02، 2012.
65. مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تطبيق جامع الكتب التسعة.
66. مصطفى صبري - تقديم مصطفى حلمي: الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط2، 1409 هـ - 1989 م.
67. ناصر لوحيشي: صحح لغتك، دار الطليعة، ط03، الجزائر، 2004.

الدراسات الأكاديمية والمواقع الإلكترونية:

- 1- جيلالي بن ديمية: تفسير محمد الخضر حسين لآي القرآن وملاحح الإصلاح فيه، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التفسير بين القديم والحديث، جامعة تلمسان، 2014/2013.
- 2- زغودة نياح مروش: "القياس وقضاياها عند محمد الخضر حسين الجزائري من خلال كتابه القياس في اللغة العربية"، في مجلة الأثر، العدد 29، سبتمبر 2016، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة.
- 3- علي الرضا الحسيني: "ومضات من حياة العلامة محمد الخضر حسين" المجلة الخلدونية، العدد 8، ديسمبر 2010م - صفر 1423هـ، الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية لولاية بسكرة، بسكرة، الجزائر.
- 4- كمال مجيدي: "التفكير اللساني عند محمد الخضر حسين"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في الأدب واللغة العربية، تخصص علوم اللسان العربي، كلية الآداب واللغات جامعة محمد خيضر بسكرة، السنة الجامعية 2015-2016.
- 5- مستوري محمد: "التأمين التجاري"، حقيقته وحكمه وبديله في الفقه الإسلامي، مجلة الاجتهاد للدراسات القانونية، تمارست، ع:02، 2012.
- 6- مسعود طواهرية: جهود محمد الخضر حسين اللغوية دراسة وصفية تحليلية، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في اللغة، كلية اللغة العربي والأدب والفنون، جامعة باتنة 01، الجزائر، 2015/2016.
- 7- نجوى عبد العزيز عبد السلام بناني: أشهر الردود على كتاب "في الشعر الجاهلي" لطفه حسين، رسالة ماجستير في اللغة العربية، كلية اللغة العربية، جامعة ام القرى، المملكة العربية السعودية، 2005.
- 8- نجيب بن خيرة: "جهود الأزهر في مواجهة التغريب الشيخ محمد الخضر حسين أنموذجاً"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة-الجزائر المجلد 23، العدد 01، 2008.

9- نصيرة هرنون: المشروع الإصلاحى عند عبد الحميد بن باديس، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة 2، الجزائر، ع50، 2018.

10- ياسر أبو شبانة، " الجزء الثالث من كتاب (رسائل الإصلاح) للإمام الأكبر الشيخ/محمد الخضر حسين دراسة تحليلية دعوية"، جامعة المنصورة، دعوة وثقافة إسلامية، سنة 2008.

11- شبكة فلسطين للحوار: " رائد العمل الخيري عبد الرحمان السميطة رجل بأمة" تاريخ الإنشاء: 28-12-2011 على موقع مكتبة نور

<https://www.noor-book.com/>

خامسا: فهرس الموضوعات:

الصفحة	العنوان
أ	مقدمة
الفصل التمهيدي	
2	المبحث الأول: موضوع الدراسة وخطواتها المنهجية
2	1- إشكالية الدراسة
3	2- المنهج المعتمد
4	3- أهداف الدراسة
4	4- أهمية الموضوع
5	5- أسباب اختيار الموضوع
6	6- الدراسات السابقة
12	المبحث الثاني: مفاهيم الدراسة
12	المنهج
14	الإصلاح
الفصل الأول: حياته	
18	المبحث الأول: ظروف عصره
18	المطلب الأول: أوضاع العالم الإسلامي
20	المطلب الثاني: أوضاع تونس
22	المطلب الثالث: أوضاع مصر
24	المبحث الثاني: مولده ونسبه ونشأته
24	المطلب الأول: مولده ونسبه

25	المطلب الثاني: أسرته
27	المطلب الثالث: نشأته
30	المبحث الثالث: شيوخه وأخلاقه
30	المطلب الأول: عمر بن الشيخ
33	المطلب الثاني: سالم بوحاجب
35	المطلب الثالث: محمد النجار
38	المطلب الرابع: أخلاقه وصفاته وبعض ما قيل فيه
45	المبحث الرابع: أعماله ومؤلفاته
45	المطلب الأول: أعماله في المرحلة التونسية: (1293هـ - 1331هـ)
47	المطلب الثاني: أعماله في المرحلة السورية: (1331هـ - 1339هـ)
49	المطلب الثالث: أعماله في المرحلة المصرية (1339هـ - 1377هـ)، (1920م - 1958م)
55	المطلب الرابع: مؤلفاته
الفصل الثاني: ميادين الإصلاح عند محمد الخضر حسين	
66	المبحث الأول: الإصلاح الديني
66	المطلب الأول: منهج محمد الخضر في تفسير القرآن
68	1- تفسير القرآن بالقرآن
70	2- تفسير القرآن بالحديث
71	3- تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين
72	4- الاعتماد على روايات أهل الكتاب

72	5- الاعتماد على الشعر
72	6- الاعتماد على اللغة
75	المطلب الثاني: إصلاح الطرق الصوفية عند الخضر حسين
85	المطلب الثالث: تصدي محمد الخضر للطوائف الدينية المنحرفة
94	المطلب الرابع: مواجهة محمد الخضر للإلحاد
105	المبحث الثاني: الإصلاح الاجتماعي
105	المطلب الأول: منهج الخضر حسين في إصلاح التعليم - الإصلاح التربوي -
106	1/ نقائص التعليم في نظر الخضر حسين
110	2/ أسس إصلاح التعليم عند محمد الخضر حسين
115	المطلب الثاني: المرأة في فكر محمد الخضر حسين
121	المطلب الثالث: موقف الخضر من تقليد الغرب
130	المبحث الثالث: الإصلاح الثقافي
130	المطلب الأول: آراء محمد الخضر في قضايا اللغة وفي إصلاح العربية
130	1/ مفاهيم حول اللغة وأصل نشأتها
132	2/ رأي محمد الخضر حسين في إصلاح متن العربية
134	3/ نظرة محمد الخضر حسين لثنائية الفصحى والعامية
139	المطلب الثاني: القياس عند محمد الخضر حسين
140	أولاً: فائدة القياس وأنواعه عند محمد الخضر حسين
140	1/ مفهوم القياس وفائدته

142	2/ أنواع القياس عند محمد الخضر حسين
147	ثانيا: رأي محمد الخضر في المصادر اللغوية للقياس
147	1/ القرآن الكريم وقراءاته
150	2/ الحديث الشريف
153	3/ الاحتجاج بكلام العرب
154	المطلب الثالث: جهود محمد الخضر في بيان فضل اللغة العربية والدفاع عنها
166	المطلب الرابع: نقض الخضر لكتاب " في الشعر الجاهلي "
177	المبحث الرابع: الاصلاح السياسي
177	المطلب الأول: السياسة الشرعية ونظام الحكم في الإسلام عند محمد الخضر
186	المطلب الثاني: أهمية القضاء العادل عند محمد الخضر حسين
187	أولاً: تعريف القضاء وبيان مشروعيته
187	ثانيا: تعريف القضاء في الاصطلاح الفقهي
193	المطلب الثالث: منهج محمد الخضر حسين في طرح الحرية
204	المبحث الخامس: الاصلاح الاقتصادي
204	المطلب الأول: الاقتصاد عند الإمام محمد الخضر حسين
211	المطلب الثاني: الرفاهية في الإسلام
219	المطلب الثالث: مضار الاسراف
225	المطلب الرابع: حقوق الفقراء
الفصل الثالث: منهجية محمد الخضر حسين في الإصلاح	

233	المبحث الأول: مصادر الشيخ محمد الخضر في الإصلاح
233	المطلب الأول: القرآن الكريم
234	المطلب الثاني: السنة النبوية
237	المطلب الثالث: الإجماع
239	المطلب الرابع: الكتب
245	المبحث الثاني: وسائل الشيخ محمد الخضر في الإصلاح
245	المطلب الأول: المحاضرات
247	المطلب الثاني: الكتب والمجلات والأحاديث الإذاعية
253	المطلب الثالث: تأسيس الجمعيات والمجامع العلمية
261	المطلب الرابع: الحوار والشعر
266	المبحث الثالث: خلق الشيخ في الإصلاح
266	المطلب الأول: مقابلة الإساءة بالإحسان ونزاهة القلم
266	أولاً: مقابلة الإساءة بالإحسان
268	ثانياً: نزاهة القلم
269	المطلب الثاني: الأمانة والانصاف والاخلاص
269	أولاً: الأمانة العلمية
271	ثانياً: الإنصاف
274	ثالثاً: إخلاص النية
276	المبحث الرابع: الأساليب المنهجية للشيخ في الإصلاح
276	المطلب الأول: سمات منهجه الإصلاحية
282	المطلب الثاني: منهج الخضر في الرد على المخالفين

291	المبحث الخامس: الأساليب الأدبية للشيخ في الإصلاح
291	المطلب الأول: جمال العرض
291	أولاً: العناية باختيار عنوانات الردود
293	ثانياً: حسن الافتتاح
293	ثالثاً: عنونة الأفكار
294	رابعاً: استخدام أسلوب التلخيص
294	خامساً: توظيف الثقافة والمعارف لخدمة الموضوع
295	سادساً: العناية بحسن الختام
296	المطلب الثاني: جودة البيان
296	أولاً: الإيجاز أو الإطناب بحسب ما يقتضيه المقام
297	ثانياً: الجمع بين الجزالة والسهولة
301	خاتمة
304	الملاحق
الفهارس	
312	أولاً: فهرس الآيات القرآنية
318	ثانياً: فهرس الأحاديث النبوية
320	ثالثاً: فهرس الأعلام المترجم لهم
321	رابعاً: قائمة المصادر والمراجع
329	خامساً: فهرس الموضوعات